شيماء هشام سعد

الأشجار ليست عمياء

رواية

ضائر
t.me/twinkling4

دار دَوِّن

جميع الحقوق محفوظة لدا: مكتبة ضَاد، الإلكترونية.©

تمّ تجهيز هذه النسخة بواسطة:

أشرف غالب

شيماء هشام سعد: الأشجار ليست عمياء، رواية
الطبعة العربية الأولى: يناير ٢٠٢٤
رقم الإيداع: ٤١٥٤/ ٢٠٢٤ - الترقيم الدولي: ٢ - ٤٣٢ - ٨٠٦ - ٩٧٧ - ٩٧٨

جَميـعُ حُـقـــوقِ الطَبْـعِ والنَّشرِ محْـــفُوظةٌ للناشِرْ
لا يجوز استخدام أو إعادة طباعة أي جزء من هذا الكتاب بأي طريقة
بدون الحصول على الموافقة الخطية من الناشر.

إن الآراء الـــواردة فـــي هـــذا الكتـــاب
لا تُعبـــر عـــن رؤيـــة الناشـــر بالضـــرورة
وإنمـــا تعبـــر عـــن رؤيـــة الكـــاتب.

© دار دَوْنْ

عضو اتحاد الناشرين المصريين.
عضو اتحاد الناشرين العرب.
القاهرة - مصر
Mob +2 - 01020220053
info@dardawen.com
www.Dardawen.com
٢٧٠٦٧٥٥٨٨١

إهداء إلى كلٌّ من

أمل بشير في بلدها المُحاصَر والمُمتحَن

هبة أبو ندى في المكان الذي ذهبتْ إليه

وغزة بكل مقاوميها رجالا ونساءً

وأطفالا وعجائز

«أنا واثقٌ بأنني لن أختفي بعد الموت، سينفصل جزءٌ لا
مادي من كياني -لا أعرفُ بالضبط ما
هو هذا الجزء وأين موقعه، ولربما في
الخلية ولربما في المخ- ويعود
إليكم بهيئة أخرى»

عدنان المبارك

«وقلتُ لنفسي: لا بدَّ أن أكونَ موجودًا رغم كل شيء،
لقد حاولوا أن يُذوِّبوني كقطعة سكر
في فنجانٍ ساخن، وبذلوا -يشهد الله-
جهدًا عجيبًا من أجل ذلك، ولكنني
ما أزال موجودًا رغم كل شيء»

غسان كنفاني

-١-

إلياس

كان يلتقط أنفاسه بصعوبة كأنه يتنفس في الماء، صوته راجف وحروفه مفككة، بالكاد تمكنت من تهدئته ليتكلم بشكل أوضح ويخبرني أنها عادت ويلومني ويلوم الجميع لأن أحدًا لم يُصدقه، وأنه وجد كلبه العجوز مشنوقا على باب البيت.

أغلقت الهاتف بعد أن وعدته بأنني سأكون عنده خلال ثلاث ساعات، كنا في الخامسة صباحًا وكنتُ أسمع عواء العاصفة في الخارج، سيكون عليَّ مغادرة البيت في مثل هذا الطقس غير المتوقع، ولا أظن أن أمينة سوف تمرر هذا بسهولة دون انفعال أعرف أن دافعه الحب. وطنت نفسي على امتصاص غضبها المؤكد قبل أن أعود إلى غرفة النوم لأرتدي ثيابي، وجدتُها مستيقظة وجالسةً في السرير بملامح متحفزة وعينين تجاهدان لطرد آثار النعاس، ها هي بوادر العاصفة إذًا، تحلَّ بالحكمة يا إلياس، ما من وقت لخوض جدال طويل، وما من إمكانية كذلك لمغادرة البيت وهي غاضبة!

ألقيت تحية الصباح بألطفِ نبرةٍ أستطيعها، لكنها لم ترد، وعوضا عن ذلك راحت تعبث بأصابعها الرفيعة في مؤخرة رأسها، الحركة التي تدل على توترها، لكنها بدلا

من إظهار ذلك التوتر النابع من خوفها عليَّ زمَّت شفتيها وقالت متأففة:

«اتصل بك من جديد، أليس كذلك؟»

قلتُ بهدوء وأنا أُزرِّر قميصي:

«قضيته في تطور عجيب، كل يوم يحدث شيء ما أغرب من سابقه»

انتبهتُ إلى أنني أُكلمُها عنه كما لو أنه مجرد عميل لا تعرفه، هل بدافعٍ من شعورٍ داخلي بضرورة تحييد علاقتها به هذه اللحظة تجنبًا لآثاره السيئة عليها؟ هل بدافعٍ من التحلي بالمِهنيّة اللازمة كوني سأذهب إليه كمحقق خاص لا كصهر؟ لا أدري. قالت بانفعال:

«وتسمي هلاوسه قضيةً أيضا!»

حتى هذا الوقت لا أفهم علاقتها المعقدة بعمي عبود، أبيها، صاحب قضيتي الحقيقية الأولى كمحقق خاص، هل تخاف منه أم تحنق عليه؟ تكرهه أم تتعلق به؟ علاقة مشتبكة كمتاهة وصعبة كأحجية. قلت آملا أن أقطع الطريق أمام كلام أعرفه جيدا ولا أود سماعه:

«لقد وجد كلبه العجوز مشنوقا على باب البيت»

ارتفع حاجباها تلقائيا، رد الفعل الذي أحتاجه تماما، وقبل أن تُبدي مزيدا من الانزعاج أو عدم التصديق

التقطتُ سُترتي الصوفية، وطبعتُ قبلة على خدها لتبديد أي ظنون عدم اهتمام بموقفها الرافض، وأسرعتُ بالمغادرة.

كان الجو عاصفًا إلى حد تصعب معه الرؤية لكن لا تستحيل، وإيثارًا للسلامة أبطأتُ من سرعة السيارة وغمرني شعور بالاستياء؛ أن أسمع في نشرة أخبار الطقس قبل ساعاتٍ تحذيرًا من عاصفة فأقرر عدم الخروج من البيت في الغد، ثم أتلقى هذا الاتصال من حمايَ في الصباح الباكر يلح عليَّ بالذهاب إليه، يا له من سوء حظ!

لكن بوسعي القول أن كل شيء كان كأحسن ما يمكن في مثل تلك الظروف، كنت منفعلا لأن هذا أول تطور حقيقي في قصة عمي عبود، حماي العزيز، مع حماتي الشبح. أنبني ضميري على التفكير بتلك الطريقة، ليس من أجله، ولكنني كنت أحب حماتي للغاية، أمي البديلة في المهجر، كانت امرأة استثنائية في الحنان والصلابة على حد سواء، فلسطينية مهاجرة نجحت في الحياة في بلاد بعيدة ككل فلسطيني مهاجر دون أن تنسى جذورها أو تدع أحدا ينسى، لقد كانت سيرة حماتي عبارة عن سلسلة من النجاحات المدهشة على المستوى الإنساني، بالطبع إذا استثنينا زواجها من عبود إبراهيم حسنين.

وصلت إلى مدينة فيرفاكس بعد ثلاث ساعات ونصف

تقريبا، وهي مدينة ريفية هادئة لا يمكن نعتها بالقرية تماما مقارنة بقرية كفر قاسم التي نشأت بها في مصر، بل كانت شكلا انتقاليا بين الريف والحضر، مرحلة وسطا أثناء تحول القرية إلى مدينة إسمنتية، لكن البيت الذي توجهت إليه كان قريبا من الريف التقليدي وإن بإمكانات أكثر، بيتا من طابق واحد محاطا بمساحة واسعة زُرعت فيها خُضرٌ متنوعة وأشجار فاكهة، ومُلحق به بيت طيور وحظيرة فيها عدد محدود من غنم وماعز يسمع الزائر أصواتها ما إن يدلف من البوابة الخارجية، أما في ذلك الوقت المبكر والطقس العاصف فلابد أن الماعز والأغنام كانوا جميعا نياما، فلم أسمع عندما دفعت البوابة الخارجية سوى صوت صياح ديك مجتهد.

لم أكد أخطو خمس خطوات إلى الداخل حتى اصطدمتُ به، اعتذر لي بأنفاس متقطعة مُرجعا الأمر إلى صعوبة الرؤية، رغم أن العاصفة كانت قد هدأت بما يكفي ليتبين المرء من أمامه، لكنني لم أقل شيئا لأنني أيضا كنت شاردا في أفكاري ولم أنتبه له حتى اصطدمنا، ولأنني كنت مشغولا أكثر بمعرفة آخر المستجدات.

«ألم أقل لك؟ ألم أقل لك؟ الآن عليك أن تصدقني، عليكم جميعا أن تعترفوا بأنني كنت محقا..»

كان يتكلم بسرعة وانفعال شديدين، قاطعته محاولا تهدئته:

«من فضلك يا عمي، اهدأ قليلا حتى أستطيع أن أفهم منك»

لم يهدأ، بل واصل بنبرة أكثر انفعالا:

«إنها هنا، ما زالت هنا، لا أعرف لماذا لا يراها الجميع لكنها هنا..»

قاطعتُه مرة أخرى ولكن بحدة:

«على هذا النحو لن أستطيع فعل أي شيء، كما أنني لم أقطع كل تلك المسافة في هذا الطقس السيء لأسمع إثباتاتك المستميتة لكونك على حق!»

أخيرا سكت، التقط أنفاسه بشكل مسموع مُحاولًا تنظيمَها، سألتُه:

«متى استيقظت بالضبط؟»

أجابني باندفاع لاهث:

«لم أنم أصلا، كيف لي أن أنام وهي بجانبي طوال الوقت؟! أنا في طريقي إلى الانهيار الكامل من قلة النوم، ألا ترى حالتي؟ أليس..»

عند تلك اللحظة لم أعد أسمعه، فقد وقعت عيناي على ذلك المنظر الرهيب لكلب عجوز أصفر اللون يتدلى بحبلٍ من السقف أمام الباب الأمامي للبيت، تجمدتُ مكاني لحظاتٍ وشعرتُ بانقباض في معدتي، من حسن

الحظ أن الجيران القريبين كانوا لائذين ببيوتهم اتقاءً للعاصفة، ما جعل الشوارع القريبة خالية تقريبا. كنت أقاوم رغبة مفاجئة في التقيؤ عندما استعدت إدراكي لما حولي لأجده ما زال يشكو، الأمر الذي زاد من حنقي عليه فقاطعته بنفاد صبر:

«عمي عبود، أنا لست طبيبك النفسي ولا إحدى بناتك، أنا المحقق الذي استعنت به لكشف غموض ما يحدث في هذا البيت، ولذلك عليك أن تجيب أسئلتي فقط دون أي دخول في تفاصيل لم أسأل عنها»

زفر بضيقٍ وقال مدافعا عن نفسه بارتباك:

«سألتني متى استيقظت وأخبرتك أني لم أنم لأستيقظ..»

قلت مستدركا وأنا أشير نحو الكلب الذي يتأرجح قليلًا في مشنقته:

«حسنا، متى اكتشفت هذا المنظر؟»

أجابني باستنكار من وُجِّه له سؤال غبي:

«عندما هاتفتُك»

كان يبدو أن هذا التحقيق لن يتم بسهولة أبدا، وأدركت في تلك اللحظة أن مهنة المحقق تختلف كثيرا عن صحافيِّ الجرائم، فأخذت نفسا عميقا مشجعا نفسي في

قضيتي الأولى على التحلي بالصبر، وقلت:

«يعني في الساعة الخامسة تقريبا. ما الذي دفعك للخروج من البيت في هذا الوقت المبكر؟»

«كنت ذاهبا إلى المسجد»

نظرت إليه بعدم تصديق، فأنا أعرف جيدا أن الصلاة لم تكن من أولوياته يوما، وأنه صار ساخطًا على الله منذ رحيل ابنه الوحيد، كنت على وشك أن أطالبه بمصارحتي عندما قال بتوتر:

«لا تنظر لي هكذا، هل أخبرتك أمينة أنني لا أصلي؟»

سكتُّ ولم أُجب، لم أكن في حاجة لأن تخبرني أمينة، فلقد عرفت بنفسي، استدرك:

«هذا صحيح، لقد انقطعت كل صلة لي بالله عندما أخذ مني إبراهيم، كنت غاضبا وما زلت، لكنني هذه الليلة لم أستطع أن أتجاهل أنه الوحيد الذي يمكنه إنقاذي منها والوحيد القادر على إجبارها على الذهاب، لم أكن متأكدا إن كان يريد مساعدتي لكن ما من حلٍّ آخر سوى اللجوء إليه»

هكذا إذًا؛ الرجل ما زال ساخطا على ربه لكن حاجته إليه تغلبت على السخط الذي جعله يقاطعه ثمان سنوات، ولحاجته وحدها قرر إنهاء القطيعة والذهاب إليه

لطلب العون، يا للإنسان من مخلوق عاجز!

تنحنحت وقلت:

«أي أنك أردت الذهاب إلى المسجد القريب ففوجئت بجثة الكلب هكذا عندما فتحت الباب، حسنًا، هل يمكنك أن تفُكَّه وتُنزله من فضلك لنكمل حديثنا في الداخل؟»

تراجع خطوات إلى الخلف وهتف بذعر:

«أنا؟ لا يمكن، لا يمكنني فعل ذلك!»

زفرت بانزعاج وقلت:

«ما من أحد آخر ليفعل، لهذا أنصحك أن تُسرع حفاظا على وقتي ووقتك»

تلبد وجهه بتعبيرٍ فَزِعٍ مختلط بالحنق، وأكاد أجزم أنه كان يفكر فيَّ كصهر جحود وعاق، بالتأكيد لا ينتظر مني هذا العجوز أن أقوم بنفسي بفكِّ كلبه المشنوق وإنزاله، ألم يكن هذا الكلب البائس أقرب مخلوق إليه وأحبَّ لديه حتى من زوجته وبناته؟ عليه إذًا أن يُنزله بنفسه. فكرت في الرحيل احتجاجا أو ترك القضية برمتها، لكن أنقذنا دخول مارت؛ فتى أمريكي أسمر من السكان الأصليين ويساعد الأسرة في فلاحة الحديقة من وقت لآخر، كان في التاسعة عشرة من عمره ذا عينين ضيقتين وبشرة

حنطية، بقدٍّ يميل إلى الامتلاء وقامة طويلة وساعدين قويين، صاح فور عبوره البوابة الخارجية بأنه جاء لقطف محصول البرتقال كما عودته «خالته حبهان»، كانت لإنجليزيته لكنة ترجع إلى لغته الأم، تعلقت أنظارنا به ولم نتكلم، تاركَين إياه يتلفت حوله متفحصًا الثمار على الأشجار دون أن ينظر أمامه، قطع المدخل إلينا وهو يثرثر بحماسٍ عن تطور نمو الفلفل وإيشاك التفاح على النضوج واستعداد البرتقال للقطف، حتى أصبح على بعد أمتار قليلة منا، عندها جحظت عيناه وثبتتا على جثة الكلب المتدلية، وظل هكذا مذهولا بفاهٍ مفغور لثوانٍ حتى بادرتُ بالحديث إليه وأنا أشير إلى الكلب:

«أهلا يا مارت، جئت في وقتك، هل يمكنك فك هذا الكلب وإنزاله قبل أن تبدأ عملك؟»

صاح الفتى كأنه أفاق من ذهوله للتو ولم يسمع كلامي:

«سلطان! من الذي فعل هذا به!»

انقبضت عضلات وجه العجوز وتقوست شفتاه للأسفل، وكأنه أدرك للتو أنه فقد كلبه، صديقه المقرب، فأجبت مارت وأنا أتمنى أن ينتهي هذا الأمر سريعا وتختفي جثة الكلب:

«ليس هذا مهما الآن يا مارت، هيا فكَّه وأنزله من فضلك، لن أظل واقفًا هنا إلى الأبد!»

أسرع الفتى نحو جثة الكلب وقد بدا أن عقله بدأ يعمل أخيرا، توقف أمامه لحظات يفكر كيف عليه أن يفك الحبل، ثم أسرع إلى ناحية من الفناء وغاب عن أنظارنا لثوانٍ عاد بعدها بمقص الحشائش، وقبل أن يسمح لأيٍّ منا بقول شيء قص الحبل من أقرب نقطة إليه فسقطت جثة الكلب على الأرض، عندئذ لم يتمالك العجوز نفسه فأُغمي عليه، لم يكن ينقصني إلا هذا، نظرت إلى الفتى بعتاب فهز كتفيه وقال:

«وكيف كنت سأصل إليه؟ ألا ترون كيف أن العقدة عالية في السقف؟!».

حملتُ حماي العزيز من تحت إبطيه وجررتُه إلى داخل البيت، وانشغل مارت بتنظيف المكان بينما راحت تتردد في رأسي كلمته: «العقدة عالية في السقف، العقدة عالية في السقف، العقدة عالية في السقف».

-٢-

عبود

أسخف ما يمكن أن تتعرض له كإنسان هو أن تخاف من شيء لا يراه أحد غيرك، ولا يريد أحد أن يصدقك عندما تخبرهم بوجوده. الحق أن حبَّهان لم تقم بأي فعل مخيف في حد ذاته طوال الأسابيع الماضية، كل ما فعلته أنها عادت إلى ممارسة حياتها العادية في البيت، ما من عنف وما من تخويف، لكن أليس وجودها في حد ذاته مرعبا؟ أليس من العنف أن تعود امرأة ميتة إلى البيت بعد دفنها بست ساعات؟

والآن أخذ وجودها منحى آخر، لقد بدأت على ما يبدو بالانتقام مني، والضحية الأولى هي كلبي العزيز؛ العجوز المسكين سلطان، على الرغم من ملامحها الهادئة دائما وبرود أعصابها المستفز وتظاهرها بالغباء تجاه رعبي منها، أقدمتْ في النهاية على قتل تلك الروح البريئة، وما زالت تروح وتجيء في البيت بمنتهى العادية كأنها لم تفعل شيئا، أراقبها على أمل أن أُمسك بها متلبسةً بنظرةٍ متشفيةٍ نحوي، لكنها لا تفعل، أراها الآن في المطبخ متشعلقة على السُلَّم المنزلي لتُفرغ دولاب الخزين وتُنظفه، منهمكة في عملها أكثر من أي شخص حي رأيته، تلك المرأة الملعونة تهدف إلى إصابتي بلوثة فى عقلى بأفعالها تلك، ما من نظرة شر، ما من حركة

مريبة، ما من كلمة تُفلت منها مُلمحةً إلى أي شيء من نواياها ضدي، وما من أي شيء في مظهرها يشبه امرأة ميتة!

عندما عادت إلى البيت كان سلطان هو من هوَّن عليَّ تلك الكارثة، كيف كنت سأقضي النهار كله لأسابيع طويلة خارج البيت هربا منها إن لم يكن معي كلبي الوفي؟ كنتُ قد دفنتُها بمعاونة الأهل وبعض الجيران وعدت إلى البيت منهكا، توجهت على الفور إلى غرفة نومي وعتَّمتُها في ذلك النهار الصحو بعد الظهر، ثم تمددت في فراشي وكلمني دماغي دقائق فقط، قال لي: «هل أنت راضٍ الآن يا عبود بعد أن ذهبت حبهان؟»، نظرت عن يميني حيث كانت تنام فشعرت بغرابة فكرة أنها لم تعد موجودة، كلمني دماغي مرة أخرى: «أنت سعيد الآن؛ أليس كذلك؟»، قلت لنفسي إنني لست سعيدا ولا حزينا، لقد ذهبت المرأة إلى حال سبيلها وكلنا سنموت يوما ما، رد دماغي بصوت ضاحك شرير: «ولكن ليس كل الناس يتركون الآخرين يموتون، أم نقول يدفعون الآخرين إلى الموت؟!»، شعرتُ بقرصةٍ في قلبي، يا لهذا الشيطان اللعين الذي في دماغي! لكن لا، لن أسمح له أن يُسممني بهذه الفكرة اللعينة ولن أتجاوب معه، علا صوته أكثر وقال لي: «أنت، أنتَ يا عبود، أنتَ تمنيت دائما أن تذهب، تمنيت أن تموت، أو أن تعود إلى بلدها وترتاح أنت..»، لكنني نفضتُ رأسي

وأغمضتُ عينيَّ ونمت، نمت كما ينام الواحد منا بعد يوم شاق، بعمق وبراحةٍ حتى شبِعْت، ليوقظني بعد ساعاتٍ صوت احتكاك معدني مألوف في الغرفة، قاومته في البداية لثوانٍ لكنه كان مُلِحًّا، فتحتُ عينيَّ ببطء وأنا أدفع خدَرَ النعاسِ الثقيلَ منهما، بدأت الصورة المُغَبَّشة تتفتح شيئا فشيئا، كان الصوت صوتَ الحلقات المعدنية للستارة لاحتكاكها بالماسورة المعدنية، نزلتْ عيناي إلى تحتٍ بالتدريج، هناك امرأة تزيح الستارة، امرأة بدينة طويلة ظهرُها إليَّ، لم أعرفها في البداية، لا لأنها غريبة، لكن كيف كان ليخطر لي؟ مدتْ يدها إلى مغلاق شيش النافذة وفتحته، فدخل هواء الليل الغرفة دفعة واحدة، من هذه؟ وكيف دخلت غرفة نومي؟ لم يكن في البيت قبل نومي إلا بنتايَ الكُبريان وزوجاهما، لا تبدو هذه المرأة واحدةً من بناتي، حتى ابنتي الكبرى أمينة التي يشبه قوامها هذا القوام كثيرا لا تبدو لي أنها هي، إنها بالطول نفسه والبدانة نفسها لكن ليس لها الانحناء الخفيف لكتفي هذه المرأة عند النافذة ولا تلك الضفيرة الرمادية الطويلة. قطعتْ عليَّ تساؤلاتي بأن استدارت إليَّ، تجمدتُ مكاني من الرعب، إنها هي! حبهان! بشحمها ولحمها ووجهها وصورتها، وحتى بصوتها نفسه!

قالت باستياء وهي تلتقط منامتي البيتية المخططة وبعض ثيابي من على المشجب:

«حتى متى ستظل تنام بثياب العمل؟ ألن تكبر أبدا أيها الرجل؟!»

أردتُ أن أقول لها إنني لم أكن في العمل بل كنت في جنازتها، لكن لساني كان معقودا من الصدمة، زفرتْ وارتسمتْ على وجهها أمارات الانزعاج، وراحت تتمتم بكلام أسمعه ولا أتبينه، كعادتها دائما عندما أفعل شيئا لا يعجبها أو أفسد لها نظام البيت كما كانت تردد. وضعتْ الملابس التي جمعتْها في سلة الغسيل وحملتْها بين يديها واتجهت نحو الباب، تابعتُها وقلبي يضرب في صدري مثل الطبل، توقفتْ مكانها ثانيةً ثم التفتت إليّ، مشَّطتْني بعينيها من رأسي إلى قدميّ، ارتعبتُ زيادةً وتساءلتُ في نفسي عما تُضمِرُه لي من الشر، لاحظتِ ارتجافي فنظرتْ في عينيَّ وقالت لي:

«هل تشعر بالبرد في شهر يوليو يا رجل؟!»

لم أُجب، نظرتْ إلى جسمي مرة أخرى وقالت:

«هيا قم، اخلع هذه الثياب»

زاد هلعي ورحتُ أهز رأسي بإشارة رافضة دون أن أجرؤ على قول شيء سوى «أر..جوكِ، أر..جوكِ»، ثم شعرتُ ببللٍ دافئ يتسلل بين رجليّ، ظلت واقفةً مكانها تطالعني باستغراب تحول إلى حيرة واشمئزاز عندما لاحظتْ أني أعملها على نفسي، قالت:

«بسم الله الرحمن الرحيم، مالك يا رجل؟! أريد ثيابَكَ لأُشغل الغسالة!»

ثم خرجتْ من الغرفة وهي تتمتم بعباراتٍ مستغربةٍ حالَ الرجل الذي يبدو أنه جُن، أي أنا.

من ساعتها وأنا أعيش مع امرأة ميتة في بيت واحد، بالطبع صرختُ كثيرا، حكيتُ كثيرا، لكن أحدا لم يصدقني، قالوا أعصاب الرجل تعبانة بسبب وفاة زوجته، وفسروا ذلك بالوفاء والبقاء على العِشرة، لم يكن لي من مخرج مما أنا فيه إلا قضاء النهار خارج البيت والعودة على النوم، وليتولاني الله في الليل الطويل الذي أمسى أشبه بالكوابيس وأفلام الرعب.

كنت أخرج في الصباح الباكر فيتبعني كلبي سلطان، ونظل نتمشى في شوارع المقاطعة حتى التاسعة صباحا، قاطعين معا مناطق لا نعرفها دون هدف واضح سوى المشي، أحكي لسلطان كل مخاوفي ورعبي فيستمع إليَّ مبديا التعاطف من وقت لآخر بتحريك ذيله أو متفاعلا مع شكاواي بزمجرة مستاءة، أحمل معي شطيرة جبن وزجاجة ماء صغيرة وأتناول إفطاري في السابعة على أقرب مقعد متاح في الشارع، ثم أعود إلى البيت وأحمل الخُضَر والفاكهة التي جمعها الفتى مارت أو جمعتُها بنفسي بسبب غيابه المستهتر، وأضعها في سيارتي الشيفروليه ذات الصندوق متوجها إلى مطعمي، وأظل

فيه حتى منتصف الليل قبل أن أعود منهكا ومرعوبا مما سأواجه.

أنا الآن هذا المثير للشفقة الذي يحدجه الجيران العرب بتعاطف ويترحَّمون على زوجته الميتة، زوجته التي لا يعرفون أنها عادت إلى بيته وتعيش حياتها أكثر من أي حيٍّ منهم، تجاوزت سيرتي البيوت المحيطة وعرفني كل من أمر بهم في رحلتي الصباحية اليومية، أصبحت مَعلَما من معالم فيرفاكس على ما يبدو؛ رجل عجوز يقطع الشوارع شاردا في أفكاره ويلحقه كلب. أنا هذا الرجل الذي أصبح مثار نظرات الصغار والكبار المستغربة مع الوقت، لكن أيا من هذا لا يشغلني في وجود كارثة كتلك في بيتي، كارثة اسمها حبهان.

مع الوقت تهيأتُ مع فكرة أنها لن تذهب ولن تترك طوق ردائي، كل من حولي لا يصدقونني حينما أقول أنها عادت، لهذا كففتُ عن قول شيء من ذلك ووطنت نفسي على قضاء أيامي بين التمشية والمطعم ولياليَّ في البيت، لم يعجب هذا بناتي بالطبع، إنهن حريصات للغاية على مظهرهن أمام الناس وأمام الصهرين المُوقَّرين، يخجلن من أبيهن الذي صار مضحكة الناس ومثار شفقتهم بمشيه في الشوارع دون هدف ملحوقا بكلبه، ولهذا فكرن أنهن إذا وجدنَ خادمةً تغسل لي ثيابي وتنظف البيت وتطبخ لي كل يوم فسينصلح ما

اعوجَّ من حالي؛ لأنني حسب تفكيرهن عجوز لا يقوى على تدبير أموره وحده، كانت تلك فكرة أمينة ووافقتها عليها ضحى، ابنتاي المُراعيتان بنتا الكلب اللتان لم تكونا تعلمان أن أمهما ما زالت هنا تطبخ وتغسل وتنظف ولا حاجة لخادمة، وانتهتْ مساعيهما البارَّة بالطبع بمشكلة كبيرة وفضيحة، وهل كانت حبهان لتسمح لامرأة أخرى بأخذ مكانها في البيت؟!

لا أريد خادمةً ولا أي خراء من هذا، ما الذي جنيتُه من خدمة حبهان لي وأين صرت؟ إن المرأة ميتةٌ وما زالت تطبخ لي وتُمسِّد شعري بتشفٍّ آخر الليل، لقد ارتكبتُ هذه الغلطة -غلطة إدخال امرأةٍ بيتي- مرة واحدة وما زلت أتلبَّك فيها مثل طائر وقع في الشَّرَك، إذا خطر لأحد أن يسأل هذا العجوز البائس ماذا يريد فعلا فإنني أريد سلطان، أريد كلبي العزيز، صديقي الوحيد الذي يفهمني، لقد قتلتْه حبهان، قتلته تلك العجوز المشؤومة لتنتقم مني، لكن ليعُد، ألم تعد هي بعد أن ماتت رغم أني رأيتُ ابنها وصهرها بعينيَّ يضعانها في قبرها ويُغلقانه عليها؟ فلماذا لا يعود كلبي؟!

-٣-

ضحى

عندما طلب مني إلياس إجراء مكالمة مرئية عاجلا ظننتُ أن شيئا حصل لأبي، شغلتُ لطفليَّ فيلم رسوم متحركة على التلفاز رغم أني أقنن تعرضهم للشاشات، وجلست على الأريكة القريبة بجانب زوجي الذي كان قد فتح كاميرا الحاسوب.

كان إلياس جالسا في سيارته، وقال بعد سلام متعجل لم ينتظر حتى نرد عليه:

«أنا أكلمكما من السيارة حتى لا تعلم أمينة شيئا، تعرفان أنها تتناول مضادات الاكتئاب وتُثيرها سيرة عمي عبود، كما أنني لا أود أن يرتفع ضغطها وندخل في مضاعفات نحن في غنى عنها، ولهذا أود منكِ يا ضحى ألا تذكري لها أبدا ما سأقول في هذه المكالمة»

أومأتُ برأسي مرارا وقد تزايد فضولي لما سيقول، سأله يحيى بتوجس:

«هل حصل شيء سيء؟»

أجاب بغموض لم أستطع تفسيره:

«هذا يعتمد على إجابات ضحى»

ودون أن ينتظر ردي رفع يده أمام الشاشة بقدَّاحة فضية اللون عليها رأس أسد بارز أحمر، سألني:

«هل تعرفينها؟»

قلتُ بعدم فهم:

«هذه قداحة يوسف، أين وجدتها؟!»

تفاجأ من إجابتي وبدا أنه لم يتوقعها، قال بانفعال:

«لقد اتصل بي والدك في الخامسة صباح اليوم، كان منهارا وطلب مني الذهاب إليه على وجه السرعة، وأخبرني بالكاد أنه وجد كلبه مشنوقا على باب البيت..»

انقبضت معدتي وكذلك عضلات وجهي، أردف إلياس:

«إنه يزعم أن أمي حبهان هي من قتلتْه، تعرفان هذياناته بها منذ ماتت، لكن من المؤكد أنكما تريان كما أرى؛ هذه جريمة قتل، حتى ولو كان المقتول حيوانا، وعلى هذا فإن الأمور تتخذ طريقا خطرا، لم يعد من الممكن أن نعتبر ما يقوله عمي عبود مجرد هلوسات ونمضي غير عابئين»

أرعبتني إشارته إلى القتل، سأله يحيى:

«هل تعتقد أن أحدًا ما يستهدف عمي عبود؟»

أجاب وهو يفكر بينما يعبث بالقدَّاحة بين أصابعه:

«لستُ متأكدا، ربما هناك من يود الانتقام منه منذ ماتت أمي حبهان فيعمد إلى تخويفه، والآن قتل الكلب لعلمه بمدى تعلقه به»

قلتُ وأنا أرفض ما يُلمح إليه:

«ما تفكر فيه غير ممكن، مستحيل أن يفعل يوسف شيئا من هذا، أنا أعرف أخي جيدا»

رد بنبرة واثقة:

«ليس مستحيلا جدًّا. أعرف أن يوسف ليس بالشخص السيء وأعتبره أكثر من صديق وأخ، لكن ما بينه وبين عمي عبود لا يجعلني قادرا على استبعاد أن يُقدم على الانتقام منه. عموما ما زال الوقت مبكرا للجزم بشيء، وعليَّ قبل ذلك أن أبحث عن إجابات لأسئلة كثيرة»

إنه محق، رغم أن يوسف ليس مجرما لكن عند النظر إلى أبي من مكانه كطفل حُرم من أمه بسبب زوجها القاسي لا يمكن استبعاد أن يرغب في الانتقام لنفسه ولها، وعلى الرغم من هذا شرعتُ أدافع عن أخي من جديد فقاطعني يحيى يسأل إلياس:

«لم تخبرنا أين وجدت القداحة»

أجاب وهو يفتح القداحة ويُغلقها مرة وراء أخرى حتى

أصابني بالتوتر:

«عندما قال مارت أن الحلقة التي عُلِّق فيها الكلب عاليةٌ جدا في السقف رغم أنه طويل القامة تأكد لي أن من ربط الكلب لا بد أن يكون استخدم كرسيًّا أو شيئا آخر ليصل إلى ذلك الارتفاع، بحثت في الحديقة والمرأب عن الشيء الذي قد يكون استخدمه آملا أن أجد عليه أي أثرٍ من الكلب، ومن ارتفاع ذلك الشيء يمكنني تخمين طول هذا الشخص، وجدتُ منضدة الحديقة بالفعل عليها شيءٌ من شعر الكلب الأصفر ملتصقًا بما أعتقد أنه لعابه بعد التسمم، لكن أثناء بحثي وجدتُ هذه القداحة في المرأب و...»

وتوقف فجأةً قبل أن أقول مفكرةً بصوتٍ عالٍ:

«أي أن يوسف ذهب إلى أبي أمس ليلا إذا كان شكُّكَ صحيحا»

قال بنبرة شاردة:

«عمي عبود ينفى أن يوسف زاره أمس وقال أنه لم يره منذ دفن أمي حبهان، وبالطبع لم أقل له أنني وجدت قداحته في المرأب»

قال يحيى كمن يفكر بصوت عالٍ:

«هل يعني هذا أن يوسف ذهب ليلا دون أن يراه عمي

عبود وقتل الكلب وعلَّقه على باب البيت وغادر دون أن ينتبه أنه أسقط قداحته قبل ذهابه؟»

لم يرد إلياس، فتساءلتُ مُعترضةً على الفكرة:

«ولكن لماذا دخل المرأب؟ المنضدة كانت يمين عتبة البيت، أي قريبًا من حيث عُلِّق الكلب»

رد يحيى:

«ربما ليجلب الحبل»

قلتُ معترضةً مرة أخرى:

«ليس منطقيا وأمامه الحبال في منشر الغسيل على بعد خطوة واحدة، الأسهل أن يفك أحدها بدلا من البحث هنا وهناك، ماذا كان لون الحبل الذي عُلِّق فيه الكلب؟»

لم يجب إلياس الذي ما زال شاردًا في شيء لا نعرفه، أعاد عليه يحيى السؤال فانتبه وقال بثقة محقق لا يُسقط أي تفصيل:

«كان أزرق»

قلتُ بارتياح كما لو أن الأزرق يُبرِّئ أخي:

«نفس لون الحبال في المَنشر، لا يمكن أن يكون من علَّق الكلب قد ذهب للبحث عن حبل قبل أن يستخدم واحدا من الحبال التي أمام عينيه وفي متناول يده»

أطرق يحيى يفكر هنيهة ثم قال:

«وهذا أيضا صحيح! ماذا إن لم يكن قد انتبه لها؟»

أجبته جازمةً:

«احتمال بعيد جدا»

قال:

«لنفترض أنه ذهب إلى المرأب لسبب آخر غير البحث عن حبل، سبب لا نعرفه الآن وأسقط..»

قاطعه إلياس كأنه يفكر بصوتٍ عالٍ:

«لماذا نفكر في اتجاه واحد؟ أي بافتراض أن أحدا آخر قتل الكلب؟»

هز يحيى رأسه مستفهما وأنا كذلك، فأردف إلياس:

«مَن قتل الكلب استخدم المنضدة لتعليقه في السقف وليس الكرسي، هذا يعني أنه ليس طويل القامة مثل يوسف بل أقصر، كعمي عبود مثلا»

هززنا رأسينا ثانيةً معبِّرَين عن عدم الفهم، فشرحَ:

«ما أعنيه هو أنه يمكن لعمي عبود نفسه أن يكون من قتل الكلب دون أن يدري، لعلكما تتفقان معي أنه يعاني من اضطراب يسبب له هذه الهلوسات، ومن الممكن جدا أن يجعله هذا الاضطراب يقوم بأشياء ثم ينسى أنه

قام بها»

قلتُ متعجبة:

«أتفق معك أن حالته من بعد موت أمي تؤيد ما تقول، لكن ليس إلى حد أن يقتل كلبه، الكائن الأغلى على قلبه!»

كان يحيى هو من ردَّ هذه المرة:

«هذا ليس مستبعدا، تخصصي أمراض القلب وليس الطب النفسي، لكنني أعرف أن من يعاني من حالات فصام أو اضطرابات مشابهة لا يكون في وعيه عندما يرتكب أشياء من هذا القبيل، يعني قد يقتل عزيزا عليه في حالةٍ ما ثم يتحول إلى حالة أخرى ويُصدم باكتشاف القتيل»

أطرقتُ وقد أخافني كلامه، ولم أكن أعلم أن ما سيقوله إلياس تاليًا هو ما سيخيفني حقا، أومأ راضيًا عن تأييد يحيى لفكرته وقال:

«وإذا كان هذا الاحتمال صحيحا فإنه أسوأ بكثير!»

أومأنا مُستفهمَين، فأردف:

«لو أن عمي عبود هو من قتل الكلب فإن يوسف لم يذهب إلى هناك من أجل ذلك، وبما أن البيت ليس فيه سوى عمي عبود فإنه قد ذهب إليه!»

سأل يحيى بعدم فهم مشوبٍ بالتوجس:

«إلى أين تريد أن تصل؟»

أكمل إلياس كأنه لم يسمع سؤال يحيى:

«وإذا كان عمي عبود نفى جازما أن يوسف ذهب إليه فليس لهذا سوى معنى واحد؛ لقد فعل له شيئا ليس في صالحه أن يعرف به أحد!»

لم أشعر بنفسي عندما أطلقت صرخة وأنا أحاول كتمها بيدي، قال يحيى مصدوما:

«تعني أنه قد يكون قتله في نوبة فصام وأخفى الجثة ثم نسي ما فعله؟»

قال إلياس:

«أو قتله ويتذكر كل شيء وينكر ببساطة أنه رآه»

عند هذا الحد لم أعد أحتمل، لقد جعلا من أبي قاتلا ومن أخي قتيلا في لحظة واحدة دون مقدمات، صرخت فيهما ليسكتا وتناولت هاتفي واتصلت بأخي، رد عليَّ الصوت المُسجَّل آليًّا: الرقم الذي تطلبه غير متاح حاليا.

هاجمتني نوبة قلق جعلتني أفكر طويلا مُعيدةً محاكمة خياراتي في السنين السابقة، سائلةً نفسي هل كان يجدر بي فعلًا أن أبتعد عن أمي وإخوتي إلى هذا الحد لأهرب بنفسي؟ قبل خمس سنوات، وعندما كانت الحياة في

البيت قد غدت جحيمًا بموت أخي إبراهيم في مُقتبل حياته، ظهر يحيى في حياتي، كان أحد مَن حضروا مؤتمرًا طبيًا كنتُ ضمن مُنظميه مع طلاب آخرين من كلية الطب، وكان شابًّا وسيمًا قادمًا من المغرب خلف المحيط الأطلسي، يكبرني بخمسة أعوام ويخطو خطى واثقة وطموحة في تخصصه، أُعجب بي وحاول التقرب مني طوال أيام المؤتمر حتى فاتحني قبل عودته إلى بلاده برغبته في الزواج مني، قابلتُه بالصد في بداية الأمر وألقيتُ بلا مُبالاةٍ في حقيبة يدي الورقةَ التي أعطاني إياها مدونًا فيها رقمه وعنوان بريده الإليكتروني أملًا في أن أغير رأيي، وكدتُ أنسى أمره لولا أن الوضع المأزوم في البيت والذي كان يفوق احتمالي يومًا بعد يوم جعلني أرى فيه فرصةً للذهاب بعيدا لبدء حياة جديدة، حياة خالية من كل الصعوبات التي كانت تُطبق على أنفاسي بعد المأساة التي عصفتْ بطمأنينة بيتنا ودمرتنا نفسيًّا، حياة مريحة في بلاد أخرى لا أعاني فيها من مشاكل العنصرية أو وصمة اللجوء والعنف الملتصقة بنا كعائلة والموضوعة تحت المجهر منذ موت أخي، فاتخذتُ قراري أخيرا وأرسلتُ له رسالةً أُخبرُه بموافقتي على الزواج، بعد أسبوعٍ كان في بيتنا مع أبيه واثنين من أعمامه يطلبون يدي، وبعد أقل من ثلاثة أشهر تزوجنا وذهبتُ معه إلى المغرب ناويةً ألا أعود إلى أمريكا مرةً أخرى، أمريكا القاتلة التي أحمل جنسيتها على بطاقة

هويتي وجواز سفري.

لم تكن أمي مرتاحةً لابتعادي عنها وقد فطنتْ إلى السبب الحقيقي لقبولي بذلك الزواج، كان خوفها مُضاعفا؛ تخاف من ذلك البعد المفاجئ وغير المسبوق، وتخاف كذلك من فشل زواجٍ ركضتُ إليه مدفوعةً برغبتي في الهرب، لكنني لم أكن واعيةً بذلك الاحتمال بالفشل ولم أفكر فيه، ومن غير وعيٍ أيضًا تسلل إلى قلبي حبٌّ يحيى شيئًا فشيئًا، وحب عائلته الودودة وبلاده الجميلة بأهلها الطيبين باسِمي الوجوهِ حتى للغرباء، وكلما هاتفتني أمي لتطمئن عليَّ أخبرتُها أنني بخير في بلد لا عنصرية فيه، وأن يحيى رجل رائع وعائلته أروع منه، ولم تطمئنَّ فعلا إلا بعد أن قدمتْ إلى المغرب ورأتْ بعينيها ما كنت أُخبرها به، كان هذا بعد زواجي بعامٍ تقريبًا عندما ولدتُ طفليَّ، فجاءتْ محمَّلةً بأكلاتها الفلسطينية التقليدية وشوقها إلى أول حفيدين لها، وأقامت عندي أسبوعًا لم تنسَ فيه أن تُخبر كل عائلة يحيى بأنها فلسطينية من أبوين فلسطينيين عاش أبوها التهجير سنةَ ثمانٍ وأربعين وهو شاب وعاشت معه مجزرةً في ستٍّ وسبعين وهو كهل ثم مات عجوزًا في أمريكا حيث تعيش الآن، تزيد حكاياتها وهي مبتسمةٌ من حفاوتهم بها ويعبرون عن تضامنهم ومحبتهم بدموعٍ صادقة، وتعود إلى أمريكا تاركةً لي الكنز الذي تتركه الأم حسنة السيرة لأبنائها من حسن معاملة الناس لهم

إكرامًا لها.

أفكر الآن هل كان هروبي إلى المغرب فعلًا أنانيًّا يُشبه القفز من سفينة تغرق تاركةً أحبابي خلفي؟

-٤-

صفية

«لطالما كرهتْ أمي إبداء ضعفها أمام الآخرين، لا يتعلق الأمر بعزة نفسها أمام الغرباء، إنني وأنا ابنتها لا أذكر أنني رأيتها تبكي من قبل، حتى عندما رأينا أخي إبراهيم ميتًا لم تنزل منها دمعةٌ واحدة، لقد وقفتْ أمام جسده المُسجى على تلك الطاولة الباردة وراحت تحدجه بنظرة لائمة، تلك النظرة التي كانت تحدجنا بها صغارًا عندما كنا نرتكب الأخطاء فنشعر بالخجل وتأنيب الضمير»

-«ليس من الطبيعي ألا تشتكيَ منه أبدا، منذ دخولي العائلة وأنا أرى أنهما ليسا متوافقَين كثيرا!»

«لكنهما حرصا على ألا يُبديا لنا هذا يا إلياس»

-«على الأقل ألم تلاحظي تدهور العلاقة بينهما بعد موت إبراهيم؟»

«حسنًا، لستُ متأكدة، لكنني لا أعتقد أن علاقةَ أبي وأمي تأثرت سلبا برحيل إبراهيم»

-!!!

«أو فيما يبدو لي على الأقل، ربما تكون هناك بعض الشروخ غير المرئية، هذا لأنهما دأبا -أو بالأحرى عقدتْ

هي اتفاقا معه- على ألا نرى نحن الأبناء أي ثغرة في علاقتهما، فدائما ما حرصتْ على أن يكون نسيجنا العائلي مُحكما، وهذا الإحكام كان يقتضي أن تكون علاقة الأم والأب مثالية أمام أبنائهما، لم تسمح طوال سنين بأن نرى بينهما أي خلاف في الرأي فضلا عن شجار أو نقاشٍ محتدم، وعندما كان يحصل شيءٌ ما ويُوتِّر الجو بينهما كانت أمي تُشير بعينها إلى غرفتهما فيتجهان إليها ويُغلقان على أنفسهما ساعة، ولم نكن نسمع خلال تلك الساعة أي صوت حتى إننا كنا نسمح لأنفسنا كأطفال بالتكهن بما يدور خلف الباب المغلق، فننخرط أنا وأختي ضحى في تمثيل دورهما في حوارٍ طريف، فتقلد ضحى صوت وحركات أبي بينما أتكلم بنبرة أمي المتعقّلة كما لو أننا نعلِّق على مباراة كرة قدم بتتبع حركات اللاعبين، فيُكركر إبراهيم الأصغر سنًّا لدقة التقليد بينما تزجرنا أمينة التي كانت ترى فيما نفعل قلة تهذيب، كان ما يشغل بالي وأجده طريفا في نفس الوقت هو كيف يبدو شجارٌ يدور بهمسٍ بين زوجين»

-«أنا مستغربٌ جدًّا؛ لقد كان اختلافهما في الصفات والطباع والأفكار جليًّا لكل مَن يعرفهما! حتى إنني تساءلت كثيرا منذ عرفتهما كيف استمر زواجهما كل تلك السنين!»

-«نعم كانا مختلفَين جدًّا عن بعضهما، وكنا جميعا

أنا وإخوتي- منتبهين إلى ذلك وكثيرا ما تناقشنا فيه، لكنني شعرت بالعرفان لهما دوما لأن هذا الاختلاف لم يدفعهما للطلاق، وكثيرا ما فكرتُ في ذلك، فلم يتركانا مُمزَّعين بين والدين مُطلَّقين ككثير من الأطفال الذين عرفتهم في المدرسة. لقد كان اختلافهما من النوع الذي لا يجرح حضور أيٍّ منهما في البيت، أو يمكن القول أنهما مَن حرصا على ألا تهتز صورتهما ككيان واحد بسبب اختلاف كل منهما عن الآخر، ولهذا كان بوسعنا كأبنائهما أن نعدد معًا الاختلافات الشاسعة والكثيرة بينهما، دون أن نتمكن من رصد ثغرة واحدة في بنيان زواجهما المثالي والمحكم»

-«حسنا، هل كانت أمي حبهان هي المسيطرة؟ ربما لهذا السبب يعتقد عمي عبود أنها ما زالت في البيت ولا تريد مغادرته»

«مطلقا، لم تكن أمي امرأة تسعى لفرض سيطرتها على زوجها، لكن بوسعك القول أنها أخذت على عاتقها القيام بكل ما لا يحسن أبي القيام به، أعني فيما يتعلق بتربيتنا، إن أبي أكثر شخص مسالم يمكنك التعرف عليه، هادئ ومن الصعب أن يستثيره أي تصرف من تصرفاتنا مهما كان أحمق أو مستفزا، ولهذا كان متغاضيا دائما، أبا مثاليا لأي طفل مشاكس وكثير الأخطاء، لأنه كان يرى أن أي خطأ هو بسبب صغر السن لا شيء آخر،

بينما أمي -والتي لم تكن أقل هدوءًا منه بالمناسبة- اعتادت أن تكرر على مسامعنا جميعا أن الأخطاء لا تمتلك خاصية التصحيح التلقائي، وأن الخطأ هو خطأ مهما كان عمرُ مَن ارتكبه، ولم تكن تتنازل عن تحميلنا عواقب أخطائنا -حتى لو استلزم ذلك عقابنا- إلا عندما نبدي أسفنا ونتعهد بعدم التكرار»

-«ربما كان يشعر طوال الوقت أنها تُصحح له، هذا الشعور يُضر بكبرياء الرجل كثيرا حتى إن كان يعرف في قرارة نفسه أن المرأة على حق، ربما شعر دائما بهيمنتها على حياته وعجزه عن التخلص من سلطتها غير الصريحة عليه، وهذا ما جعله يراها في البيت بعد موتها ويعتقد أنها ترفض المغادرة»

«أرى أن أصبحت طبيبا نفسيا، لا أعرف سبب إصرارك على تشويه علاقتهما إلى هذا الحد، إنه مثل أي رجل فقد زوجته وعشرة عمره؛ سيحزن بالطبع لفراقها ويكتئب، وليس غريبا أن يرفض عقله رحيلها عنه وهو في هذه السن المتقدمة، من فضلك لا تحاول إلباس وفائه ثوبا لا يليق به! أنت محقق ولست طبيبا نفسيا»

-«أنتِ محققة، لكن هذا التفسير ليس لي، لقد استشرت طبيبة أختك وهي من قالت ذلك»

«وطبيبة أختي أيضا دخلت على الخط! يا لهذا الأمر! لكم أكره ميل بعض الناس إلى أن يبدوا عالمين ببواطن

الأمور، كفوا عن العبث في حياة والديَّ بحق الله!»

-...

«هل يمكن أن تخبرني بسبب هذه المحادثة وما ستفيدك به في تحقيقك؟! إنك تستجوبني هنا عن علاقة أبي وأمي لتحقق في مقتل كلب!»

-«أولا لم تكن القضية مقتل الكلب، لقد كنت أحقق في الأشياء الغريبة التي تحصل في بيتكم منذ وفاة أمي حبهان قبل شهور، مقتل الكلب آخرها وليس أولها. وثانيا أعتذر أنني شغلتُ وقتك وأزعجتك بأسئلتي، لكن هذا لم يحدث إلا بعد اتفاقكن -أنتن الأخوات الثلاث- على التعاون معي للوصول إلى حل فيما يحدث لوالدكن. وداعا»

«وداعا»

***

بعد ساعتين:

«مرحبا إلياس، أود أن أعتذر لك عن أسلوبي في محادثتنا الأخيرة وأرجو منك أن تقبل اعتذاري كأخٍ كبير طيب (ابتسامة)

لم أكن على ما يرام وكنت مشحونة بغضب كثير متراكم، ربما لذلك انفعلت عليك دون ذنب، سامحني.

أنا مستعدة للإجابة على أي أسئلة متى ما أردت ذلك.

أبلغ أمينة سلامي».

-٥-

أمينة

عندما لا يكون إلياس هنا لا أتمكن من مواجهة أي شيء، ولهذا طالما انتظرته لأخبره عما أعانيه، طالبةً منه أن يرشدني كيف عليَّ أن أعيش حزني، في غيابه لا أفلح في اتخاذ أبسط القرارات وأكثرِها عادية، وحتى البكاء بطريقة صحيحة يغدو صعبا للغاية، وكأن وجوده شرط أساسي حتى لا تتخذ الدموع مجرى خاطئا، وحتى لا ينتهي بكائي بارتفاع الضغط.

لم يكن في البيت عندما هاتفني أبي عصرا، وفور أن رأيت اسمه على شاشة هاتفي توتَّرت ودق في رأسي ناقوس الخطر، ماذا عليَّ أن أفعل؟ إلياس ليس هنا، وأنا تسوء حالتي فعلا بعد كل مرة أخوض فيها حديثا مع أبي، ظللت أفكر وأقضم أظافري وأذرع الصالة جيئة وذهابا، ثم تنفست الصعداء عندما انقطع رنين الهاتف.

غير أنه لم يلبث أن عاد من جديد، غادرت إلى المطبخ متشاغلةً بأي شيء لعله يسكت من تلقاء نفسه، ولم يكن من شيء لأفعله في المطبخ حقيقةً، فرحتُ أغسل الأطباق النظيفة، وأمسح سطح الموقد اللامع، وأفتح الثلاجة وأغلقها دون هدف محدد، لم يكف الهاتف عن الرنين لثلاث دقائق، وحين سكت أخيرا وقلتُ أن أبي

يئس ولن يعاود الاتصال سمعتُ رنة رسالةٍ نصية، هُرعت إليه والتقطته، فتحتُ الرسالة فطالعني اسم المرسل وتحته أربع كلمات فقط:

«رُدِّي يا بنت الكلب»

شعرت بجسدي كله يرتجف، ورغبتُ بشدة في أن يعود إلياس الآن، ليست بي القوة الكافية لمواجهة هذا وحدي، كتبت أول حرف من اسمه في جهات الاتصال فظهر رقمه على الفور، وحين أوشكت أن أضغط زر الاتصال انبثقت على الشاشة مكالمة أخرى من أبي، لم أدرِ ماذا أفعل، فتحت المكالمة بإصبعٍ مرتجف، بكيانٍ مرتجفٍ بالكامل، فانفجر صوته مثل قذيفة على الجانب الآخر:

«لماذا لا تردين يا...»

قاطعته بنبرة واجفة:

«آسفة يا أبي، كنت في المطبخ»

«اللعنة عليكِ وعلى المطبخ»

ثم سكت هنيهةً وبدا كأنه لم يهدف إلى شيء بعينه من هذه المكالمة باستثناء شتمي، ليقول بعدها بصوت لم يفلح في مداراة الخوف فيه رغم نبرته المؤنبة:

«أمك لم يكفها قتلها لكلبي أمس فعلقت لي مشنقةً

في غرفة إبراهيم اليوم»

خفق قلبي بشدة، كنت قد تعودت على هلوساته طوال الأسابيع الفائتة ولكن منذ أمس بدأت الأمور تسوء، سألته وأنا أرتجف:

«في غرفة إبراهيم؟ لماذا؟»

قال بحنق:

«وما أدراني! اسأليها إذا كنت تستطيعين!»

ازدردت ريقي وقلت بنبرة مشفقة:

«وكيف أسألها! لقد ماتت يا أبي، ماتت وأنتَ رأيتها بعينيك تُوضع في قبرها..»

ثارت ثائرته كعادته عند فتح هذا الموضوع وقال:

«حبهان ليست في ذلك القبر اللعين، إنها في بيتي، إنها هنا في البيت، لا أدري لم تكذبونني حتى الآن، لن تصدقوا أنها هنا حتى تجدوني مقتولا صباح يوم ما!»

قلت داعيةً بارتباك:

«الشر بعيد يا أبي، لا تقل هذا»

أجاب غاضبا:

«الشر حصل بالفعل منذ عادت أمك، إنها تريد أن تقتلني، أعرف هذا، ولن تهدأ أو تستريح حتى تنفذ

رغبتها»

سألته بخوف شاعرةً بغصةٍ في حلقي:

«ولماذا ستريد أن تقتلك؟!»

اشتد غضبه أكثر وقال:

«ما أدراني! إنها صنف نمرود لا يُثمر فيه المعروف، ثم ما الذي تقولينه؟ هل هذا ما يهم الآن؟ هل أنت عديمة الإحساس؟ ألا تفهمين؟ أقول لكِ عدتُ إلى البيت فوجدتُها قد علَّقت لي مشنقةً، مشنقة، هل سمعتِني؟ علقت مشنقة!»

زاد ارتجافي وحرتُ فيما عليَّ قوله، وتخيلتُ وجهه الغاضب على الطرف الآخر من المكالمة، بشعره الخفيف الأبيض المُهوَّش والرذاذ الذي يتطاير من فمه في كل كل مكانٍ عندما يتكلم بانفعال، لم يكن خوفي مما حكاه بل منه هو، إلى الآن ما زلت أتوتر وأرتبك وأخاف عندما يغضب، قاطع تفكيري بقوله:

«لماذا لا تردين عليَّ؟ هل تقولين كما تقول الأُخريان أنني عجوز خَرِف؟»

أسرعت أقول مُعتذرةً:

«العفو يا أبي، أبدا، أنا فقط كنت أريد أن أسألك، ألم تذهب إلى المطعم اليوم؟»

رد بصوت أهدأ لم يخلُ من الانفعال:

«ذهبت، ولكنْ أبو عبده، صديقي ذاك الذي تعرفينه، جاء إليَّ واقترحَ عليَّ شيئًا ما لحل مشكلة البيت، فعدتُ قبل قليل لأبحث مجددا عن... أيًّا يكن، هذا ليس موضوعنا، المهم أنني ما إن بدأتُ البحث حتى وجدت تلك المشنقةَ اللعينة»

سألته باستغراب:

«في غرفة إبراهيم؟!»

أجاب:

«في غرفة إبراهيم»

سألتُه بنبرة مستنكرة:

«ولماذا خطر لك أن تدخلها اليوم؟»

ارتبك لحظة ثم قال بغضب:

«هل ستتركين ما فعلته أمك وتستجوبينني؟ لم يعد ينقص إلا أن أُحاسب على دخول هذه الغرفة أو تلك!»

شرعت أعتذر له لكنه لم ينتبه لي، وبدا أنه يكلم أحدًا بجانبه، كان يقول:

«لا تُلقيها، أيتها المرأة المشؤومة! هل قتلتِه والآن تتخلصين من أي أثر له؟ أقول لكِ لا تلقيها!»

ثم تناهى إليَّ صوت انكسار زجاج على الأرضية، ساورني القلق فرحتُ أناديه لثوانٍ قبل أن يجيب أخيرا وهو يلهث:

«أمك لن تتوقف حتى تقتلني أو أقتلها»

قلتُ بصوت خافت:

«إنها ميتة بالفعل!»

لكنه أردف دون أن يبدو أنه سمعني:

«إنها مصرة على رمي سلسلة سلطان في صندوق القمامة، قتلتْه وتريد أن تحرمني من آخر ذكرى بقيت منه، يا لها من عجوز حقودة!»

لم أرد، ولم يكن ينتظر مني ردًّا على ما يبدو لأنه أردف:

«طوال عمرها كانت حقودة، هل أنسى عندما أخذت كلبي السابق إلى مأوى الحيوانات؟ إنها حبهان ذات القلب الأسود، تريد أن تحرمني من أحبابي كما حُرمتْ من أحبابها»

آلمني قلبي، لم يكن سهلا أن أسمع كل هذا التجريح في أمي الميتة، أمي التي كانت أطيب امرأة في العالم، لكنني شعرت بالعجز عن أن أدافع عنها، أو أن أخبره أنها أعطت الكلب لمأوى الحيوانات لأنه كان مصابا

بمرضٍ مُعدٍ، وبدلا من ذلك جلستُ مكاني كتمثال أستمع إلى إهانتها بإذعان، والأدهى أنني لم أكتفِ بالسكوت بل قلتُ له مواسيةً:

«لا تُحزن نفسك يا أبي، من أجل صحتك»

سعل مرتين ثم قال بأسى مشوبٍ بالحنق:

«وهل تركتْ لي صحة؟ لقد أكلت المرأة عمري وعافيتي في حياتها وتريد أن تأكل عقلي بعد أن ماتت»

قلتُ بصوت مرتجف وقد بدأتُ أختنق:

«لا بأس عليك»

رد بانفعال:

«كل البأس عليَّ منذ عرفتها، كيف لا بأس وهي ملتصقة في بيتي لا تريد أن تغادر؟ كيف سـ...»

انقطع الاتصال، نظرتُ في الهاتف فوجدت شحنه قد نفد، حمدتُ الله في سري على هذا الإنقاذ المفاجئ، لكنني غرقتُ في نوبة بكاء ونشيج، تذكرتُ أمي التي لا أفلح حتى الآن في استيعاب أنها ماتت، وتذكرتُ كل المرات التي شكا لي أبي منها وكيف كنت أعتذر له عنها وكأنني مذنبة، وتردد في عقلي كلام طبيبتي النفسية عن أنه لم يُفلح في كسر إرادة أمي فتحول إليَّ لأنني كنت أحقق له ما يريد، قالت أن هشاشتي

كانت مطمعا له، فراح يشكوها لي وحدي منذ طفولتي ويهددني بالرحيل عن البيت لأنه يعلم أنني سأبكي وسأعتذر له، وحتى خوفي منه في نوبات غضبه كان يعجبه لأنه لم يستطع أن يخيف أمي، كان يستعيد ثقته بنفسه عندما يراني ضعيفة وخائفة وراجية، فقط لأن أمي كانت قوية ولا تنكسر مهما حاول كسرها.

غرقت في ذكرياتي مؤنبةً نفسي على استسلامي كل مرة، وعلى سماحي لأبي اليوم أيضا أن يُفرغ فيَّ غضبه من أمي الميتة، رغم كل كلام طبيبتي لي عن أهمية أن يدرك أنني لم أعد تلك البنت الصغيرة الخائفة حتى يتوقف عن استغلالي ليشعر بالقوة، والآن كلما خاف من شبحها الذي يزعم أنه يسكن معه البيت يكلمني ليشكوها لي؛ حتى أعتذر ويستعيد إحساسه بالسيطرة.

أصابتني نوبة البكاء بصداع كاد يفتك برأسي فنمتُ على الأريكة في الصالة، عاد إلياس إلى البيت ليلا ليُفزعه منظر وجهي المغسول بالدموع، أيقظني برفق وراح يمسح وجهي بمنديل مبلل، انهمرت الدموع من جديد رغم مجاهدتي كي أُمسكها، أدرك أن شيئا ما حصل في غيابه، كان يعرف الشيء الذي يجعلني في هذه الحالة، فاحتضنني وراح يربت على ظهري ويردد:

«لا بأس، لا بأس، أنا هنا الآن».

-٦-

إلياس

طوال الساعات الثمانية والأربعين الماضية لم نستطع الوصول إلى يوسف، هاتفه مغلق وبيته كذلك، وعندما سألت جاره المُسن عنه والذي تربطه به علاقة طيبة أكَّد أنه لم يره منذ ثلاثة أيام وأنه ودَّ لو كان يملك رقم هاتف أيٍّ من أقربائه ليسأل عنه، شكرتُه وودَّعتُه بعد أن تمنى أن أصل إلى أي خبر عنه قريبًا وأن يكون بخير.

عرفتُ يوسف قبل عشر سنوات، كنت قد هاجرت من مصر لتوي بعد العثور على فرصة عمل في جريدة أمريكية متوسطة الرواج، وفي أول يوم عمل لي رأيته؛ شابًا طويلًا عريض المنكبين قمحي البشرة، بلحية خفيفة وحاجبين معقودين ونظرة تبدو دائما خارج حدود المكان، قابلته في أحد الممرات واصطدمت به، اعتذرت فلم يرد وبدا أنه لم ينتبه لي رغم أن أوراقه سقطت منه واضطر إلى الانحناء لالتقاطها، اعتبرته يومها متكبرا أو غريب الأطوار رغم أني عرفت من هيئته أنه عربي، بعد أن خرجت من مكتب المدير سألت عن يوسف يوسف الذي سيشرح لي مهامي الوظيفية وطبيعة سير العمل، دلوني على مكانه لأُفاجأ بأنه الشاب نفسه الذي اصطدمت به وتجاهلني، قلت لنفسي متهكمًا: يا لها من بداية رائعة!

لكنه حين رآني وضع سماعة الهاتف ونهض من خلف مكتبه الذي يحتل ركنا منزويا في غرفة يتشاركها ستة أفراد، ومد يده لمصافحتي قبل أن أصل إليه، فهمتُ أن المكالمة كانت عني، وإلا كيف عرفني قبل أن أفتح فمي؟

«مرحبا بك، أخبرني المدير عنك، أنا يوسف يوسف الذي سيُعرفك على المكان»

سلمت عليه وأومأت برأسي. رغم نبرته المرحبة إلا أنني شعرت أنه غير مُبالٍ بالقدر الذي حرص أن يبدو عليه، كان يكلمني ونظراته بعيدة، يداه دائما مشغولتان بشيء ما، وهو ما كان يُشعرني بالاستياء من عدم اهتمامه. فيما بعد سيصبح يوسف صديقي بأكثر الطرق سهولة وأريحية، وسأدرك أن نظرته البعيدة وانشغاله الدائم بشيء في يده ليسا قلة اهتمام بمحدثه وإنما طبيعة، حتى عندما يكلم أحب الناس إليه.

كنا غريبَين تماما لا يجمع بيننا سوى أننا العربيَّان الوحيدان في الجريدة، لم يبدُ أن هذا أثار لديه اهتماما خاصا بي، بينما كنت مُتحرِّقا لعقد روابط مع أناس يتكلمون لغتي ويحملون الهموم نفسها، ويوسف كان أول عربي أقابله في مهجري، ولذا أشعرتني برودته تجاهي بالإحباط. بعد أيام كنت جالسا إلى مكتبي الذي وُضع إلى جوار مكتبه حديثا، كنا في فترة راحة وانشغلت

بمتابعة موقع فلسطيني اعتدت متابعته لسنوات، وكنت معجبا بشدة بمجهود القائمين عليه في الدمج بين التاريخ والحاضر وتوثيق حال الداخل الفلسطيني وجرائم الاحتلال، كان ظهري للباب ويبدو أنه لمح هاتفي وعرف ما أُطالع، ففتح معي حوارا لأول مرة وسألني إن كنت مهتمًا بالقضية الفلسطينية فعلا أو أن هذا تصفح عابر لا أكثر، أخبرته أنني مهتم وأنني أتابع هذا الموقع منذ إنشائه تقريبا، والتقطت بادرة الاهتمام تلك ورُحت أحكي له عن موقع «قاوِم» بحماس وأنصحه بمتابعته وخصوصا مقالات كاتب يستخدم اسمًا مستعارا «الذئب الأزرق»، كان يُنصت بينما يعبث بقلم بين أصابع يده اليسرى، لم يقل شيئًا أكثر من «جميل» التي كررها مرارا، وحين تعارفنا أخبرته أني من مصر فأخبرني أنه فلسطيني عن بعد، استغربت الوصف فسألته عما يعنيه بفلسطيني عن بعد.

«أبي وأمي فلسطينيَّان، لكنني وُلدتُ هنا ولم أرَ فلسطين قط»

قال الجملة الأخيرة بصوت خافت كأنه يخجل منها. فهمتُ على ضوء هذه الإجابة لماذا أثار تصفحي للموقع الفلسطيني اهتمامه، لكنني بعد أقل من عام، حين تزوجت أمينة، أخبرتني أنه أحد مؤسسي الموقع الذي أتابعه، ولتزيد من دهشتي أسرت إليَّ أنه يكتب فيه باسم

مستعار هو الذئب الأزرق، ونصحتني ألا أخبره بأنني عرفتُ ذلك.

أما كيف توطدت علاقتي به حتى عرفت أخته وأحببتها فإنني إلى الآن لا أدري، كل ما أعرفه أننا صرنا صديقين مقرَّبَين فجأة رغم بداية تعارفنا التي لم تكن مبشرةً بذلك، حين عرف بعد أسابيع من قدومي للولايات المتحدة أنني لم أجد بعدُ سكنًا مناسبًا عرض عليَّ استضافتي في بيته حتى أعثر على بغيتي، كنت مُحرجا لكنني كنت قد تعبت في الوقت نفسه من التنقل بين الفنادق الرخيصة واستنزاف مدخراتي. بيته يبعد ساعتين تقريبا عن مقر الجريدة، ويقع في منطقة ريفية هادئة بمدينة فيرفاكس بشوارع واسعة مخضرّة، بيتٌ من طابقين يعيش فيه وحيدًا منذ وفاة جدته قبل سنوات طويلة، مُرتَّب ونظيف إلى حدٍّ يصعب توقعه من بيت شابٍّ يعيش وحده.

أكبرُه بعام واحد وقابلته حين كنت في الثامنة والعشرين، عندما عرفتُه اكتشفتُ لأول مرة كيف يمكن للإنسان أن يكون هادئًا من الخارج مثل ليلة صيفية نسيمة في حين يغلي داخله كمرجل على النار، كنتُ ثائرا حانقا ترك الوطنَ الذي لم يستجب لمحاولات إصلاحه، وفي داخلي كنت أعتز بثوريتي وأمارس بزهوٍ غضبي على البلد الذي جئت منه، مع إدراكي في قرارة نفسي

أنني راضٍ بكوني حين لم أنجح مع الآخرين في تعديل دفة السفينة قفزتُ منها مرتديًا سترة النجاة، عيشي مع يوسف أوضح لي حجمي الحقيقي كثَوريّ، في بيتٍ كل ما فيه ذو طابع فلسطيني وحتى حوائطه تكسوها لوحات فلسطينية، كنت أمام شاب لم يرَ وطنه من قبل؛ وُلد وعاش في المنفى، لكنه كان مسكونًا بفلسطين التي لم يرَها إلى حد التماسِ كلِّ سبيل ممكن للعودة إليها، بعد سنوات من تعرفنا عمل مراسلا بدوام جزئي لقناةٍ عربية شهيرة، واعتبرها بداية طريق العودة إلى فلسطين كمراسل من الداخل، ذلك الداخل الذي كان على ارتباط وثيق به؛ فقد عمل مع شباب فلسطينيين في تغذية موقعهم الإليكتروني بمقالات ترصد الوضع في كافة أنحائها أولا بأول، داعمين تلك المقالات بالصور والتحليلات السياسية واستحضار التاريخ والتأكيد على حتمية العودة، والاحتفاظ في ختام كل المقالات بتلك الفكرة كما تحتفظ عجوز من حيفا بمفتاح دارها الذي ورثته من أمها التي ورثته بدورها من جدتها، وحين عاينوا ما أصبح لمواقع التواصل من قوة تأثير وانتشار أنشأوا فيها صفحاتٍ للموقع راحت تكبر وتنتشر سنةً بعد أخرى، جهد جماعي جبار كنت أراقب خفيةً أحد باذليه بعد أن أخبرتني أمينة بدوره فيه، وأسأل نفسي من أين لهؤلاء الشباب كل هذه القدرة على الاستمرارية في ظل وضع يسوء يوما بعد يوم، وما القوة الدافعة

لهم وهم يخوضون معركة بدأها أجدادهم وماتوا قبل أن ينتصروا فيها، ويخوضونها الآن مُدركين أنهم قد لا يرون بأعينهم انتصارهم، في الوقت الذي ملأني فشل الثورة في بلدي بحنق لا حدود له ودفعني إلى الهجرة مملوءًا بالإحباط واليأس، وأسأله ما الذي ينتظره كي يعود إلى فلسطين ومعه جنسية أمريكية تُسهِّل له ذلك، فيُخبرني أنه لا يريد أن يعود كسائح، وأنه إذا استخدم جواز سفره الأمريكي ليعبر الحدود فلن يقبل بأقل من أن يمكث فيها كفلسطينيٍّ له حقٌّ فيها.

لم يُشعرني الفارق الكبير بيني وبينه بالذنب، فما زلتُ أعتقد أنه لم يكن بإمكاني غيرُ ما كان، لكنه خفف من شعوري بالعظمة وانتفاخي بالشعارات الثورية المجوفة ووهم النضال، ورحتُ أراقب عن كثبٍ المناضلَ الحقيقيَّ وهو يخوض معركته صامتًا وأعزلَ من أي شعار، ويبدو أن البلد الذي جاء منه يهوى لفَّ اللثام؛ فبينما يتلثَّمون هناك بالشالات كان لثام يوسف اسمًا مستعارًا لم يعرف سوى خمسةٍ فقط أنه له.

كنتُ قد أمضيتُ في بيته أسبوعًا حين رأيتُ أمينة أول مرة، كُسرت قدم يوسف وجُبِّرت فأخذ إجازةً من العمل، وفي أول يوم إجازةٍ سمعت طرق الباب، حين فتحتُ حدقت فيَّ عيناها بفزعٍ قبل أن تُخفضَهما وتسألني بتوتر مَن أنا وأين أخوها يوسف وما الذي أفعله في بيته، كانت

تتكلم باندفاع خائف لم يترك لي فرصةً للرد، لم أحاول مقاطعتها فتوقفت من تلقاء نفسها حين لم تعد بديهتها المرتبكة تُسعفها بالمزيد، سألتني بغضب:

«لماذا أنتَ ساكت؟ لماذا لا ترد؟!»

قلتُ بهدوء:

«لأنكِ تنهالين بالأسئلة دون أن تتركي لي فرصةً للرد»

نظرت إليَّ بخجلٍ لم يُزِلْ عن وجهها أمارات التوجس، قالت:

«حسنًا؛ مَن أنت؟! وماذا تفعل هنا؟! وأين..»

قاطعتها هذه المرة:

«اسمي إلياس، أنا صديق أخيك وضيفه، وهو في غرفته»

حدجتني بنظرة مرتابة وأنا أتنحَّى عن الباب، نادته بصوتٍ عالٍ من مكانها دون أن تخطو خطوة واحدة للداخل، أتاها صوته بعد النداء الثاني:

«ادخلي أيتها القطة المذعورة!»

انبسطت عضلات وجهها بعد انقباض ودخلتْ أخيرا، مشتْ نحو الغرفة التي بدا أنها تعرفها جيدا بعرَجٍ واضح في قدمها اليُمنى، وعلى نحوٍ مفاجئ شعرتُ بحنان

نحوها وهي تخطو بإيقاعٍ منتظم؛ من حركة قصيرة وأخرى طويلة تتكرران فتبدو كأن رجلها تتخلف عنها، ومن خلف ظهرها تأملتُ تلك المِشية فخمنتُ أنها تبذل جهدا إضافيا لسحب رجلها قبل أن تخطو الخطوة التالية، كان حنانًا ما شعرتُ به نحوها لا شفقة، وأدركتُ في تلك اللحظةٍ أنني سأقع في حب تلك البنت، وإن لم أعرف بعدُ أن أهم هدف في حياتي سيكون الربت على قطةٍ مذعورة حتى تهدأ.

انتشلني من شرودي في خطوتها صوتُ يوسف، فأغلقتُ الباب الذي نسيته مُتسمِّرًا عنده، واستجبتُ لندائه متجها إلى غرفته. قال لأخته الجالسة على طرف سريره وهو يمسح على رأسها، بينما راحت تُمطره بالأسئلة عن قدمه المُجبَّرة في ذعر:

«اسكتي قليلا يا بنت حتى أعرفك بالرجل!»

التفتت نحوي خجِلةً ثم عادت تقول له بصوت متهدج:

«كنتُ أُحس أن شيئا ما حدث!»

تنهد ثم قال مُطمئنًا:

«لا تقلقي، إصابة بسيطة لم تقتلني»

تمتمت بدعاء لإبعاد الشر، فأردف:

«هذا صديقي إلياس، مصري قدم إلى أمريكا قريبا ويعمل معي في الجريدة، أردت أن أخبرك قبل الآن حتى

لا تخافي إذا فوجئتِ به يفتح لكِ الباب لكني نسيت» ثم نظر إليَّ وقال وهو يداعب خدها: «هذه أختي أمينة، تأتي كلَّ يوم جمعة لتمارس عليَّ أمومةً مبكرة»

ابتسمتُ وأومأتُ برأسي مُحييًا، ردت دون أن تلتفت نحوي:

«أهلًا به. هل تشعر بألم؟»

قال بنبرة متوسلة:

«لا تفزعي إلى هذا الحد، لا أشعر بشيء، اطمئني»

هممتُ بالخروج لأتركهما على راحتهما لكنه ناداني:

«هل يمكن أن تساعدني على الخروج لغرفة المعيشة؟»

أسندته حتى كرسيِّه المفضل تحت نافذة غرفة المعيشة وانصرفت إلى غرفتي بحجة التجهز للخروج للعمل الذي لم يكن عليَّ الخروج له إلا بعد ساعة، ومن غرفتي التقطت أذناي جملًا متفرقة عن أمٍّ وأخوات وأخٍ أصغر ووظيفة جديدة، وقبل أن أتورط في جريمة تنصُّت شائنة التقطتُ حاجياتي من الغرفة وخرجتُ مودعًا إياه، وطوال الطريق حتى الجريدة ظللتُ مشغولا بها؛ بصوتها الرقيق ونبرتها المتحفزة ومشيتها الإيقاعية بسبب عرجها، ووجدتني مبسوطًا وأنا أتذكر قول يوسف أنها تجيء إلى

البيت كل يوم جمعة.

أسبوعًا فأسبوع راحت الألفة تنبسط فيما بيننا، وأصبحت أشعر أن وجودي في بيت أخيها لا يسبب لها إزعاجًا؛ فقط لأنني تحولتُ في كلامها معه من «صاحبك المصري» بصوت هامس إلى «الإستاذ إلياس» باعتيادية محببة. هذا من ناحيتها، أما من ناحيتي فقد ازداد شعوري بأن مصيري مرتبط بمصير هذه البنت بشكل ما، ورحتُ أتقصى أي تفاصيل عنها من أحاديث عابرة مع يوسف لم تكن عابرة بالنسبة لي ولم تخلُ من سبق الإصرار والترصد، عرفتُ أنها تخرجت حديثا كمعلمة وتأمل أن تعمل في نفس المدرسة التي تعلمتْ فيها، والتي كانت أمها معلمةً فيها أيضا، وأنها أكبر إخوتها من الأب وأكثرهم حنانا وهشاشة، وحينما كان يوسف ينزلق في الحديث إلى تفاصيل أكثر عاطفية كان يخبرني أنها أكثر من يخاف عليه من إخوته، لا لإعاقة رِجلها فقط والتي تسبب فيها حادث تعرضت له في عمر الثانية عشرة، وإنما لطبيعتها التي عرضتها لذلك الحادث أصلا، كان أخوها الأصغر إبراهيم يمارس واحدة من احتجاجاته على أمه بأن تسلق شجرة التوت العالية في الحديقة واعتصم فيها حتى دخل الليل، ولم يُثنِ ذلك الأم عن موقفها وأبدت عدم اهتمامٍ بتهديده الضمني بالمبيت فوق الشجرة، بينما كان الأب غاضبا من موقف الأم بسبب خوفه الشديد على ابنه الذكر

الوحيد، وبدلا من أن يواجه الأم بذلك أو يعلن عن اعتراضه أمام الأبناء -وهو ما لم تكن تقبله زوجته- فقد نفَّث عن ذلك الغضب لابنته الكبرى الطيبة وشكا من عدم اعتبار وجوده في البيت وهدد بتركه، الشيء الذي ذُعرت له البنت زيادةً على ذعرها من أن يتعرض أخوها للأذى، وبكت راجيةً إياه ألا يذهب وواعدةً إياه بأنها لن تسمح بأن يحدث مكروه لإبراهيم وأنه سيبيتُ في فراشه، ولتنفذ ذلك الوعد ركضتْ إلى شجرة التوت وتوسلت لإبراهيم كي ينزل، لكنه ظل متمسكا بعناده فلم تجد بدًّا من تسلق الشجرة لإنزاله، وحين أوشكت يدها أن تصل إليه تمسكت بغصنٍ كان أضعف مما بدا لها فسقطت وكُسرت رجلها اليمنى، ولسوء الحظ لم تعد تلك الرِّجل كما كانت رغم كل محاولات العلاج، والغريب أنها هي نفسها من تحملت عواقب غضب الأب من تلك السقطة والإعاقة التي نتجت عنها، لأن أباها كالعادة كان يفرغ غضبه من أمها بالحكي لها وكَيلِ التهديدات والاتهامات لأمها، ولم تكن نفسيتها تحتمل ذلك كله.

يحكي يوسف ذلك بوجه حزينٍ ونبرة متأثرة، ويتأثر أكثر وهو يخبرني أن إبراهيم أسرَّ له في المرة الوحيدة التي تكلم فيها معه عن تلك الحادثة بأنه لم يكن ينوي أن يبيت فوق الشجرة حقا، وبأن أمه كانت تعرفه جيدا وتعرف أنَّه يخاف من العتمة ولن يستطيع تنفيذ ما هدد به، وأخبره أنه كان على وشك النزول ومستعدا حتى

للاعتذار حين جاءت أمينة تتوسل إليه أن ينزل فكابر وعاند، وهو ما لم يغفره لنفسه قط وحملَه في قلبه كندبةٍ مؤلمة، وسأل نفسه كثيرا ماذا كان عليه لو أطاعها ونزل فلم تُصب أخته بذلك العرج الدائم، وبقي يشعر بالذنب كلما رآها تجر رجلها كما لو كانت تجر ذنبه الثقيل وتنوء به، رغم أنها لم تتكلم قط عن الأمر لا معه ولا مع أحد آخر، واعتبرت تلك الإعاقة ناتج حادث لا ذنب لأحد فيه، وكلما أشار إليه أحد من الأسرة أو خارجها سواءً للمواساة أو التنمر ضحكت وقالت وهي تهز كتفيها: «هذا لا شيء، ثمة أناس مضطرون للزحف على بطونهم لأنهم لا يملكون قدمين». وأنا بدوري سأتذكر هذا التفصيل بالذات، شعور إبراهيم بالذنب وعدم نسيانه أنه كان السبب في إعاقة أخته، عندما أقرأ رسالة انتحاره بعد أشهرٍ من وقت معرفتي الحكاية.

لهذا كله كان يوسف يخاف عليها خوفه على طفل صغير غير مؤهل لمواجهة شرور العالم على حد قوله، ولهذا كله أيضا شعرت نحوها بالحنان اللازم لطفل صغير غير مؤهل لمواجهة شرور العالم، علاقتنا قامت على الحنان من ناحيتي والاطمئنان التدريجي من ناحيتها، اطمئنان صبرتُ عليه وراقبتُه وهو يتنامى ببطء دون أن أحاول تحفيزه بشكل مباشر لم يكن ليُسفر سوى عن ابتعادها في ردة فعل عكسية، لقد فهمتُ كيف يعمل قلب أمينة قبل أن أحاول الاقتراب منها، لم

يمكن لأيِّ شيءٍ قد يُقالُ أن يمنحها طمأنينة الاقتراب من هذا الغريب الذي عليها بدافع التعود أن تتوقَّاه، وحدها الأفعال هي ما كان يُطمئنُها، الأفعال التي يأتيها الآخرون دون أن يلاحظوا أن أحدا يراقبهم ليتخذ منهم موقفا على أساسها، ومثل أي قطة مذعورةٍ دماغُها حافلٌ بقصص العنف البشري كانت تراقبني من بعيد بحذر، وكنت أدرك ذلك وأحرص على ألا أُظهرَ لها أنني أدرك، لكنني أصررت وبشدة على هدف اعتبرتُه من أهم أهداف حياتي: أن أكسب ثقتها، لا كإنسانٍ فقط بل كرجلٍ أيضا، وأدركتُ مع الوقتِ كم كان ذلك صعبًا مع كل ما مرت به حتى ذلك الوقت؛ من اهتزاز ثقتها بنفسها كأنثى بسبب عرَجها الذي لا شفاء منه، وانقسام موقف المحيطين منها بين التنمر والشفقة، وتحرش صاحب محل بقالةٍ بها عندما كانت في الثالثة عشرة، القصة التي عرفتُها عن طريق الصدفة عندما وجدتُ خبرها في صحيفةٍ قديمة كان يوسف يحتفظ بها في مكانٍ ظنَّ أنه حصينٌ في البيت، ولن أنسى أبدًا هذه الفقرة منه التي ضبطت إيقاع حركتي نحو أمينة:

«الأمُّ التي تحمل الجنسية الأمريكية تقدمت بشكوى ضد صاحب البقالة، تم استدعاؤه، وبسؤال الفتاة حكتْ وهي تبكي أنه تحسَّس جسدها وهو يهمس في أذنها: هذا سرٌّ بيننا يا عرجائي الحلوة، لا تُخبري أحدًا، هل تفهمين هذا أيتها اللاجئة الصغيرة؟»

كان اكتساب ثقتها يحتاج معجزةً وحدثتْ لحسن الحظ، إذ راحتْ أمينة تتفحصني طوال أشهر كأنما لتقرر أين تضعني بالضبط، حتى بدا لي أخيرا أنها وضعتني في خانة المأمونين، وإن لم يبدُ منها ذلك صراحةً إلا في عدم انكماشها في حضوري، وعندئذٍ أشرتُ لها أن تقترب، ترددتْ في البدء بدافع الحذر الذي لم يكن سهلًا التخلصُ منه، لكنها اقتربت أخيرا حين أخبرتُها أنه لا يلزمها في البدء أن تتخلى عن حذرها كله لتتزوجني، كل ما عليها فعله أن تثق في حدسها تجاهي وتمشي نحوي بالسرعة التي تراها مناسبةً وأنا بدوري لن أتخطى هذه السرعة في مشيي نحوها، أومأ لها يوسف الذي كان فرحًا برغبتي تلك بعد امتحانها مرارا، فمالت رأسها إلى اليمين وتفكرت في الأمر، بعد أسبوعين من ذلك الحديث خُطبنا، وبعدها بأقل من عامٍ أصبحت زوجتي.

ودخلتْ أمينة حياتي بحذر مشوب بالأمل، ساحبةً وراءها رجلها اليمنى وحقيبة مشاعرها البكر والكثير من الأيام الطيبة مثلها.

-٧-

حبهان

ينقبض قلبي عندما تكون الباحة معتمةً في الليل، ولطالما أكَّدتُ على عبود ألا يُطفئ مصباح باب البيت قبل خلوده للنوم، ودائمًا كان يُطفئه، لأنه ليس بوسع الرجال أن يتغلبوا على عاداتهم غير المرغوبة بعد أن يتجاوزوا السبعين، بل تصبح قهريةً ويُصبحون أكثر وفاءً لها بعد تلك السن، كأنهم يشعرون في دواخلهم بضرورة التمسك في الكِبر بكل شيء كانوا قد اعتادوه حتى ذلك الوقت، قصبة ثابتة يتشبثون بها في تيار سنٍّ شديد الخلخلة.

اعتاد عبود أن يسألني بنفس النبرة المتعجبة كل ليلة:

«لا أعرف ما الذي يهمك في أن يكون مدخل البيت معتما ليلا طالما لن تريه، يا لعقول هؤلاء النساء!».

وأرد عليه نفس الرد منذ أكثر من ثمانِ سنين:

«حتى متى سأشرح لك أيها الرجل؟ إن إبراهيم يخاف العتمة، حتى متى ستتجاهل هذا الأمر؟!».

فيزفر زوجي بنفاد صبرٍ ويوليني ظهره ثم يسحب الغطاء لينام، بينما أنهض من الفراش لأوقد مصباح المدخل.

في الأشهر الأخيرة أقلعتُ عن عادة سؤاله إن كان

أطفأ المصباح، هناك شيء غامض يحدث للمرء ويصبح بعده أشد ميلا لتقصير المسافات، ويرى الراحة في تجنب الجدالات التي لا طائل منها، سلوك لا يمكن عزوه إلى اللامبالاة بقدر ما يمكن تفسيره بيقظة مفاجئة للأشياء الأهم من اجتلاب الخلافات. لذلك عندما دخل عبود غرفة نومنا ودسَّ نفسه في الفراش قمتُ من تلقاء نفسي وأوقدتُ المصباح الذي أطفأه لتوه، وعندما عدتُ ودخلتُ الفراش كان موليًا ظهره، لكنني شعرت بارتجافه وسمعت بوضوحٍ أنفاسه غير المنتظمة، مددتُ يدي أتحسس جبهته، كان يتصبب عرقا رغم أن جلده كان باردا، قلتُ له بضجر:

«أنتَ بخير يا عبود، لا تتظاهر بغير ذلك، لستَ صغيرا لهذه الحركات!».

ثم انزلقتُ تحت الغطاء ونمت.

في السابق كان يثور كل صباحٍ عندما يكتشف أن المصباح مُضاء رغم حرصه على إطفائه قبل أن ينام، لكن منذ أسابيع لم يعد الغضب ردة فعله على هذا الموقف، بل الخوف؛ خوف غريب كان يصل أحيانًا إلى نوبات هلعٍ لا تفسير لها!

***

أول شيء أفعله صباح كل يوم هو إطعام الدجاج في

ملحق الطيور خلف البيت، إن الدجاج يستيقظ قبل أي إنسان، ولهذا ينبغي -من باب اللياقة والتقدير- أن يكون أول ما أفعله في اليوم، في السادسة والنصف صباحا، هو تقديم الإفطار له، وبعد هذا يمكنني مباشرةُ ما شئت من أعمال البيت، ولكن لا يمكنني جمع البيض لإفطار عائلتي وأنا لم أضع الإفطار أمام الدجاجات وديوكهن، هذه قلة أدب.

ما زلتُ أذكر ذلك اليوم أولَ يوليو الماضي عندما دخلت بيت الدجاج لأُفاجأ بتلك المقتلة البشعة، أقبلت الدجاجات جميعا نحوي مُقوقآت، واحتملت بكل ما في صدري من غضب تلك الشكاية المؤلمة للقلب، هذه ليست دجاجاتي السمينة زاهية الريش، كنَّ جميعا في حالة بائسة من الهزال والضعف، منظر مُخزٍ ومؤلم لأي ربة بيت، وزعتُ نظراتي الحزينة بينهن في حين جذبن طرف جلابيتي بمناقيرهن، كن يقُدنَني إلى شيء ما، وهناك في الركن كانت ترقد ميتةً عشرون ديكًا ودجاجةً على وشك وضع البيض، الجيل الصغير من دجاجي كاملا! عندما وصلتُ إليهن تركت الدجاجات الكبيرات طرف ردائي وانخرطن في نوبة صياح هستيري، وقفتُ جامدةً لا أدري كيف أواسي أمهات موتورات في عيالهن على هذا النحو المُفجع، لقد مات أبناؤهن جوعًا أمامهن دون أن يستطعن عمل شيء من أجلهم، الشيء الوحيد الذى كان يتحرك فىَّ كان دموعى، فما الفارق فى ثكل

الأبناء بين أن تكون الأم إنسانًا أو دجاجة؟ أليس الألمَ الحارقَ نفسه؟ أليست مقتلةٌ جماعيةٌ بهذه القسوة محزنةً بالقدر ذاته أيًّا كان نوع القتلى؟

عندما انفك جمودي نزلتُ على ركبتيَّ وفتحتُ ذراعيَّ أعانق أكبر عدد ممكن من دجاجاتي الحزينات، رفعن رؤوسهن وهن في حضني وانشقت حناجرهن عن عويل يمزق القلب، وأقسم أنني رأيت دموعا صغيرة في عين كل دجاجة استطعت النظر إليها، كُنَّ أمهاتٍ ثكالى على نحو موجع، أما الديوك فكانوا يجلسون في ركن بعيد ساكنين سكونًا موحشا، ولولا انفتاح وانغلاق جفونهم الرقيقة ببطء مُمِضٍّ لظننتُهم موتى، كانوا مُفرغين من الثقة والزهو اللذين اعتدتُهما في ديوكي المتشاكسة، وبالرغم من كل شجاراتهم السابقة جلسوا هناك جنبًا إلى جنب متشاركين الوجوم ذاته، حتى أنهم لم يسبقوا الدجاجات إليَّ كعادتهم ليحظوا بالطعام أولا، لقد كسرهم على نحو أكيد ونهائي موت الدجاج الصغير تحت أنظارهم وما كانوا فيه من قلة حيلة، لذلك تكوموا هناك غير مجترئين على مشاركة الدجاجات الصياح أو التنفيس عن الألم، كان حزنهم صامتا وراكدا، وكان يمكن لمن ينظر إليهم أن يعجب كيف أن الرجال جميعا متشابهون سواءً كانوا بشرا أو طيورا، كلهم إذا فجعهم فقد الأبناء انساب بكاؤهم بصمت نحو الداخل.

ويقول عبود أن حياته ستكون أفضل إذا خرجتُ منها! أيها الرجل! انظر ما الذي نتج عن غيابي لأقل من يومين، مجرد ساعات قليلة أسفرت عن مقتلة في بيت الدجاج! لن أنسى هذا أبدا؛ فلقد جئت من بلد يمتلك ذاكرة عنيدة لا تُفلت أي مقتلة جماعية كهذه.

***

إنه غريبٌ منذ أسابيع؛ كنتُ قد تعودتُ -بالذات بعد موت إبراهيم- على معاملته السيئة وصبره النافد وتكراره طردي من البيت في كل شجار، الأمر الذي كان أشبه بالنسبة لي بسخرية سوداء كنت أعزوها إلى كبر سنه وعدم قصده ما يقول، فمن المستحيل أن يقصد طردي من البيت الذي كان لي من قبل أن نتزوج، لكنني أدركت منذ أول يوليو أنه كان يقصد ذلك بالفعل! كان يريدني أن أذهب من البيت، فهمتُ في اليوم الذي جُنَّ فيه، عندما أيقظتُه من نومه ففزع وخاف مني إلى درجة أنه عملها في ثيابه، وفيما بعد أصبح يتمتم خائفًا وغاضبا في الوقت ذاته بوجوبِ أن أنقشع من البيت، لم يكن إذًا مجرد كلام غير مقصود في ساعة انفعالٍ عابر!

وحتى لو كان البيت ملكه لا ملكي لم أكن لأذهب؛ مشكلتي مع عبود أعمق من أن يحلَّها تركي للبيت، كما أني غير مستعدة لوضع عائلتي في خطر العواقب الوخيمة لجُبنه وميله الدائم إلى تجاهل المشاكل بدلا

من حلها. لطالما قلت له أن المشاكل لا تنحل من تلقاء نفسها، وأن تظاهره بأنها غير موجودة لن يجعلها غير موجودة حقا، ستظل هناك وستتفاقم مثل لبلاب سام حول البيت حتى تخنق الجميع، لكن كيف كان بوسعي أن أُفهم رجلًا عاش مع أمٍّ أرملة بالغت في الخوف عليه حتى خنقت شخصيته؟ لقد منعت عنه حماتي التي لم أسمع عنها إلا من ابنها كل ما يمكن أن يجعل من الولد رجلا صلبا، وقفت دائما بينه وبين المشاكل التي تعرض لها منذ أن كان طفلا، دلَّلتْه وعوَّدته أن على الدنيا أن تُعطيَه ما يشتهي وإذا لم تفعل فعليه أن ينتزعه بأي وسيلة، وتلقت بدلا عنه كل ما كان مُوجَّها له من ضرباتٍ كان من شأنها أن تُعلِّمه وتجعله أقوى، فكبُر ليصير رجلًا أنانيًّا خائرًا لا يُحسن إلا سلبَ ما يشتهيه والتباكي على ما لا يقدر عليه.

ولهذا عندما أنجبتُ إبراهيم قطعتُ عهدا على نفسي أن أُبعده بكل طاقتي عن أن يُصبح مثل أبيه، لم أُرد لولدي أن يُصبح سلبيًّا أو أنانيًّا أو ضعيفا، فعلتُ كل ما يمكن فعله لأحافظ على هذا التوازن في علاقته بعبود؛ أن يحبَّه ويحترمه دون أن يتحول مع الأيام إلى رجلٍ يشبهه، فكنتُ أُهرع نحوه بكل أدوات التنقيب والتنظيف عندما ألمح شيئا ولو كان صغيرا من شخصية الأب يظهر في تصرفات الولد، هل أفلحتُ في هذا أم لا؟ هو شيء لم يعد بإمكاني الجزم به، لأن ما فعله إبراهيم قبل ثمان

سنوات لخبَطَ كل ما كنت أعرفه عنه كولد وعن نفسي كأم، وما من شيء أقسى على الأمهات من أن يتصرف أبناؤهن تصرفا لم يتوقعنه ويتركوهن عاجزات عن التصحيح وتنظيف الآثار السيئة، لقد كان تصرفه من هذا النوع تماما، النوع الذي يخبركِ بوجود خرقٍ في تربيتك دون أن يترك لك وقتًا للذهاب إليه بالإبرة والخيط، لقد تركني عاجزة تمامًا مع أدواتي وأمومتي ورأسي.

المهم أن جنون عبود في الأسابيع الأخيرة ليس سببه موت إبراهيم، إنه تغير مختلف تماما عما حدث له منذ ذلك اليوم، فجأة صحا الرجل من النوم معتقدا أنني ينبغي عليَّ أن أغادر البيت فقط لأنني غبتُ عنه يومين! أيُّ جنون! كنا قد تشاجرنا صباح ذلك اليوم وقال لي: «متى ستغربين من هذا البيت لأرتاح؟!»، ولم آخذ كلمته على محمل الجد؛ فلقد كان عاقلا حتى ذلك الوقت، في الظهيرة تعبتُ وتوجَّب عليَّ زيارة المشفى، فظن الرجل على ما يبدو أن خروجي من البيت ولو من أجل العلاج كان انصياعا مني لأمرِه بالذهاب، وعندما رآني مساء ذلك اليوم انتفض كأنما لبسه جِنٌّ وعملها في ثيابه، ومنذ ذلك اليوم يخاف مني، وإن خالطَ ذلك الخوف مع مرور الأيام غضب يدفعه أحيانا للشجار والسب، وأصبح أكثر عصبيةً وهو يأمرني بالذهاب محتجًّا بأنني تركت البيت في ذلك اليوم، مجنون! هل سأذهب من البيت الذي اشتراه أبي من عرقه وكدِّه قبل أن أعرفه؟ هل سأذهب

لأنني تعبتُ كما يتعب الناس فذهبتُ إلى المشفى؟ ماذا يحسبني هذا الرجل؟! ألم يعرف بعد كل هذا العمر وأربعة أبناء أنني أنحدر من ناسٍ لا يتركون بيوتهم أبدًا حتى لو خرجوا لبعض الوقت؟!

لقد جُنَّ تماما، هذا هو التفسير الوحيد لما يجري له منذ أسابيع، لكن هل عليَّ أن أحتمل الحياةَ معه على مضض طوال سنين ثم أعتني به عندما يُجنُّ ويصير عجوزًا في السبعين؟ ألن أنعتق أبدًا من هذا الرجل الذي كان أسوأ شيء حصل في حياتي؟ ليس حرصي عليه هو ما يُبقيني معه بل حرصي على أبنائي الذين يظلُّ والدَهم، آهٍ لو لم يكن أبنائي! إن الأبناء هم السلاسل التي تُقيدُ أيدي وأقدام الأمهات في سجونٍ حريٍّ بهن الهرب منها.

-٨-

عبود

سألتُها أمس: لماذا لا تريدين الذهاب من البيت؟ فقالت لي بمنتهى البرود: إذا كنت تود الذهاب تفضل، أنا لا أترك بيتي!

اللعينة ليست لديها النية، كيف أُفهمها أن هذا ليس مكانها بعد الآن؟ لا أدري، هل يجب أن أُصاب بالجنون قبل أن أفعل ذلك؟ لا والله لن أسمح لها، وإذا كانت مصممة على عدم الذهاب نكايةً فيَّ فأنا أيضا لستُ بالرجل الذي تُلوى ذراعُه أو تهزمه بنتُ امرأة.

تلتصقين بالبيت رغم موتك إذًا! حسنًا، أنتِ من اخترتِ. عندما حاولت بناتك تكليف عاملة تنظيف للعناية بالبيت قبل شهرين أرعبتِ المرأة المسكينة في الحمام حتى سقطتْ وكسرتْ ساقها، ورحلتْ وهي تصرخ بهستيريا مُفرطةً في أجرتها لليوم الذي اشتغلته، هذه المرة سأبتليكِ بامرأة قادرة لن تقدري عليها، ولن أخبركِ بذلك حتى تتفاجئي بها بنفسك، عندي فضول منذ الآن لأن أرى تعابير وجهك عندما ترينني أدخل بها من هذا الباب!

نامي الآن ملء عينيك أيتها المرأة، نامي بمنتهى الارتياح واعتقدي أنك الرابحة في هذه اللعبة اللعينة،

من يضحك أخيرا يضحك كثيرا!

تقلبت حبهان في الفراش فقطعتْ حديثي الداخلي، قالت بعد أن استقرتْ على ظهرها دون أن تفتح عينيها:

«أطفئ الضوء ونم»

مددت يدي المرتجفة إلى مصباح المنضدة عن يساري وأطفأته، وخطر لي لأول مرة وأنا أنظر إليها خلسةً بطرف عيني: هذه المرأة لا تعلم أنها ماتت! أكاد أقسم على هذا، لكن كيف!

ثم خطرت لي فكرة ورحتُ أُقلبها في رأسي لدقائق، استجمعتُ شجاعتي وقررتُ أن أجرب، ماذا يمكن أن يحدث أسوأ مما يحدث بالفعل؟ اعتدلتُ في الفراش ومددتُ يدي وهي أشد ارتجافًا فأوقدتُ المصباح من جديد، خُيِّل إليَّ أنني سمعتُ منها زفرةَ نفاد صبر، لكنها لم تنبس. ترددتُ كثيرا ثم حشدتُ كلَّ ما لديَّ من قوة، ونطقتُ أخيرا..

«حبَّهان!»

ردت دون أن تفتحَ عينيها:

«نعم»

ما زالت صاحيةً إذًا. شعرتُ أنني استهلكتُ كل شجاعتي في ذلك النداء فقط، وحِرتُ ماذا أفعل،

ما الخطوة التالية؟ لكنني قلتُ لنفسي استرجِلْ أيها العجوز، إذا كانت لا تعلم فعلا فأخبرها ولينتهِ هذا الأمر هنا والآن، دون أن تُضطر لإقحام نفسك في زيجةٍ لن تجلب سوى وجع الدماغ، ودون أن تفقد عقلك بعد أن شابَ رأسُك. تشجَّعتُ أخيرا وقلتُ بصوتٍ جاهدتُ كي يبدو متماسكا:

«هناك شيء أريد أن أخبركِ به»

همهمت بمعنى «قل» وما زالت عيناها مُغمضتَين، ازدردتُ ريقي وقلت:

«لكني أريدك أن تصدقيني، أقسم لكِ أن ما سأخبرك به حقيقي وحصل بالفعل»

لا أدري ما الذي دفعني لقول ذلك، لكن خطر لي أنها إذا لم تكن تعرف أنها ماتت فلن تُصدقني بسهولةٍ هذه المرأةُ التي تتجول في البيت وتعيش حياتها كأي شخص حي وأكثر. زفرتْ زفرةً طويلةً دون أن تنبس، وكان عليَّ أن أخبرها فورًا بجملة قصيرة وواضحة وغير شامتة في الوقت نفسه، أخذت نفسًا عميقا ثم قلت بسرعة:

«أنتِ ميتة منذ يوليو الماضي»

فتحتْ عينيها أخيرا، ثم أدارت وجهها نحوي وتفرَّست فيَّ لثوانٍ دون أن تُفصح تعابيرها عن شيء محدد، تجمدت أعصابي للحظةٍ قبل أن تقول بصوت عادي:

«حقًّا؟!»

«إي واللهِ، لقد مُتِّ منذ ثلاثة أشهر، جاء ابنُكِ يوسف إلى البيت فوجدكِ ملقاةً على أرضية المطبخ فطلب الإسعاف، لكنكِ مُتِّ قبل أن تصلي إلى المشفى، ودفنَّاكِ ظهرَ اليوم التالي»

كانت تنظر إليَّ مُضيِّقةً عينيها كما لو أنها تزن كلامي، ظلت جملتي مُعلَّقة في الهواء لثوانٍ مرت كأنها دهر، انتظرتُ ما ستنطق به بعد خبري ذاك كما ينتظر متهم حكم القاضي؛ فقد كنت أعيش مع شبح امرأة لثلاثة أشهر وأخبرتُها قبل ثوانٍ أنها ميتة، لذلك كان عليَّ أن أخاف بشدة؛ قد تقتلني أو تعذبني، وقد تُعيِّشني ليلة مرعبة لم أكن لأتخيلها في أسوأ كوابيسي، كاد قلبي أن يتوقف في انتظار ما ستقوله بينما لم تزل تُحدق فيَّ مضيقةً عينيها، لم تفعل أي شيء مما توقعته، فقط عضَّت على شفتها السفلى كعادتها عندما تأسفُ وسألتني بصوت يائس:

«هل كانت جنازتي تستحق؟!»

لم أفهم ما تعنيه، ويبدو أن وجهي أفصح عن عدم الفهم لأنها ما لبثتْ أن استدركت:

«تستحق الموت أقصد، فكما تعرف؛ على المرء ألا يموت قبل أن يتأكد من أنه سيحظى بجنازة لائقة»

كان في صوتها نبرة حزن لم أخطئها، لم أفهم تماما ما عنتْه لكن ردها شجعني، الأمر أسهل مما كنت أحسب إذًا وأنا الذي أرعبتُ نفسي دون داعٍ، قلتُ وأنا أحاول ألا تلتقي عيناي بعينيها؛ إذ ليس من الجيد أن تنظر في عيني شبح امرأتك الميتة وأنت تصف لها جنازتها، وبصوت لم أتمكن من إخفاء حماسته:

«طبعًا حظيتِ بجنازة لائقة، طبعا كانت تستحق، لقد حضرها كل من يحبونك، حتى إننا كنا نبكي جميعا و..»

كنت ماضيا في تصوير جنازتها عندما انتبهتُ إلى أنها تضحك، ضحكٌ طويلٌ ومن القلب كأنني طفلٌ وفاجأتُها بفكرةٍ ساذجة تحمل في داخلها نكتة لا أفهمها، عيناها ضيقتان وصدرها الضخم يهتز كأنه سيارةٌ قديمة تم تشغيل مُحرِّكها، بشرتُها البيضاء لامعةٌ رغم الإضاءة الخافتة وضفيرتُها الرمادية الطويلة انزلقتْ عن بطنها الذي يعلو ويهبط، فمها منبسط عن سنَّيها الأماميين المتجاوزَين بقية الأسنان طولا، وصوتُ كركرتِها يخترق أذنيَّ فيملؤني بالقشعريرة والرعب، اللعنة؛ لقد حدث ما توجستُه، إنها لا تصدق أنها ماتت!

ظللت محدقًا فيها بخوف حتى زايلتْها نوبة الضحك، التقطت أنفاسها شيئا فشيئا ثم قالت لي بنبرة قلقة:

«هذا كثير، هذا كثير حقًّا يا عبود، ينبغي أن يراكَ طبيب»

أجبتُها بصوت مرتجف وأنا أرجوها:

«صدقيني لقد مُتِّ حقًّا، هذا ما حدث حتى إن ابنك وزوج ابننتك وضعاكِ أمام عيني..»

قاطعتني:

«حسنًا، لا ترهق نفسك أكثر، نم الآن ودعني أنم لأن طاقة احتمالي لا تتسع حقًّا»

وتمتمتْ بكلمات مستاءة لم أتبينْها ثم وضعتْ كفها على جبيني وراحت تتلو آياتِ الرقية، ونعستُ وأنا أفكر في هذه الورطة الجديدة وأتساءل كيف بإمكان الرجل أن يُقنع زوجته أنها ماتت وعليها أن تغادر البيت.

-٩-

إلياس

شيءٌ ما غريبٌ يحدث، والأشياء الغريبة تحدث منذ ماتت أمي حبهان، حماتي العزيزة، قبل ثلاثة أشهر، لكنها الآن تُضحي أكثر خطورة. عندما هدأت نوبة بكاء أمينة أمس أخبرتني أن أباها يزعم أنه وجد مشنقةً معلقةً في غرفة إبراهيم ويردد أن حبهان علقتها من أجله، تعتقد أمينة أنه يُهلوس منذ رحيل أمها، وكذا تعتقد أختاها، بينما يراودني شعور لا أفهم سببه بأن الأمر ليس مجرد هلوسات عجوزٍ تجاوز السبعين، وهذا الشعور هو الذي دفعني لقبول طلبه بالتحقيق فيما يحدث.

استغربتُ في البداية أمر المشنقة خاصةً بعد أن قُتل كلبه، لكن دخوله الغرفة ابتداءً استحوذ على تفكيري عندما قالت أمينة أنه يتجنب دخولها منذ مات إبراهيم، وبعد أن كنت قد بدأت أصدق أن أمي حبهان لم تزل في البيت فعلا خطر لي أنه يدبر شيئا ما، وبشكل غير مفهوم زاد هذا من خوفي على يوسف الذي لم نستطع التواصل معه حتى هذه اللحظة.

عندئذٍ راودتني فكرة تفتيش البيت في غياب عمي عبود، لم أعرف ماذا يمكن أن أجد، ولكنني كنت أشعر أن هذه الخطوة لا بد منها؛ إن لم يكن للوصول إلى

إجابات بعض الأسئلة فعلى الأقل لتبديد شكوكي حول حماي العجوز. أفضيتُ لأمينة بنيتي فأخبرتني بالأماكن المهمة التي عليَّ البحث فيها، ولم أخبرها أن من نواياي في هذا التفتيش أن أبحث عن أي أثر حديث لأمي حبهان في البيت للتأكد من عدم وجودها، لا أدري أحتى لا أخيفها أم حتى لا تظنني مجنونا، المهم أنني سألتُها للتأكد إذا كان المفتاح الاحتياطي في مكانه المعتاد، ثم غادرت البيت على عجل مدفوعا لا بالحرص على الانتهاء قبل عودته إلى البيت فقط، ولكن أيضا بفضولي لما يمكن أن أكتشفه في رحلة بحثي.

ركنتُ سيارتي على بعد شارعين للاحتياط وسرتُ ما تبقى من المسافة في أقل من خمس دقائق، وحين كنت على أول شارع البيت رأيتُ صفية تُغلق البوابة الخارجية بالمزلاج ثم تسير في الاتجاه المعاكس، استغربت مجيئها دون سيارتها ودون أن تُخبر أمينة لتتقابلا كما اعتادتا في كل مرة تجيء فيها صفية إلى بيت أمها، انتظرتُ حتى ابتعدتْ قليلا نحو نهاية الشارع ثم أكملتُ طريقي إلى البيت، فتحت المزلاج المُقفل من الداخل ودلفت، ومن أبعد أصيص ريحان في الشرفة التقطت المفتاح وفتحت، أشعلت الضوء وجُلت بنظري في الصالة الواسعة، كانت مرتبةً ونظيفة وتفوح في الجو رائحة المعطر الذي اعتادت حماتي أن تستخدمه، نفسه الذي كان عمي عبود يتذمر عندما ترشه زوجته زاعمًا أنه يجعله يعطس.

بدأت رحلة البحث من مكتبة التلفاز فقاطعني اتصال من أمينة، أخبرتني أن أباها ربما يعود إلى البيت بعد أقل من ساعة، وأن صفية هي من أخبرتها بذلك هاتفيا قبل قليل.

«لقد كانت في رحلة عمل فتعطلت سيارتها بالقرب من المدينة فقررتْ أن تمر على البيت في الساعات التي سيستغرقها التصليح، هاتفتْ أبي وأخبرته أنها ستطبخ له الأكلة التي يحبها وسألته إذا كانت عنده ملابس يود أن تغسلها له، المهم أنه أخبرها أنه إذا أنهى الطلبات التي لديه قبل الثالثة سيكون بوسعه ترك المطعم لمُساعده والعودة إلى البيت لتناول الطعام ساخنا، انتبِهْ وحاول أن تنتهي قبل الثالثة من باب الاحتياط، وإذا لم تستطع فعلى الأقل اختبئ عند وصوله حتى يغادر ثانيةً»

حدث غير متوقع عليَّ بسببه تسريع سير خطتي، أعدت الكتاب الذي كنتُ قد التقطتُّه إلى مكانه وغيرت نقطة البداية، توجهت إلى غرفة النوم الرئيسة، قالت أمينة أن أمها كانت دائمة الكتابة وتحتفظ بما تكتب في مكانٍ ما في غرفة نومها، أما أبوها فيحتفظ بأوراقه المهمة في خزنة المنضدة على يسار السرير ويغلقها بمفتاح، وأن بوسعي أن أصل إلى ما في داخلها إذا أخرجتُ الدرج الذي يعلوها ومددتُ يدي من خلال فراغه للأسفل، بدأتُ بتلك المنضدة فأخرجت الدرج ووضعته على الأرض ومددتُ يدي فلمستْ أوراقا ومعدنا باردا، بدأتُ بإخراج

محتويات الخزنة فأخرجتها جميعا سوى صندوق معدني مُربَّع لم يمر من فتحة الدُّرج، حاولتُ فتحه ولم أنجح، فخمنت أنه مغلق بمفتاح، جلستُ على طرف السرير أتفحص الأوراق، إيصالات خاصة بطلبيات للمطعم وإصلاحاتٍ فيه، ووثائق ملكية له وللسيارة ولأشياء أخرى قديمة، تفحصت الأوراق ثم أعدتُها إلى مكانها وأرجعتُ الدُّرج كذلك، نظرتُ في المنضدة اليمنى فلم أجد شيئا مهما، وكذلك تحت السرير وفي أدراج التسريحة، ثم فتحت خزانة الملابس وفتشتُها ضلفةً فأخرى بدقة، لم يكن في الضلفة الخاصة بعمي عبود شيء ذو بال، اللهم إلا سلسلة كلبه سلطان التي يحتفظ بها على الرف الأوسط بين قمصانه، سرت في جسمي قشعريرة عندما أعادت رؤية السلسلة منظر الكلب المشنوق إلى رأسي. وفي ضلفة حماتي كانت ملابسها منظمةً ومُطبَّقة وتفوح برائحتها بشكل غريب، التقطتُ إحدى جلاليبها البيتية وبسطتُها أمامي فصارت رائحتها أقوى؛ رائحةٌ حيةٌ كأن صاحبتها لم تغادر قط، طبَّقتُها كما كانت قدرَ الإمكان وأعدتُها فوق صف الجلاليب، أغلقتُ الضلفة وفتحتُ الأخيرة، وكانت رفوفها زاخرةً بملاءات سرير مُطرَّزة ومفارش كروشيه كثيرة ومناديل مُوشَّاة الحواشي، باختصار يمكن اعتبار هذه الضلفة خزانة تحف فنية من إبداع أمي حبهان ومهارة يديها في التطريز والغزْل، فتشتُ الأرفف كلها مُحاذرًا أن

أُفسد نظامها، وفي آخر رف أسفل الضلفة كان يقبع صندوق من ورقٍ مُقوَّى بُني اللون مختبئًا خلف عمود من الملاءات المُطبَّقة، أخرجتُه بحذر ورفعتُ غطاءه فوجدتُ فيه دفترًا بغلاف أسود وأوراقًا مختلفة الأحجام، قلَّبتُ فيها فأدركتُ أنها شهادات ميلاد أبنائها ورسومات طفولية لهم احتفظتْ بها وقوائم مشتريات قديمة ونتفٌ من خواطر متفرقة، رتبتُ عمود الملاءات كما كان وأغلقتُ الضلفة، ثم أعدتُ غلق الصندوق وحملتُه خارجا من الغرفة، كانت الساعة تشير إلى الثانية والنصف إلا خمس دقائق، وضعتُ الصندوق على منضدة في الممر بين الغرف واتجهت إلى غرفة إبراهيم، فتحتُ الباب فصرَّ صريرًا مزعجا، ومن مكاني استطعتُ أن أرى المشنفة المتدلية من السقف، كان منظرها مُقبضا وقذف فيَّ الرعب لوهلة، أجلتُ نظري في الغرفة من حيث أقف على الباب فلفت نظري أن كل أدراجها غيرُ مقفولة للآخر، سواء أدراج المكتب الثلاثة أو دُرجي المنضدة عن يمين السرير أو أدراج مكتبة الحاسوب، كان ذلك غريبا لأن هذه الغرفة ظلت مُغلقة لسنين من بعد موت إبراهيم، لم يكن يدخلها أحد سوى حماتي المولعة بالترتيب والمهووسة بالدقة من أجل تنظيفها وتهويتها من وقت لآخر، وإذا كان عمي عبود فقط هو من دخلها من بعد موتها -سواءً مرةً واحدة عندما وجد المشنقة أو عدة مرات- فليس سواه يمكن أن يترك الأدراج على

هذا النحو، لكن لماذا يفتحها أصلا؟! وشيءٌ آخر جنونيٌّ خطر ببالي؛ إذا صحَّ أن أمي حبهان ما زالت في البيت وتعيش حياتها بعاديةٍ مطلقة كأنها لم تمت، وهو -ويا للجنون!- ما تؤيده حالة البيت من حيث النظام والنظافة، فلماذا تركت هذه الأدراج على تلك الحال وهي المهووسة بضبط كل شيء مكانه بالشَّعرة؟!

نفضتُ رأسي كأنني بهذه الطريقة أتخلص من هذا المسار محافظا على صحة عقلي، أنا أعرفُ أن أمي حبهان ميتة، ولا ينبغي أن يجرَّني أي شيء أراه في هذا البيت إلى تصديق رواية عمي عبود عن أنها ما زالت هنا. فتشتُ بقية الغرف سريعا لاستبعادي أن أجد فيها شيئا مهما، ثم عدتُ إلى الصالة حاملا صندوق الأوراق، جلتُ ببصري في المكان وقلتُ لنفسي أن لا شيء يمكن أن أكتشفه في مثل هذا المكان من البيت، لكنني قبل أن أخرج لمحتُ ورقةً على المنضدة الصغيرة في آخر الطرف الأقصى من الصالة؛ حيث اعتادت أمي حبهان الجلوس على كرسيها المفضل، اقتربتُ والتقطتُ الورقة التي كان ينام فوقها قلم حماتي المرحومة، قربتُها من وجهي لأقرأ فوجدتُها قائمة بمُشتريات البقالة بخط يدها الذي أعرفه جيدا، سرتْ في جسدي رعدة خوف عندما وقعتْ عيناي على التاريخ المُدوَّن أقصى يسار الورقة من فوق؛ لقد كان تاريخ هذا اليوم!

تسمَّرتُ مكاني لثوانٍ ثم عندما انفكَّت قدماي هُرعت خارجًا من البيت والورقة في يدي مع الصندوق، أغلقتُ الباب بسرعة وأعدتُ المفتاح مكانه ونزلتُ درَج الشرفة متجها إلى البوابة الخارجية، عندها لمحتُ سيارة عمي عبود تتوقف أمامها وينزل ليفتح البوابة، اشتغل عقلي سريعا فركضتُ يسارا نحو المرأب واختبأت، سمعتُ صوت السيارة يقترب ثم تتوقف في المدخل المرصوف وسط حديقة البيت، كل شيء على ما يرام وعمي عبود أغلق باب السيارة ويتجه على ما يبدو بخطوته العجوز نحو باب البيت، ما عليَّ سوى الانتظار حتى سماع صوت إغلاق الباب ثم الخروج، في تلك الأثناء تذكرتُ دخولي المرأب قبل أيام وعثوري على القداحة فيها، جالت عيناي في الأرجاء حتى وقعتا على خط أحمر ينتهي بدائرة صغيرة على الجدار المطلي باللون الأبيض، اقتربتُ منه مدققا فاكتشفتُ أنه خط دم ينتهي بقطرة متخثِّرة، قريبا جدا من المكان الذي وجدتُ فيه القدَّاحة، أفزعني خاطر ومض في رأسي كالبرق، أسرعتُ خارجًا من المرأب نحو البوابة ومنها إلى الشارع، وحين وصلتُ سيارتي على بعد شارعين كانت أفكار كثيرة مرعبة قد تنامت في عقلي، وضعتُ الصندوق في الكرسي المجاور واتجهتُ بالسيارة إلى قسم الشرطة القريب، قلتُ حالما وقفت أمام الشرطي:

«أريد أن أُبلغ عن اختفاء أخي زوجتي، اسمه يوسف

يوسف أبو قاسم، صحافي فلسطيني يحمل الجنسية الأمريكية يقيم في دوليفارد ٢٠٢ بفيرفاكس، لا أستطيع التواصل معه منذ أكثر من يومين وأخشى أن زوج أمه، عبود إبراهيم حسنين، قد قتله».

المذكرات

أمي هي من سمَّتْني حبهان؛ لأنها حين حملتْ بي توحَّمتْ على حساء دجاجٍ مُنكَّهٍ بحبهان، نجح أبي في توفير الدجاج سبعَ مرات رغم شظف العيش، لكنهما لم يتمكنا من الحصول على ذلك التابل حيث كانا يعيشان في المخيم، ولهذا لم تُشبع أمي وحمَها وظلت مشغولةً به حتى نهاية حملها على غير عادة النساء في الوَحَم، وحين خرجتُ أخيرا من رحمِها بعد ولادة متعسرة قلبتِ القابلة شفتيها باستياء وقالت: «كل هذه الليلة الطويلة من أجل بنت!»، زجرتْها الجارة المُسنَّة بطرف عينها وسألت أمي التي كانت تهوي في النوم منهكة القوى: «ماذا ستُسمِّينها يا أم سليمة؟» فردت أمي بنصف وعي: «سأسميها حبهان»، فتبادلت المرأتان نظراتٍ حائرةً بين الشك في جديتها والإشفاق على وحَمِها الذي لم يُسَد، وبالفعل سُمِّيتُ حبهان.

لم أرَ فلسطين إلا من خلال حكايات جدي، وُلدتُ في مخيم تل الزعتر عام ١٩٦٠، ووحده من عاش في مخيم للاجئين سيدرك معنى أن تولد وتعيش لاجئا. منذ بدأتُ أُدرك ما حولي سمعت جدي يقص أيام بلدته السِّنديانة، يتكلَّس الحنين غصةً عنيدةً في حلقه فيخرج صوته متهدجا يغالب البكاء، يذكر طفولته وصباه وشبابه، وكيف تزوج جدتي التي أحبها ولم يبلغ بعدُ ثمانية

عشر عاما، ويعدد أسماء أصحابه وجيرانه ومصائرهم كأن سِيَرهم إثبات هوية، ثم يصل إلى ذلك اليوم الذي دخل فيه اليهود القرية فتتشرَّس ذاكرته وتهاجمه بأدق التفاصيل، يحكي عن أمه وأبيه وزوجته وثلاثة إخوة وابنَين رآهم جميعا مقتولين، وعن جثث الأقارب والجيران والأصحاب مُلقاةً في الطرقاتِ كالأجولة الفارغة، يقول في نوبة حكيٍ يومية:

«قالوا لنا إما الخروج أو القتل كما قُتل الآخرون، وعندما سألنا أين نذهب وهذا بلدنا اختاروا أكثر الشباب وسامةً من بيننا وصفُّوهم إلى الجدار وأطلقوا النار على رؤوسهم، أعادوا الجملةَ ثانيةً: إما الخروج أو القتل، فخرجنا؛ قلنا نمشي الآن بدل أن يقتلوا أبناءنا جميعا وسنعود حتما فيما بعد لأن هذه بلدتنا، أرضنا، بيوتنا، وليس معقولا أن يُخرجونا من بيوتنا في وضح النهار ويستولوا عليها ولا نستطيع العودة إليها»

ويُجيل نظره بيني وبين إخوتي ويسأل:

«ليس معقولا؛ أهو كذلك؟»

فننظر إلى بعضٍ ولا ننطق. ظل جدي يطرح السؤال نفسه كل يوم طوال ثمانية وعشرين عامًا حتى بُحَّ صوته وضعف نظره، ومات وهو يطرح السؤال ويستبعدُ ألا ينتهي به الأمر وبكلِّ المُهجَّرين عائدين إلى بلادهم.

يقول بصوت متردد:

«كان لي أخٌ يصغرني بعامين، جدُّكم سعيد، كان شابًّا ما أحلاه، تركنا على الطريق بعد يومين وأصر مع عدد من الرجال على العودة إلى القرية، لم نستطع إقناعهم بالعدول ولا تصبيرهم بتغير الحال بعد أن يهدأ الوضع، رجعوا وأكملنا طريقنا، فقط من خلال الصحف عرفنا بعد أسابيع أن اليهود أطلقوا عليهم النار»

يتنهد جدي ويُجيل في الحجرة نظرة أليمةً ويُكمل:

«أسكنونا هنا مع العائلات المُهجَّرة من القرى الفلسطينية الأخرى، قالوا لنا: لفترة مؤقتة حتى يهدأ الوضع وتعود الأمور إلى نصابها، وفي الفترة المؤقتة كبُر المخيم وتكاثر الناس، وهدأ الوضع لكن لا الأمور عادت إلى نصابها ولا نحن عدنا إلى البلاد، ومن تسلل إلى فلسطين بعد سنوات عاد ليخبرنا أنهم هدموا السنديانة ولم يبق من بيوتها إلا أطلال حزينة، وأن العائدين إلى فلسطين يعودون كأغراب حسب قانون اليهود الجديد، أولاد الكلب يسخرون منا؛ يقولون لنا: الفلسطيني الذي يعود من لبنان بعد عام أو عامين لا يعود من أهل فلسطين، ونحن الذين جئنا من كل بقاع الأرض بعد ألفي سنةٍ أصحابها ومواطنوها»

تحاول أمي المنشغلة في تنظيف البيت أو إعداد الوجبة تهدئته من مكانها حتى لا تنتهي حكاية كل يوم بنفس

النهاية؛ البكاء حتى حرقة العينين ووجع القلب، تقول له بنبرة مُشفقة دون أن تترك ما في يدها:

«هوِّن عليك يا عمي، اترك في جسمك بعض الصحة للعودة!»

فيتنهَّد جدي ويتحمس للحكاية من جديد ولكن هذه المرة عن خيرات البلاد، يعدنا بجولاتٍ ممتعة في مزرعته حين نعود، ويصف لنا لذة ثمارها وسعة دارنا في القرية وكيف تُحيط بها أشجار الزيتون والبرتقال والصنوبر وكروم العنب، يقول بمزيجٍ من الحسرة والأمل:

«لا تنظروا إلى ضيق عيشنا الآن، لقد كانت لنا في دارنا غرفة مؤونة لا ينضب منها الخير؛ أجولة طحين وأرز وجِرار عسل وزيت زيتون والكثير من الزعتر المجفف واللحم المُملح»

نتبادل النظرات ويزدرد كلٌّ منا ريقه، ومن مكانها تترجاه أمي فيصمت؛ لا حفظًا لصحته هذه المرة ولكن حتى نستطيع أن نأكل غداءنا الهزيل المكون من باذنجان مقلي وخبز لا يخلو معظم الوقت من الحصى أو شوائب غير معروفة.

هكذا كان لسان جدي طَلقا بالحكاية، لا عمل له طوال النهار سوى أن يتكلم ويتكلم باكيًا مرة وضاحكا مرة، ونحن نُدلك قدميه اللتين لم تعودا قادرتين على المشي

ونستمع للقصص التي صرنا نحفظها عن ظهر قلب، وأمي كانت تكتفي بالتهوين عليه عندما توشك الحكاية أن تقتله كمدا وبمحاولات إيقافه في الأوقات التي يخبرنا عن ملذات لم نجربها من قبل.

«يا عمي لا تحسّر العيال على حالهم، سيتمرّدون على عيشتهم!»

كانت ترجوه، وعندما نسألُها أن تحكي لنا عن قرية السِّنديانة -التي صارت قريتنا نحن أيضًا كما يتمسك طفل بائس بحلم جميل- ترد بلا اهتمام أنها كانت طفلةً لا تعي شيئا، وأفكر أنني في الثامنة من عمري -سنها حين خرجت من القرية مع عمها الذي صارت كنَّتَه فيما بعد- أعي أشياء كثيرة جدا، فأخمن أن أمي لا تريد أن تتباسط معنا بفعل الحكاية، كانت صارمةً وقوية، ولم تكن تعرف طريقة أخرى سوى الصرامة والقوة لتربي أربع عيالٍ في مخيم لاجئين تنضمُّ جنباته على كل ما يمكن أن يُفسد الأبناء، وكان يُخيَّل إليَّ وأنا طفلة أن أمي خُلقت من الحجارة التي قُدَّت منها الجبال، لكن عقلي الطفل لم يفلح قط في تفسير صوت بكائها الخافت في الليل، فقط عندما كبرت أدركتُ أنها حتى لو كانت طفلةً في الثامنة فلا يمكن أبدا ألا تعيَ مأساةَ رؤية أهلها يُقتلون.

أما أبي فلا كان يحكي في النهار مثل جدي ولا كان يبكي في الليل مثل أمي، كان مشغولا عن الحنين

بمحاولاتٍ مُضنية لنحتِ الخُبز من الصخور الصلدة التي يعمل في تكسيرها في محجرٍ خارج المخيم، يخرج في السادسة صباحا ونحن نيامٌ ويعود بعد العشاء ونحن على وشك النوم، وعندما كنا نشتاق إليه كنا نجاهد في مقاومة النعاس لننتظره كي نجلس في حضنه المضمّخ بالتراب والعرق دقيقةً أو دقيقتين، كان صموتًا ننتزع الكلام منه انتزاعا، وحين يتكلم يقول:

«انتبهوا إلى دروسكم حتى تجدوا وسيلةً أقل عذابًا لتوفير الخبز»

فننظر أنا وأختي إلى يديه المشققتين ونكتم دموعنا، ونُقلع لأيام عن التذمر من تكرار الخبز والباذنجان المقلي في وجبة الغداء حتى ننسى فنعود للتذمر من جديد، لكن ما لم ننسَه أنا وأختي الكبرى هو أن علينا أن نجدَّ في المدرسة، ورغم الفقر المُدقع الذي كنا نُكابده تفوقنا، وأحبَّت هي العلوم والأحياء بينما شغفني الأدب واللغة، صحيح أن هذا التفوق لم يرفعنا من مرتبة اللجوء المتدنية وما تفرضه من نظرة أهل البلاد لنا، لكنه كان طوق نجاتنا مما نحن فيه، أو هكذا كنا نأمل على الأقل.

كانت الحياة صعبة، لكن طفولتي لم تكن تعيسة تمامًا رغم ذلك، وفي ذلك الواقع البائس استطعتُ أن أجد كثيرا من المتعة في ملاعبة أخويَّ الصغيرين برسم قريتنا

-المُتخيلة بالطبع- على جدران البيت، وفي مشاكسات قطي العزيز زعتر، وهو قط مدلل للغاية وجدته ذات يوم شتائي ماطر في طريق عودتي من المدرسة، وكان يعاني من جرح في قدمه كسرَ خطوتَه تحت ذلك المطر العنيف، عندما رآني تبعني بعرَجٍ كأنه كان في انتظار إنسانٍ ليتبعه، وبعد خطوات عندما أدركت أنه يتبعني حملته في حقيبة المدرسة. ضمدتُ قدمه وخبأتُه عن أمي بصعوبة حتى الصباح التالي، وعندما اكتشفته في الفجر وكزتني فاستيقظتُ من النوم متسائلةً إن كنتُ تأخرتُ عن المدرسة، لكننا كنا يوم الجمعة، سألتني عن القط ووبختني وطلبت مني إرجاعه من حيث جلبتُه، بكيتُ وأنا أخبرها أنه مُشرد وأطلب منها السماح له بالبقاء، رقَّ لي أبي الذي كان يتجهز للخروج إلى عمله فأخبرها أن لا بأس بإبقائه بشرط أن أهتم بنظافته وأحرص على ألا يُخلِّف أي قذارة، وكانت تلك من أحنِّ اللفتات التي ما زلت أذكرها لأبي، وكلما ذكرتُها تذكرت أنه خرج للعمل يوم الجمعة -إجازته- من أجل بضعة قروش زيادة لشراء حذاء لي بدل حذائي الذي اهترأ، رغم أن حذائه كان أشدَّ اهتراءً، وما ذكرتُ ذلك إلا وداهمني بكاء مر وتساءلت كيف كان حمولًا إلى ذلك الحد في مواجهة كل ما عاناه من بؤسٍ ومواجع.

استيقظ أخواي الصغيران صباحًا ففرحا كثيرا بالقط ذي الفرو الكثيف الأبيض الناعم والعينين الزرقاوين، انشغلا

باللعب معه ساعاتِ النهار بينما كانت أختي الكبرى سليمة تقلب شفتيها امتعاضا منحازة لموقف أمي من القط، لم أهتم لذلك ما دام في حوزتي صك الرضى من أبي، وبمرور الأيام والأسابيع والشهور توطدت صداقة عميقة بيني وبين القط الذي أسميته زعتر، وأدخل إلى قاموس عاداتي عاداتٍ جديدةً كتنظيف فروه وتقليم أظافره، وعرفتُ جمع بقايا شطائر التلميذات في المدرسة سرًّا من أجله، كنا فقراء ونعاني، ولكني شعرتُ بمسئولية تجاهه وأخذت على نفسي عهدا ألا أتركه يجوع أو يحزن، وكان من ناحيته يكافئني بالمواساة في أوقاتي الصعبة بالتمسُّح فيَّ ومعانقتي، وفضلًا عن أخويَّ الصغيرين اللذين تعلقا به فقد أحبه جدي كذلك وتعهّده بالملاطفة والمسح على ظهره كلما اقترب منه القط، وشاركَنا الاستماع إلى قصص جدي كل يوم هازًّا ذيله من وقت لآخر، وهي العلامة التي طالما ردد جدي بحماس أنها تفاعلُ الحيوان الطيب القلب مع حكاياته الحزينة، فتعترض أمي وتقول أنه قط: «بالطبع سيهز ذيله ولا علاقة لهذا بحكاياتك يا عمي»، وكان يجيبها مُغضبا: «ما أفهمكِ أنتِ؟ أممٌ أمثالنا هذه الحيوانات يا قليلة الفهم، بالطبع تُحس بالإنسان ليست مثلك»، فتزفر أمي وتؤثر الصمت ويبالغ جدي في الربت على القط، وأتضامن معه وأردد أنني سأصطحب زعترًا معي حين نعود إلى بلادنا، فيهلل جدي فرحًا: «بالطبع سنأخذه،

لقد أصبح من العائلة، بالطبع لن نتركه خلفنا!»، فأحتضن القط الذي يقفز بين ذراعيَّ وأعيد عليه وعدي ووعد جدي باصطحابه.

عندما حاصرت القوات المسيحية المارونية مخيم تل الزعتر في بداية عام ١٩٧٦ لم أكن قد بلغت السادسة عشرة بعد، لم أفهم تماما أسباب الحصار ومع ذلك عانيتُ تبعاته مع عائلتي، فمحاصرة أناس يتحصلون على قوت يومهم بالكاد تعني أنك تتعمد قتلهم بالجوع تحت ذريعة حربك مع المقاتلين الفلسطينيين المتحصنين في المخيم، ثم بدأت الميليشيات اللبنانية قصف المخيم في يونيو ١٩٧٦ تمهيدا لاقتحامه، لكن كثيرا من السكان قضوا حتفهم من الجوع لا من القصف، وكان من بينهم جدي سعد، مات جائعًا وهو يردد بصوت منهك: «هل سأموت هنا؟ كان عليَّ أن أعود إلى السنديانة!»، ويغيب عن الوعي ثم يعود ليردد وهو يبكي قهرا: «آهٍ أيها العالم ابن الكلب، هل يموت سعد الذي عصر زيتون البلاد وحصد قمحها جوعًا في نهاية الأمر بينما يستمتع الأغراب بخير أرضه؟ آهٍ أيها العالم ابن الكلب!» ثم يغيبُ ثانية، وفي صحوةِ موت يجمعنا أنا وإخوتي وأبي وأمي ويوصينا، يعطي لأبي مفتاح داره الذي ظل محتفظا به لثمانية وعشرين عامًا في مخيم اللاجئين ويقول له في سخرية مريرة ودموع: «المفتاح معى لكن الدارَ ليست معى»، يُقسم علينا ألا ننسى

البلاد التي جئنا منها وألا نكف عن محاولة العودة، وكأكثر من كان يسمتع إلى حكاياته ويسأله عن شكل البيوت وعدد أشجار الزيتون وكروم العنب يضع كفه المرتعشة على كفي ويُحلِّفني ألا أسمح لنفسي بنسيان ما قصَّه عليَّ، وأن تظل في قلبي وعقلي قريةٌ اسمها السنديانة من قضاء حيفا جنوب جبل الكرمل، وأن أقرأ الفاتحة على روحه عندما أعود إلى داره هناك، أعدُه وأُقسم بصوتي المبحوح من الجوع، وتخرج روح جدي بعدها دون أن تترك لنا المجاعة دموعًا في المآقي من أجل هذه اللحظة.

بعد موته بأيام نُصاب أنا وإخوتي بإعياء شديد يُرقدنا في الفراش، تنهدُّ قوتنا وقوة القط فنتكوم في الأركان نبكي ويموء بضعف، تذرع أمي الغرفة باكيةً من قلة الحيلة، أسمعها تقول لأبي: «العيال يموتون من قلة الأكل، لم يدخل جوفهم طعام منذ أيام»، ولا يحير أبي جوابا. في تلك الليلة توقظنا وهي تردد بإشفاق مشوبٍ بالانفعال: «قوموا يامًا، قوموا كلوا يا نور عيوني»، ننهض متثاقلين من شدة الإعياء وتخطئ أيدينا الصحن الذي تفوح منه رائحة اللحم الشهي فتُلقمنا أمي النسائر في أفواهنا، نمضغ بشراهة كأننا نمضغ الحياة التي كانت مستعصية علينا طوال الأسابيع والشهور الماضية، نمتلئ ويَفرغُ الصحن، نعُبَّ الماء ثم نستلقي من جديد في الفراش، وحين أستيقظ اليوم التالي أبحث عن زعتر ولا

أجده، أسأل أمي فتُشيح بوجهها كأنها لم تسمعني، أسأل أختي سليمة فتنحدر من عيناها دمعتان كبيرتان، وأفهم أن ما أكلناه ليلا كان القط، فأنطرحُ في الفراش من جديدٍ مُصابة بالحمى، وأغرق في هذيانات مروعة عن لحظاته الأخيرة، كيف انتزعته أمي من فراشي لتذبحه، كيف استغاث بي بوهنٍ من أمي التي لا تحبه لكني لم أنتبه له، وكيف استسلم أخيرا للسكين وانتهى به الأمر مسلوقًا في صحن العشاء، تُعييني الخيالات فتشتدُّ عليَّ الحمى، ويخشى عليَّ أبي فيحملني بعد منتصف الليل إلى مستشفى المخيم غير واعيةٍ بشيء.

في الساعة الثالثة من تلك الليلة بالذات اقتحمت الميليشيات المخيم وارتكبت فيه مذبحة، عندما سمع أبي خبر دخول الميليشيات إلى حارتنا تركني في المشفى ورجع راكضا، لكن كان الأوان قد فات، وعاد في منتصف النهار بوجه مغسول بالدموع بعد دفن أمي وأختي سليمة وأخويَّ الصغيرين عليًّا وسعيدا، والتصق بجانبي مثل طفل يتمسك بآخر من بقي من أهله، ومهما حاولتُ استنطاقَه وبكيت لم يخبرني بما فعلته الميليشيات في أمي وإخوتي، لكنني أراهم كل ليلة في منامي وجنود الميليشيات يذبحونهم بالسكاكين، ومن بين كل ما تحمله ذاكرتي من حكايات البلاد والمخيم والتهجير والغربة هذا فقط ما أحاول أن أنساه؛ منظر إخوتي وأمي وهم يُذبحون، ولا أُفلح؛ لأن الطب لم يخترع

بعد دواءً لحذف الذكريات المؤلمة.

***

لم يستطع أبي البقاء في تل الزعتر بعد مقتل أمي وإخوتي وموت أبيه جوعا، كان مقهورا وحزينا، وما قهره وأحزنه ليس أن الفلسطينيين يموتون؛ فلقد حدث هذا ويحدث في وطنهم وعلى أرضهم، بل السبب الذي يُقتلون لأجله هذه المرة، إنهم يقتلوننا كما لو كنا حشراتٍ متطفلة؛ فقط لأننا نريد استرجاع أرضنا، كان أبي يقول أن الصهاينة وحكومة لبنان تكاتفا ضدنا؛ الحكومة لأن تعداد الفلسطينيين كان يزداد ويشكلون قوة ضاغطة ومؤثرة في القرار السياسي، والصهاينة لأن جيش منظمة التحرير الفلسطينية الذي يقيم في المخيمات كان يشكل تهديدا لهم، لم أفهم ساعتها كيف يمكن أن يتعاون عرب مسلمون مع أعدائهم من أجل إبادة إخوانهم، كنتُ أُجهد عقلي في تذكر ما درستُه حتى ذلك الوقت، لا التاريخ فسَّر لي شيئًا ولا الجغرافيا أعطتني أجوبةً مقنعة.

لم أعرف كيف توصل أبي إلى المهربين ولم أستوعب ذلك، لكنه اتفق مع أحدهم على أن يحملنا -أبي وأنا- في سيارته ذات الصندوق الضخمة التي تنقل الكيروسين إلى تل الربيع، والتي عرفتُ أن اسمها أصبح تل أبيب منذ سنوات طويلة. في إحدى الليالي أيقظني أبي بصوتٍ هامس، كنا ساعتها نقيم مع لاجئين آخرين في

مبنى مدرسة البنات، أخبرني أن أغسل وجهي وألبس ثيابي لأننا سنرحل، لم أفهم شيئا ولم أسأله، ليس لأني كنت زاهدةً في معرفة وجهتنا، ولكنني كنت قد فقدتُ القدرة على الكلام منذ أكلتُ من لحم قطي زعتر، وزاد الأمرَ سوءًا معرفتي بمقتل أمي وإخوتي. أسرعتُ بغسل وجهي وارتداء ثيابي، وكان أبي قد حزم أغراضنا القليلة في كيس واحد، وخرجنا معا نتسحَّب على أطراف أصابعنا بعد منتصف الليل، مشينا لساعتين أو أكثر حتى اهترأت قدماي، وعندما وصلنا إلى موقِف الشاحنات المقصود انقبض قلبي فضغطتُّ على كفِّ أبي التي كنت أُمسك بها كآخر ما تبقى لي في الدنيا، شعر بقبضتي فقال لي: «لا تخافي، سنذهب إلى بلادنا»، ورغم أني لم أرَ تلك البلاد قط ولا عشتُ فيها فقد شعرتُ بالطمأنينة، كنتُ أعرفها من حكايا جدي عن البيت الكبير ومزرعة الزيتون وأشجار الصنوبر والبرتقال وبحبوحة العيش وجمال البلاد وكروم العنب، وكنت أعرف أن كل ما نحن فيه من شظف ومعاناة هو بسبب بعدنا عن البلاد، ابتسمتُ لأبي؛ ربما لأول مرة منذ شهور.

بعد محادثةٍ قصيرة مع أحد الرجال الذي بدا لي مريبا بشاربه الكث ونظراته غير المريحة أجلسني أبي على الرصيف القريب وجلس بجانبي، أخبرني أن علينا الانتظار لبعض الوقت، وظللنا صامتين لساعة أو أكثر

قبل أن نرى رجلًا وامرأة وولدين قادمين من بعيد، خمنت أنهم أيضا عائدون إلى البلاد، وشعرتُ بسبب ذلك بآصرةِ قربى تربطني بهم، فالعائدون إلى البلاد نفسها أقرباء حتى لو كانوا غرباء. اقترب الرجل من أبي وخلفه المرأة والولدان، بدأ توتر غير مفهوم يكسو وجه أبي، حتى توقف الرجل على بعد ذراع منه، ثم سأله: «هل تعرف أين أجد أبا أسعد يا أخي؟»، رفع أبي وجهه إليه، حدَّق أحدهما في وجه الآخر لحظاتٍ مرت بطيئة جدا، ثم انتفض أبي من مكانه كالملدوغ وهتف بالرجل:

«صادق منصور أبو قاسم من أم الشَّوْف!»

تهلل وجه الرجل وهتف به:

«وأنتَ صالح سعد العليا من السِّنديانة!»

ثم التحما في عناق طويل وهما يتمتمان بعبارات الشوق والمحبة، ولم ينفكَّا إلا لينظر أحدهما في وجه الآخر من جديد كأنما ليتأكد من جدية القدر الذي فرقهما في البلاد وجمعهما في المنفى. قال الرجل غيرَ مُصدّق:

«لقد مرت ثمانية وعشرون عامًا يا أخي!»

«على النكبة؟»

سأله أبي بمرارة، فابتسم الرجل وأجابه:

«على آخر مرة رأيتُك فيها»

هز أبي رأسه مرارا، وتذكر الرجل أنه ليس وحده فأشار إلى مَن خلفه وقال:

«هذه زوجتي أم صالح، وهذان ولداي صالح ويوسف، سميتُ صالحًا باسمك»

نظر له أبي نظرة تفيض امتنانا وحبا، سلَّم الولدان عليه وأمرهما أبوهما بتقبيل يد أبي، حاول أبي منع ذلك لكن صاحبه أصر وقال له:

«دعهما يقبلان يدك يا صالح، هذان الولدان كبُرا في الغربة ولم يعرفا عمًّا ولا جدًّا، ليس كثيرا إذا التقيا صاحب أبيهما وأخاه ورفيقه من أيام البلاد التي لم يرياها أن يُقبِّلا يده كما على الأبناء أن يُقبِّلوا يد العم»

طفرتْ من عيني أبي الدموع ولم ينبس بينما تناول كلٌّ من الولدين الكبيرين كفًّا وقبلها، سأل الرجل أبي وهو يُشير إليَّ:

«ألن تُعرِّفنا بهذه الصبية الحلوة؟»

شعرتُ بالخجل فأطرقت، وقال أبي بفخر:

«هذه ابنتي حبَّهان»، ثم أضاف بنبرة خفيضة متألمة: «آخر من تبقى لي من عيالي وأهلي، ماتت أمها وإخوتها في المجزرة، ومات جدها أثناء الحصار»

ربت على كتف أبي مواسيًا وقال له:

«أحسن الله عزاءك فيهم وبارك فيها وعوضك خيرا»

هز أبي رأسه مرارا، بينما خاطبتني المرأة بقولها:

«كم عمرك يا ابنتي؟»

لم أُجبها، فقال أبي معتذرا:

«لا تؤاخذينا يا ست أم صالح، البنت فقدت القدرة على الكلام منذ موت أمها وإخوتها، لم تنطق حرفًا منذ شهور»

هتفت وهي تخطو الخطوتين اللتين تفصلانها عني وتحتضنني:

«قلبي يا ابنتي!»

أعاد لي ذلك الحضن ذكرى الدفء الذي كنت قد نسيته، ومنذ تلك اللحظة ستُصبح خالتي أم صالح حجر الأساس في استقرار حياتي الجديدة، وبشكل لم أكن سأدركه إلا بعد سنين ارتبط بها مصيري إلى الأبد.

بعد تبادل التحايا وإشباع الشوق سأل عمي صادق أبي:

«أنت أيضًا تُريد مغادرة لبنان؟! الحق أن العيش هنا لم يعد ممكنا، شيء يقهر يا أخي!»

أومأ أبي بحسرة ثم قال:

«سأعود إلى فلسطين، سأرجع إلى السنديانة بأي

طريقة، حتى ولو عملت أجيرًا في أرض أبي، الذل في أرضك خير من الذل في أرض الغريب»

رد عمي صادق باستغراب:

«ماذا تقول يا صالح! أي بلاد وأي أرض ستعود إليها يا أخي؟! هل أنت مضروبٌ على دماغك؟ أتظنهم سيسمحون لك بالعودة؟ ثم أين تلك البلاد؟! لم يبقَ منها شيء! ألم تكن تقرأ الصحف طوال تلك السنين؟ لقد هدموا السنديانة وأنشأوا مكانها مُستوطنًا لأشتاتهم التي لا يعرف إلا الله من أين جاؤوا، غادرتْ قريتك مكانها منذ زمن يا رجل وأنتَ ما زلت تقول البلاد! وأم الشوف أيضا ذهبتْ وحلت محلها مُستوطنة يهودية!»

كان أبي يحدق فيه مشدوها، لا أعرف أمِنْ نبرته الغاضبة أم من الحقائق التي كان يتحاشاها طوال تلك السنين فصُبَّتْ على رأسه فجأةً كدلو ماءٍ بارد في ليلة شتوية، وعندما نطق أخيرا سأله بصوت مُستغرب:

«ألستَ ذاهبًا إلى البلاد؟!»

أجابه عمي صالح بنبرةٍ أكثر استغرابا:

«لا طبعا! أي بلاد يا أخي! الله يرحمها!»

«إلى أين أنتَ ذاهبٌ إذًا؟ لم جئتَ إلى هنا؟!»

«جئتُ إلى رجلٍ سيأخذني وعائلتي إلى بيروت، سنركب

البحر إلى إيطاليا»

أطرق أبي وسكت طويلا، فقال عمي صادق بمرارة:

«البلاد التي تركتَها لم تعد هناك يا صالح، راحت، والذين حاولوا العودة إلى فلسطين إما قُتلوا أو سُجنوا أو عاشوا عيش الأغراب في وطن لم يعد لهم يا أخي»

احتج أبي:

«الغريب لا يصير صاحب الأرض بقوة السلاح يا صادق، تلك بلادنا!»

فرد عمي صادق:

«لم يصيروا أصحابها لكنهم أخذوها بقوة السلاح، وحتى تعود إليها يلزمك سلاح، ما أخذتْه منك الأسلحة لا يُعيده لك الدخول مقرفصًا في شاحنة تهريب بضائع»

رد أبي بحدة:

«وما العمل إذًا؟ هل أعيش ذليلًا في أرضٍ لا تقبلني منتظرًا أن تنبت الأسلحة والجيوش في بلاد العرب؟ أم أركب البحر الغدَّار إلى بلاد لا أعرفها ولا أفهم لغة أهلها؟»

أجابه عمي صادق:

«تتخلى عن خططك الساذجة وتفتح عينيك وتنظر إلى

الواقع، لا تخاطر بنفسك وبابنتك من أجل حلم مستحيل التحقق وبسالةٍ لا جدوى منها للبلاد ولا لك، لن تكسب البلاد شيئا بتسلُّلِكَ إليها مثل اللصوص وأخذك رصاصةً بين عينيك عندما يكتشفك جنود الاحتلال على الحدود»

حاول أبي أن يرد لكنه لم يجد شيئًا ليقوله، فأردف عمي صادق:

«تعالَ معي يا صالح، سنذهب إلى إيطاليا عن طريق البحر ومن هناك سنركب طائرةً إلى أمريكا، لقد تلقيت رسالةً من أحد أبناء عمومة أبي، إنه رجل ميسور يمتلك مصنعًا للأغذية المُعلبة هناك، وعدني أن يساعدني لأستقر في ذلك البلد، تعالَ معي من أجل ابنتِك هذه ومن أجلك ومن أجلي، ما صدَّقتُ أن أجد أخًا وصديقًا من رائحة الأهل وأيام البلاد، تعالَ لنكمل الباقي من العمر معا ونشعر أننا ما زلنا نحن رغم كل ما حدث!»

قال أبي بمرارة:

«وهل سنشعر أننا ما زلنا نحن في تلك الأرض البعيدة التي لا تعرفنا ولا نعرفها؟»

رد عمي صادق:

«على الأقل سنعيش فيها كما نعرف أنفسنا، سنشتغل ونَكِدُّ ونُربي عيالنا دون ذل ودون أن نسمع عبارات الطرد ألف مرة في اليوم، إذا كانت الغربة مكتوبة علينا فلتكن

في بلد لا نُمتهن فيه يا أخي»

قال أبي بتهكم:

«وأمريكا هي البلد الذي لن نُمتهَن فيه؟!»

لكن عمي صادق أجابه دون أن يُبالي بنبرته المتهكمة:

«أخبرني ابن عم أبي أنه سيساعدني على الاستقرار هناك، عنده مصنع معلبات ويُعتبر من الأثرياء، وطمأنني بأن وضع العرب هناك مختلف تماما عن الأوضاع في مخيمات اللاجئين»

لم يكن ذلك صحيحا تماما، وسأعرف أنه ليس كذلك بعد سنوات بأكثر الطرق إيلاما. وافق أبي على مضض أن يصحب صديقه رغم أنه لم يكن يمتلك ما يكفي من المال لهاتين الرحلتين، استطاع بالكاد أن يستعيد نصف ما دفعه لسائق الشاحنة الذي اتفق معه أن يحمله إلى فلسطين، أعطى تلك النقود الهزيلة والقليلَ الذي كان يملكه لعمي صادق بخجلٍ تاركا له مهمة تدبير كل شيء، وكنتُ أعرف أن ذلك المال الذي لا يُذكر لن يُساعد شيئا في سفرنا الطويل الذي كنا مقدمين عليه، لكن عمي صادق أخذه منه بحفاوة وعانقه فرحًا بهذا الأخ القديم الذي وجده أخيرا بعد سنين طويلة.

سرى ذلك البِشر في كل الحاضرين بمن فيهم أنا، وأمسكت خالتي أم صالح يدي بين كفيها جذلةً دون أن

تقول شيئا. ركبنا سيارةً انطلقت بنا إلى بيروت، وشعرتُ في تلك الليلة أن حياةً جديدة على وشك البدء.

-١٠-

إلياس

كنت جالسًا في مكتبي مع الأوراق عندما قطع قراءتي رنين الهاتف، كانت المكالمة من قسم الشرطة، طلبوا مني الحضور لاستجوابي بعد أن أخبرهم حمايَ أنني أتولى التحقيق في أمر زوجته الميتة.

قُدتُ حتى قسم الشرطة وأنا أتسخط عليه؛ الآن وبسببه عليَّ أن أفسِّر لهم لماذا أحقق في وجود شبح امرأة ميتة في بيتها، وألوم نفسي كيف لم يخطر لي أنه سيفعل وكيف لم أستعد لسؤال كهذا قبل تقديم شكوى ضده. عندما دخلتُ مكتب الشرطي كان عمي عبود جالسا أمامه، ما إن رآني حتى انهال عليَّ بسبابه المُقذع، أمر الشرطي بإخراجه من الغرفة ولم ينقطع صوته رغم تحذيرهم إياه بالحبس. التفت لي الشرطي عندما انغلق الباب خلف العجوز سليط اللسان وقال لي بنبرة بدت لي ساخرة:

«أخبرنا والد زوجتك أنك محقق خاص وزعم أنه طلب منك التحقيق في وجود زوجته المتوفاة في البيت»

حاولت ألا أبدي انفعالي وأنا أقول:

«ليس كذلك تماما، أنا أحقق بالفعل ولكن في أشياء غريبة تحدث في ذلك البيت، والد زوجتي يزعم أن زوجته

الميتة هي من يفعلها، ولأن هذا غير ممكن بالطبع فأنا أحقق في الأمر لمعرفة سبب ما يحدث»

اعتدل الشرطي في مقعده وسألني باهتمام:

«أشياء غريبة من أي نوع؟»

«قبل أيامٍ مثلا وجد كلبه العجوز مسمومًا ومشنوقًا على باب البيت، وبصرف النظر عن أنه مقتنع بأن زوجته ما زالت تعيش معه وبأنها من تفعل ذلك كله فإنني كلما ذهبتُ إلى البيت وجدتُه مرتبا كما كانت حماتي تفعل بالضبط، المطبخ عابق برائحة طبخها، دجاجها في القن مُعتنى به بشدة دون أن نعرف من يعتني به، تكلف ابنتُها عاملة التنظيف في المدرسة التي كانت تُدرِّس فيها بتنظيف البيت يوم العطلة فتسقط العاملة في الحمام وتكسر ساقها وتذهب دون عودة، وعند سؤالها تقول إن السيدة حبهان داهمتها من الخلف وهي تُنظف حوض الاستحمام وأمرتها أن تشتغل بإتقان أكثر...»

يقاطعني سائلا باستغراب:

«وهل تصدق هذا كله؟»

«لا أصدقه بالطبع، ولأنني لا أصدقه أحقق في الأمر لأعرف سبب هذه الأشياء التي تحدث...»

يسألني:

«وهل توصلت لشيء؟»

أهز رأسي نافيًا:

«ليس بعد». ثم بتردد أُخرج ورقةً مطويةً من جيبِ سُترتي وأُناوله إياها، يفتحها بنظرة متسائلة فأشرح:

«وجدتُها قبل ساعات على منضدة غرفة المعيشة في بيت والدة زوجتي»

يقول وهو يتفحص الورقة:

«قائمة مشتريات بقالة، ما الغريب في الأمر؟»

«بخط حماتي، انظر من فضلك إلى التاريخ في أعلى يسار الورقة»

تذهب عيناه حيث أشرتُ ويقرأ:

«٣ أكتوبر»

ينظر إليَّ نظرة شكٍّ فأومئ وأقول:

«تاريخ اليوم، اعتادت حماتي على تدوين مشتريات البيت على نفس نوع الورق منذ أكثر من عشرين سنة، لقد رأيتُ ذلك بنفسي أكثر من مرة من قبل»

ضيَّق الشرطي عينيه وهو يحدق في الورقة التي ما زال يُمسكها، صاح بإنجليزيتِه ذات اللكنة الأمريكية:

«يا إلهي! لا تخبرني أن تلك المرأة هي من كتبت هذه

الورقة قبل ساعاتٍ حقا!»

سكتُّ هنيهةً ثم أجبته:

«ليس هذا ما أعتقده، لكن بالتأكيد هناك من كتبها وتركها هناك، لا أعلمُ من قد يكون ذلك الشخص لكن ما من تفسير آخر ممكن»

ساد الصمت لحظاتٍ ثم قطعتُه قائلا:

«على العموم ليس هذا موضوعنا على ما أظن يا حضرة الشرطي»

أومأ برأسه كأنه انتبه للتو أن هناك موضوعا آخر استدعاني من أجله، مدَّ لي يده بالورقة فتناولتُها وأعدتُها إلى جيب سترتي، سألني:

«لقد تكلمنا في هذا بالفعل قبل ساعات لكنني أريد أن أسمع منك مرةً أخرى، لماذا تعتقد أن حماكَ قتل ابن زوجته؟»

«حسنًا، قبل أيام عندما هاتفني ليخبرني بمقتل كلبه أسرعتُ إلى هناك، وأثناء بحثي في حديقة البيت وجدتُ قدَّاحة يوسف في المرأب»

قاطعني بسؤال:

«ما أدراك أنها له؟ هل يدخن يوسف؟»

«لا يدخن، لكنه يحتفظ دائمًا بقداحةٍ في جيبه»

سأل مرة أخرى باهتمام:

«أليس غريبا أن يحتفظ شخصٌ غير مدخن بقدَّاحة؟»

فكرت قليلًا إن كان عليَّ أن أقول ذلك، لكنني قررتُ أن أُجيبه أخيرا:

«في الحقيقة لقد اعتاد على حرق إصبعه عندما يشعر بالغضب، يوسف شخص هادئ ومسالم جدًّا، لكنني عرفتُ أن هذا الهدوء وتلك المُسالمة يُكلِّفانِهِ كثيرا»

رد الشرطي بنبرةٍ حاول أن تكون لطيفة:

«هل يعاني من أي اضطرابات نفسية؟»

وكنتُ أتوقع هذا السؤال بعد ما قلتُه له للتو، فأجبته بثقة:

«على العكس تماما، إنه رجل متزن، لكنه أكثر الذين أعرفهم تهذيبا لنفسه»

لم يبدُ أنه قد فهمني تماما، كيف بإمكان أمريكيٍّ يؤمن بالمادية على الأغلب أن يستوعب فكرةً ثقيلة كتلك؛ فكرة أن يكون للإنسان وازعٌ من داخله يغرسه عميقًا هناك كلُّ ما يؤمن به، فيُلجم نفسه بنفسه ويُعاقب نفسه بنفسه ويؤلم نفسه إذا وجدها على وشك إيلام الآخرين أو التزحزح عن مبادئه، لن يفهم طبعا، وأنا أفهم يوسف

لكنني لا أنجح في أن أكون مثله عندما أحاول، وهذا أكبر فارق بيني وبينه وما جذبني إليه في الوقت نفسه؛ أنه كان يصغرني بعامٍ ويكبرني بالكثير من الانتصارات الكبيرة التي لا يُلمح إليها، ولعله حتى لا يلحظها لأنه غير مشغولٍ بمتابعتها، كان إنسانًا من هذا النوع؛ يفعل الخير دون أن يرى في نفسه أيَّ مزيَّةٍ أنه فعلَه، ويتمسك بالحق ويُنافح عنه دون أن يُحس نفسَه مكافحًا لأجل ذلك، ويُحارب بضراوة من أجل ما يؤمن به فقط لأنه واجبه. انتشلني الشرطي من شرودي بسؤاله:

«وماذا استنتجت من وجود القدَّاحة في المرأب؟»

استعدتُ تركيزي وقلتُ:

«عندما سألتُ والد زوجتي عن يوسف أخبرني أنه لم يرَه منذ جنازة أمه، ولعلك تتفق معي أن إنكاره رؤيته لا بد أن يكون وراءه سبب مُقلق»

همهم مفكرا ثم قال:

«ليس بالضرورة، إنكاره لا يعني أنه قتله، ثم ما الذي يجعلك واثقا إلى هذا الحد من أن أخا زوجتك ذهب إليه؟ ربما تكون هذه القداحة سقطت منه هناك يوم جنازة أمه»

أجبتُه:

«غير منطقيٍّ أن تسقط في ذلك المكان وتظل فيه

طوال ثلاثة أشهر، كما أنه لا يوجد سبب مقنع يدفع يوسف لأن يدخل مرأب بيت أمه»

أطرق مفكرًا ثم استدرك:

«ما زال السؤال الآخر قائما؛ لماذا استنتجت من إنكار حميك رؤية ابن زوجته أنه قتله؟ هل كل من ينكر أنه رأى شخصًا ما يكون السبب أنه قتل ذلك الشخص؟»

«لا بالطبع، لكن يوسف اختفى ولا نستطيع الوصول إليه أو معرفة مكانه حتى الآن، وهذا لم يحدث من قبل، وكذلك هناك أثر الدم على جدار المرأب...»

قاطعني قبل أن أتم كلامي:

«قد لا يكون دمه ببساطة، وقد يكون دخل في عزلةٍ دون أن يُخبر أحدا..»، وسكت هنيهةً ثم أردف: «على العموم سنذهب لتفتيش البيت ورفع البصمات وسيقوم المعمل الجنائي بالبتِّ في شأن أثر الدم»، ثم أردف: «عندي فضول لأعرف ما ستتوصل إليه في تحقيقك عن حماتك الميتة، وأتمنى أن تنجح في مهمتك وتكتشف السر وراء ما يحدث»

أومأتُ له شاكرًا وأنا أنهضُ من مقعدي، وانصرفتُ مستعجلا لأعودَ إلى المذكرات، لم أدرِ أن حماي العزيز سيحول بيني وبين استئناف القراءة لبعض الوقت.

أُخلي سبيله مؤقتا في ذلك اليوم حتى تظهر نتائج المعمل الجنائي ويُرى ما سيُسفر عنه التفتيش الدقيق للبيت والحديقة، وكان هذا الإخلاء من سوء حظي.

-١١-

صفية

«مرحبًا أستاذ صالح، أتمنى أن تكون بخير.

أنت لا تعرفني ولهذا سأبدأ رسالتي إليك بتعريف نفسي، أنا صفية عبود، ناشطة سياسية أحمل الجنسية الأمريكية، لم يكن من السهل أن أحصل على وسيلة تواصل معك، وأتساءل كثيرا لماذا بحق الله تستخدم صورة حسابك الشخصي شابا في حين أنك تناهز السبعين! أكان ضروريا أن تُصعب الأمور إلى هذا الحد وكأن اسمك الذي يحمله ثلث العرب المسلمين على فيسبوك لا يكفي!

أعتذر عن لهجتي، انفعلتُ قليلا، لا تؤاخذني..

حسنًا، سأدخل في الموضوع حتى لا أطيل عليك. أتواصل معك بشأن إنسانٍ أعتقد أنه في خطر وكلي ثقة أن أمره يهمك، لا أعرف إن كنت تفتح حسابك بانتظام أو متى سترى رسالتي إذا رأيتها، لكنني أرجو من كل قلبي أن ترد على رسالتي في القريب العاجل، الأمر متعلقٌ بيوسف يوسف أبو قاسم».

بعد خمس ساعات:

صالح: «مرحبًا يا ابنتي، هل أنتِ مجنونة؟!

بداية رسالتك الهزلية تدفعني إلى الشك في جدية ما تريدينني من أجله، ما الذي تريدين قوله عن ابن أخي؟

بالمناسبة، هل أنتِ ابنة حبهان بنت صالح العليا؟!»

صفية: «لا أدري إن كان هذا جيدا أم سيئا، لكنني سعيدة لأنك رأيت رسالتي ولم تتجاهلها.

كيف عرفت؟!»

صالح: «الأمر بسيط؛ تعرفين يوسف ابن أخي وتحملين اسم عبود وهو اسم زوج حبهان الثاني»

صفية: «تعرف أبي إذن. على كل حال هذا لا يهم الآن، أنا أبحث عن أي طريق إليك لأنني أعتقد أنك الوحيد الذي يمكنه أن يساعدني الآن، وبما أنك عرفتَ صلتي بيوسف فما من داعٍ لأن أزعم أن اهتمامي لأمره نابع من نشاطي السياسي.

أخي مختفٍ منذ أيام، بحثت عنه في كل مكان يمكن أن يذهب إليه داخل الولايات المتحدة الأمريكية ولم أعثر على أثر يقودني إليه، سألت كل من يُمكن سؤالهم عنه ولم يعطني أحد جوابا، ثم خطر لي أن أبحث عنك لأنه كان مشغولًا دائمًا بالذهاب إلى فلسطين، فقلتُ ربما تكون ساعدتَه على ذلك»

صالح: «آخر مرة تواصل معي كانت في شهر يونيه

الماضي، لم يخبرني أيَّ شيء عن ذلك»

صفية: «هذا سيء للغاية، كنت آمل أن تقول أنه عندك بالفعل»

صالح: «لماذا أنتِ قلقة إلى هذا الحد؟»

صفية: _____

صالح: «هل ما زلتِ هنا؟»

صفية: «نعم.

لم يتعود أن يختفي هكذا فجأة، وهذا ما يقلقني»

صالح: «إنه صحافي، طبيعة عمله ربما تحتِّم عليه السفر فجأة»

صفية: «كان يخبرني عندما يسافر»

صالح: «ربما انشغل هذه المرة أو فقد هاتفه، لا تقلقي، أنا متأكد من أنه سيتواصل معكم قريبا. كيف حال حبهان؟»

صفية: «لماذا لا تفهم؟ أقول لك ابن أخيك مختفٍ منذ خمسة أيام ولا نستطيع الوصول إليه، كيف بإمكانك أن تكون هادئا إلى هذا الحد؟»

صالح: «هل لهذا القلق المبالغ فيه سبب لم تخبريني به؟»

صفية: _____

صالح: ؟؟؟؟؟

صفية: «لقد قلت لك، يوسف لم يتعود أن يختفي فجأة ويتركنا قلقين، هاتفه خارج التغطية ولم يره أيٌّ من أصدقائه أو جيرانه منذ خمسة أيام»

صالح: «ما زلت أعتقد أنه اضطر إلى السفر فجأة ومنعه ظرفٌ ما من التواصل معكم»

صفية: «هل تُطمئن نفسك بهذا أم تُطمئنني؟ جميع حساباته على مواقع التواصل كان آخر تحديث فيها قبل خمسة أيام، لم يكتب مقالته الأسبوعية على الموقع الذي يعمل فيه وهذا لم يحدث منذ أكثر من عشر سنين، سألت الجريدة التي يعمل بها هنا وأخبروني أنهم لا يستطيعون التواصل معه!»

صالح: «هذا مُقلقٌ حقًّا!»

صفية: _____

صالح: «هل حدثت مشكلةٌ ما عندكم قبل أن يختفي؟»

صفية: «مشكلةٌ من أي نوع؟»

صالح: «لا أدري، أية مشكلة!

هل أخبرك أنه اختلف مع أحد ما أو أنه قَلِقٌ من شيء

ما؟»

صفية: _____

صالح: ؟؟؟

صفية: «لم يقل شيئا من هذا القبيل»

صالح: «إذا كنتِ تعرفين شيئًا فأخبريني يا ابنتي حتى أستطيع التصرف، بما أنكِ تواصلتِ معي من أجله فعلى الأقل قولي لي كل ما تعرفينه!»

صفية: «حسنًا، إنه لم يقل أي شيء حقًّا، لكنني أعتقد أنه ربما تشاجر»

صالح: «مع مَن؟»

صفية: _____

صالح: «صفية!

أسألُكِ تشاجر مع من؟»

صفية: «مع أبي»

صالح: «عبود! لكن لماذا؟! وكيف سمحت حبهان أصلا بذلك؟!»

صفية: «ما زلت تقول حبهان من أول المحادثة، ألا تعرف حقًّا؟!»

صالح: «لا أعرف ماذا؟»

صفية: «أن أمي ماتت قبل ثلاثة أشهر!»

صالح: ________________

صفية: ؟

صالح: ________________

صفية: هل ما زلتَ هنا؟

صالح: ________________

المذكرات

لا أعرف لماذا ولا كيف؛ لكن ذاكرتي لم تحتفظ بأي شيء من تلك الشهور التي انقضت منذ ركبنا البحر من بيروت متجهين إلى إيطاليا، إلى أن وصلنا أخيرا إلى الولايات المتحدة، حتى هذه اللحظة وأنا امرأةٌ قد جاوزت الستين أحاول أن أتذكر الأهوال التي سمعتُ عمي صادق أو يوسف يحكيانها فيما بعد والتي لقيناها بين الأمواج المتلاطمة فلا أذكر شيئا، تُذكرني خالتي أم صالح بالشهور التي قضيناها في إيطاليا، عن تقديمنا طلب اللجوء وحصولنا على الإقامة، عن عيشنا في مدينة تسمى بيروجيا في شقة ضيقة لا تدخلها الشمس ويدخلها كل يوم صوت مالكتها الإيطالية البدينة تصرخ في زوجها، عن شتم تلك المرأة لي بعربيةٍ مُكسَّرة كلما وجهت لي كلامًا ولم أرد عليها رغم إخبار الجميع لها أنني فقدت النطق، تقصُّ عليَّ أشياء كثيرة وأسمعها كأنهم وحدهم عاشوها، كأني لم أكن معهم، تسألني: هل تذكرتِ؟ وأهز رأسي نافية، فتضرب كفًّا بكفٍّ وتُتمتم: راحت دماغ البنت!

لكن فيما عدا تلك الشهور بقي دماغي في مكانه، لم أنسَ شيئا آخر، وأحيانًا عندما أفكر في الأمر أتساءل: ألم يكن الأصح لهذه الذاكرة إذا أرادت أن تنسى أن تُسقط شهور الحصار في تل الزعتر، موت جدي جوعًا أمام

ناظريّ، تلك الليلة الحزينة التي قرفصتُ فيها بنصف وعي وعينين نصف مُغمضتين أمام الطبق الصاج وأكلتُ مع إخوتي القط الذي كان صديقي لسنوات، أو اللحظة التي أخبرني فيها أبي في المشفى أن الميليشيات المسيحية قتلت أمي وأختي وأخويَّ الصغيرين؟ تعاودني الغصة نفسها وأشعر بيد كبيرة تضغط على قلبي وتعتصره، للذاكرة أسباب غير مفهومة فيما تحتفظ به وما تتخلص منه.

لكن هل أردتُ حقًّا أن أنسى؟ لا أعتقد هذا؛ يصبح التذكر طقسًا تعبديًّا يمارسه الموتور ليحتفظ بغضبه حيًّا وطازجًا، هذا الغضب الذي يقطع به الأيام والشهور والسنوات إلى اللحظة التي يثأر فيها، ما من فلسطينيٍّ ذي ضمير حيٍّ توقف يومًا عن ممارسة هذا الطقس، حتى إنه يُمارَس بشكل جماعي؛ فلا تجد فلسطينيًّا يذكر قصته وحده، قصصُنا مع أوطاننا السليبة عابرةٌ للأزمان والأمكنة وتحيا بالتنقل من ذاكرة إلى أخرى، إنه نوعٌ آخر من المقاومة، سلاح يتشبث به الذين لا يملكون الدبابات والطائرات والرصاص، ويعيشون العمر يُراهنون على أن الحقيقة لا يمكن تزييفها بالقوة ما داموا يذكرون الحكاية كاملة ويورثونها من جيل إلى جيل.

احتفظت ذاكرتي إذًا بما كان عليَّ الاحتفاظ به لكي أظل فلسطينية رغم أني لم أرَ تلك البلاد، لكن بشكلٍ ما

انبثقت كل أحداث حياتي بحلوها ومرها من تلك الحقيقة القديمة، والتي تصير أحيانًا مُغبَّشة مثل حلم طفولةٍ بعيد، أما فيما عدا تلك الأحيان فقد كنت أعرف تمامًا ما يعنيه كوني فلسطينية، أعرف تلك الأرض وأشم رائحة برتقالها وزيتونها وزعترها وأحتفظ في ذاكرتي بقصص أجدادي فيها وأختزنُ في عينيَّ صورًا لجبالها ومهادها وروابيها، هل استطعت أن أمرر هذه المعرفة إلى أبنائي؟ لا أدري، أحيانًا ألوم نفسي عندما أنظر إليهم وأجدهم مندمجين تمامًا هنا ولا أفلح في لمس ذلك الحنين الذي أعانيه لديهم، وأحيانًا أقول لنفسي: ما الذي تريدينه يا حبهان؟ هل هذا ما سيُريح ضميرك؟ أن يشعر أبناؤك بالذنب لعدم اشتياقهم إلى بلد لم يُولدوا فيه ولم يرَوه إلا على شاشات التلفاز وفي صفحات الجرائد؟ هل ستشعرين أنكِ أديتِ ما عليكِ حين ترينهم يعانون أكثر مما يعانون في مجتمع أمريكي تعتبرينه سببًا من أسباب ضياع وطنك وهيامك على وجهك في بلاد الله؟ لماذا كانت كل محاولاتك لضرب جذورك هنا إذًا؟

وأُهوِّن على نفسي وقع هذا السؤال الذابح فأقول إن محاولاتي الدائبة للتجذر هنا ليست إلا محاولة قصاص؛ رغم أني أعرف أن هذا يعني أنني حين ساعدتْ أمريكا في تشريدي عن بيتي أخذتُ منها بيتًا في أرضٍ احتلتها وأبادت أهلها مثلما ساعدت في إبادة أهلي، وأضحك من كذبتي التي أرددها بسذاجة لأحظى أمام نفسي

بانتصار صغير، وأسخر من نفسي وأقول لها: حقًّا؟ وهل كنتِ لتقدري على وضع قدمك هنا لو لم يسمحوا لكِ؟ وأي قصاص هذا الذي تأخذينه عن طريق دفع ضريبة عيشك هنا كل يومٍ؛ وصمًا باللجوء ومعاناةً من العنصرية وهواجس لا تهدأ حول إمكان أن تأخذ أمريكا أبناءكِ من جذورهم وهويتهم كما أخذت منكِ وطنك من قبل؟ ثم أعود أُهدئ نفسي وأقول أنهم لن يضيعوا هنا طالما ظلوا يتعرضون للكراهية بسبب جنسيتهم ودينهم واختلاف مبادئهم وأفكارهم، لا تفلح التهدئة؛ لأن الإنسان الذي يعاني كراهية المجتمع له قد يضعف مع الوقت ويتنازل وينصهر فيه، ما الذي بقيَ لي لأرجو الله به سلامتهم سوى رحمته وعلمه أنني بذلت كل ما في وسعي حتى لا ينسوا مَن هم ومن أين جاؤوا وما الذي يؤمنون به؟ لا شيء غير هذا، لكنني أطمئنُّ أخيرا بأنني لا أحتاج شيئا غير هذا.

في أول قدومي إلى هنا لم تشغلني كل هذه الأسئلة، لم أكن أعرف شيئًا، وتولَّت السنين اللاحقة بكل ما حملت من أحداث إنبات أسئلة كثيرة في رأسي. أتذكر الآن تلك السنوات الأولى وأبتسم، لم يكن يشغلني فيها سوى حزن الفقد وذهول النجاة والأنس بأحباب جدد، أخرجني العيش في بيت خالتي أم صالح من دائرتي المغلقة المدججة بالكوابيس والبكاء، فعندما حصل عمي صادق بفضل قريبه على بيتٍ صغير من طابقين في هذه المدينة

الهادئة أصر على أن يسكن أبي في الطابق العلوي ويسكن هو وزوجته وابناه في الأسفل، وللمرة الثانية كان أبي مُحرجًا وقليل الحيلة، لكنه كان يبتسم بامتنان كلما شكره عمي صادق على أنه لم يُحزنه ووافق بأن يظل قريبا منه، كانت علاقتهما طيبة مثل سيرة البلاد التي دأبا على حكيها وتذكرها معًا كل ليلة بعد العودة من عملهما، اشتغلا لعامين في مصنع قريب عمي صادق، يستيقظان مع الفجر ويغادران ولا يعودان قبل أن يهبط الليل، وبعد عامين ترك أبي ذلك العمل وأنشأ مطعمًا صغيرًا يقدم فيه الأكل الفلسطيني التقليدي، مع الوقت اشتُهر المطعم؛ خاصة وأن المدينة كانت تعج بالمهاجرين واللاجئين العرب، فتوسع وصلحت حاله كما صلحت كذلك حال عمي صادق، لكنهما لم يكفا عن الابتسام بمرارة وهما يذكران فلسطين كل ليلة، ولم أشهد أبي قبل لقائه بعمي صادق يحكي عن فلسطين قط، كان صموتًا كأن الكلام يجرح الطريق من حنجرته إلى شفتيه ويُدميه، لكن صديقه نجح في سحب كلامٍ قليلٍ بسلاسةٍ من قلبه، وجعلني أرى أبي الصامت ثابت الوجه أثناء حكايات البلاد يبتسم ويؤمئ دائمًا ويُدلي بشهادته من وقتٍ لآخر استجابة لطلب صاحبه.

لم أستعد قُدرتي على النطق إلا بعد سبعة أشهر من قدومنا إلى هنا، حاولت خالتي أم صالح كثيرا دون جدوى، جربتْ معي كل حيَل الأمهات من منقوعات

الأعشاب والحنان والرُّقى، لم أنطق ولكني التصقتُ بها، ورحتُ أتنشَّق مزيج الكُحل والعود الذي يفوح منها وأنبهر كل يوم بتلك المرأة التي هربت من لبنان ليلا في قارب موت ولم تنس أن تحمل معها بذورًا لجميع الأعشاب التي تعرفها، كأنها بأخذها تلك البذور تأخذ معها شيئا من البلاد يساعدها على إنشاء بيت في الغربة. من خالتي أم صالح تعلمت الزراعة والخبز وتربية الدجاج والتعبير عن محبتي وإخلاصي فيما أطبخ، والأهم من ذلك كله تعلمت منها كيف أصير امرأة.

سجَّلني أبي في المدرسة الوحيدة التي تقبل العرب على بعد نصف ساعة مشيًا من البيت، وفي نفس المدرسة سُجِّل يوسف الذي كان يكبرني بعام، فكنا نذهب معًا كل يومٍ صباحًا ونعود معًا بعد انتهاء اليوم الدراسي، أو الأدق أن أقول كان ينتظرني؛ لأنني في البدء لم أرغب أبدا في صحبته، لكنني تعودت عليها مع الوقت رغم أنه كان يتعمد استفزازي، ولم أكن في تلك الشهور الأولى أرجو شيئا مثلما كنت أرجو أن أتخلص من الكوابيس ويكف يوسف عن الكلام أثناء الطريق من المدرسة وإليها، كان يتكلم كأن الصمت اختراع لم يصله بعدُ في بلاد حكاياته النائية، وتساعده كثرة قراءاته على التشريق والتغريب في مواضيع لم أسمع بها من قبل، لكنه رغم سعة اطلاعه التي كانت تقتضي أن يكون هادئًا وقورًا كان صعلوكًا حقيقيًّا، مُغرمًا بالشغب والتمرد

وعراك الشوارع الذي أخبرني أنه مجرد تدريب على حرب العصابات، وأن تحرير فلسطين لن يحدث إلا بهذه الطريقة، كنت أردد الكلمة في عقلي وأتحسس حروفها على لساني الساكت؛ حرب العصابات، وبعد سنوات عدة سأفهم ما كان يعنيه عندما أتابع الانتفاضة الأولى على شاشة التلفاز. اعتدتُ غرابة يوسف وصعلكته واستفزازاتِه وحكاياتِه، حتى إنني كنت أفتقد ذلك كله حينما يغيب عن المدرسة فأقطع الطريق إليها وحدي، وافتقدته أكثر حين تخرج من المدرسة ليلتحق بالجامعة بعد عامٍ واحد.

كان من النوع الذي يُصر حتى الموت على ما يريد حتى يحصل عليه، ولهذا لم يستسلم أمام صمتي العنيد الذي كنت أنا نفسي قد استسلمت له وتصالحت مع فكرة أنني سأقضي بقية عمري خرساء، لكنه ظل ورائي حتى انفكت عقدة لساني وغردتُ مثل البلبل على حد تعبيره الذي سيواظب عليه فيما بعد كلما حكى عن الأمر، كيف فعل ذلك؟ لا أدري إلى الآن، كان يستفزني دائمًا إلى درجة تدفعني للجنون، وفي إحدى المرات بينما كنا عائدَين من المدرسة سخر مني صبيَّان أصغر مني ونادوني بالبكماء، ضربهما حتى هربا، وعندما عاد لي لنكمل طريقنا إلى البيت راح يوبخني على سماحي لمثل هذين بأن يسخرا مني، وظل يضغط ويضغط، يخبرني أنني لستُ وحدي من تعرّضتُ للأهوال، وأن هناك آلاف

الفلسطينيين رأوا أحبابهم يموتون وخرجوا من بلادهم وهناك من فقدوا أطرافهم، وأنني جبانةٌ إذ أهرب بهذا الصمت من مواصلة حياتي ومواجهة مصاعبها بقلب جسور، وأن أمي وإخوتي لو رأوني الآن لما رضوا عما أنا فيه، ومع كل كلمة كنت أزداد حنقًا عليه حتى امتلأتُ تماما، علامَ كان يوبخني؟ ألا يعرف أن الأمر ليس بيدي؟ فصرختُ فيه فجأةً دون أن أُحس:

«أنت غبي وعديم الإحساس وتظن نفسكَ فهيمًا وأنت لا تفهم شيئا»

قلتُ الجملة وأنا ألهث من فرط الغضب وأتعثر بين الكلمات لطول عهدي بالسكوت، ولم أنتبه لشدة انفعالي وحنقي عليه أنني نطقتُ إلا حين راح يُهلل ويُكبّر ويهتف لنفسه كأنه حرر فلسطين إذْ حرَّر لساني، وقضى الطريق إلى البيت يرقصُ الدبكة دون أن يبالي بنظرات المارة من الطلاب وكبار السن، وعندما وصلنا هُرع إلى أمه يزف إليها الخبر ويطالبها بطبق كبير من البقلاوة لا يُشاركه فيه أحد.

وأُعدت البقلاوة وخُصَّ يوسف بأكثرها، وأعدَّتْ خالتي أم صالح حلوَياتٍ أخرى على مائدة احتفال كبيرة، وفرح عمي صادق واعتبر الأمر بشرى بعودتنا إلى بلادنا قريبا، وبكى أبي خفيةً ولم يقل شيئا كأنما لا يريد أن يفضحه ارتجاف صوته. ورغم أن الفضل في عودتي للكلام أو

عودته إليَّ كان يرجع إلى يوسف فإن خصامي له استمر أسبوعًا قبل أن أقبل الصلح، لكنني من بعدها انقبضت عنه، كأنني بعودة لساني أدركتُ فجأة أنني كبرت، أو أن سكوتي كان الشيء الذي يُمكِّنني من التعامل معه دون خجل، وفقدت هذا الشيء مع أول كلمة نطقتها، وتغيرت علاقتي به.

أما صالح فعلى العكس تماما منه؛ كان هادئًا ورزينًا إلى أبعد حد، طويل الصمت يُخيل إلى من لا يعرفه أنه خجولٌ كبنت، لم تكن خالتي أم صالح تذكره إلا وتقول: «صالح أكثر ولد مؤدب عرفته تل الزعتر وأمريكا»، وتردد كثيرًا وهي تضحك: «ربيتُ صالح ثلاث مرات ولم أُربِّ يوسف ولا مرة»، وتحكي وتتفاخر بكبيرها طالب الطب الذي يوشك أن يصير «حكيمًا» ويعالجها من خشونة الركبة وصداع الرأس المزمن، وعندما يسمعها صالح يُخبرها أنه ما من داعٍ لانتظار التخرج وأنه يعرف سبب علتها، تسأله، فيُجيبها: «صداع رأسك من كثرة زَنِّ يوسف»، تضحك ويقلب يوسف شفتيه محاولا رد السخرية ويسأله: «وماذا عن خشونة ركبتها يا فهيم؟»، لا يحتار صالح الذي يجيبه بسرعة بديهة: «لطول ما تُوقِفُها في المطبخ لتصنع لك البقلاوة يا أبو كرش»، يضحكون جميعا ويغضب يوسف، ويُقسم ألا يأكل في البيت اليوم، لكنه في الليل عندما يشم رائحة الملوخية وتضع أمه طبق البقلاوة كغوايةٍ على المائدة يسأل: «هل

يُشترط في صيام الكفارة أن يتتابع؟»، وقبل أن يحصل على الجواب تكون أول قطعة بقلاوة قد عبرت من حلقه بغبطة.

لم يُغرم يوسف بالتعليم كأخيه الأكبر، قضى سنة في دراسة القانون في جامعة جورج ميسون ثم تركها، ولم تُفلح معه كل توسلات أمه وتهديدات أبيه ونقاشات صالح، كان حانقًا وساخطا، يقول لهم كلما فاتحوه في الأمر: «كيف تريدونني أن أدرس قانون بلد ضيَّعَ بلادنا وما زال يحرص ألا نستردها؟ إنهم حفنةُ كذَبة أفَّاقين، أُدرك هذا كلما دخلتُ محاضرةً أو فتحت كتابا، عارٌ عليَّ إذا طلبت عندهم ذلك الهراء والعبث»، يزفر عمي صادق محتارًا فيما عليه أن يفعل مع هذا الولد العنيد الذي لم يرضَ حتى بالتحويل إلى كلية أخرى، ويستأنف صالح معه نقاشاته اللانهائية من جديد، بينما تتمتم أمه الرقى وتُبخِّر البيت مُردِّدة أنه الحسد بلا شك، وأتساءل: من يعرفكِ هنا يا خالتي حتى يحسد عيالك! لكنني أكتشف فيما بعد أنها كوَّنت شبكة علاقات واسعة مع جاراتٍ من جنسياتٍ مختلفة، كانت تلقاهن في البقالة والجزارة والسوق، وستكون تلك الصداقات النسائية الكثيرة هي ما يُعينُها على تزجية شيخوختها حين يخلو عليها البيت مع ابني الذي يقضي أغلب يومه خارجه.

اشترى أبي هذا البيت وانتقلنا إليه بعد ثلاثة أعوام

من قدومنا إلى أمريكا، كنتُ في سنتي الثانية بكلية التعليم حين دخلتُه، وعندما تخرجتُ منها غادرتُه عائدةً إلى الطابق العلوي في بيت خالتي أم صالح. في يوم تخرجي وبعد أن استلمت الشهادة سألتني: هل تتزوجين ابني يوسف يا حبهان؟ ألجمتني المفاجأة وشعرتُ بالدم يوشك أن ينفجر من وجنتيّ، اعتبرتْ سكوتي وخجلي علامة رضى وزغردتْ، وحين أخبرها عمي صادق أن تحتفظ ببعض الزغاريد ليوم استلامي الوظيفة قالت أنها لا تزغرد لتخرجي هذه المرة وإنما لأنها تلقت جوابي على سؤال الزواج من يوسف، تبادل أبي وعمي صادق نظرات مصدومة، وارتسم على وجه صالح تعبير غير مفهوم، أما يوسف فقد أشار لي بيده بحركةٍ نزِقةٍ عندما نظرتُ إليه مشدوهةً كأنه يؤكد لي: نعم؛ أنا العريس!

تزوجنا بعد ذلك اليوم بأسبوعين، كنت أسأل خالتي أم صالح عن سبب العجلة فتُجيبني بسؤالٍ عن سبب التأخير بينما كلُّ شيء جاهز، عدتُ إلى الطابق العلوي من ذلك البيت في ليلة جمعة، وسافر صالح الذي كان قد حصل على شهادة الطب إلى فلسطين فجأةً يوم السبت ليعمل في أحد مستشفيات غزة ويقضي حياته فيها، بكت خالتي أم صالح طويلًا ورجتْه ألا يذهب، ونهرها عمي صادق وربت على كتف ابنه شاعرًا بالفخر مُحمِّلًا إياه سلاماتٍ حارّة إلى البلاد وأهلها. واستفتحتُ حياتي مع يوسف، الصعلوك المشاغب العامل في مصنع سيارات ومُغرم

بحرب العصابات ومُدمنٍ قراءةَ الكتب، بصراعٍ مع حنة جابرييل وايزمان، عدوتي الأبدية اللدود، والذي سيجثم بظله الثقيل على شهور زواجي الأولى ويتلف أعصابي، لكنني في طريق ذلك الصراع تعرفتُ إلى ماري بيري التي ستؤثر في حياتي أيضًا بشكل ما. لم أستوعب حقيقة أنني صرت زوجةً إلا عندما استلمتُ عملي كمُعلمة رياضيات في مدرسة فيرفاكس الثانوية، حينها فقط بدأت أهدأ، والتفتُّ إلى يوسف أحاول استيعاب متى دخل حياتي كزوجٍ وكيف مرَّ عامُ زواجنا الأول بهدوءٍ كنسمة صيف، واكتشفت فيه عاشقًا لم يكن يبدو أنه يُمكن أن يكونه، ولم يُنقص راحتنا شيء رغم رُقى خالتي أم صالح ووصفاتِها العُشبية وانتظارها الدؤوب لخبر الحمل.

حين أخبرت يوسف أننا ننتظر طفلا أو طفلة كان قد مر على زواجنا عام ونصف، طار من الفرح ووضع خططا واقترح أسماء، وفرضت عليَّ خالتي أم صالح نظامًا غذائيا خاصًّا وحرصًا في الحركة «حتى تمر الشهور الأولى على خير ويثبت الولد» على حد قولها، وفي الشهر السادس من الحمل مات يوسف، قتله أحد العاملين معه في المصنع، كانت جريمة كراهية لأنه مسلم، لكن لا القضاء ولا وسائل الإعلام ولا الصحف قالت ذلك، ووجدتُ نفسي فجأةً أرملة يوسف، الصعلوك المثقف الذى كان يُجهز نفسه للعودة إلى فلسطين

وخوض حرب عصابات من أجل تحريرها. قدِم صالح من فلسطين لحضور جنازة أخيه، ولم يحتمل عمي صادق ثِقَل المُصيبة فأُصيب بشلل أقعده ما بقي من عمره، وكان آخر ما قاله قبل أن يعقد الشلل لسانه أنه لطالما أحب صالحًا أكثر من يوسف، واعتبر موته في عز شبابه عقابًا له على تفضيله ابنه الأكبر على الأصغر. وازداد أبي وجومًا على وجومه وعاد إلى قوقعته التي كان صديقه قد أخرجه منها بدعاباته وخفة روحه، أما خالتي أم صالح فلم تجد الفرصة الكافية لتُعطي حزنها حقه، خاصةً بعد أن عاد صالح إلى فلسطين ووجدت نفسها وحيدةً مع زوج ورفيق عمر مشلول وزوجة ابن تحمل آخر ما تبقى من ابنها، تصبَّرت بالعمل في البيت وخدمة زوجها ورعايتي، استحالت نحلةً لا تهدأ في ليل أو نهار، وأضحى الشيء الذي تعيش من أجله هو أن تستقبل حفيدها أو حفيدتها بخير.

وضعتُ طفلًا في أول شهري التاسع، وفور أن رأيته أخبرت الجميع أن اسمه يوسف، لم يُراجعني أحد، وتماسكتُ وأنا أنطق اسمه حتى لا أؤلِّب أحزان عمي صادق وخالتي أم صالح، لكنه انخرط مع أبي في بكاء مرير، بينما استعاذت خالتي أم صالح بالله من الشيطان الرجيم ونهرتْهما لما اعتبرته استقبالًا سيئًا لحفيدها الغالي ابن الغالي.

بعد ميلاد يوسف بشهرين مات عمي صادق، غرق أبي في بئر حزنٍ عميقة ولحق به بعد خمسة أشهر، وفي مرض موته أقمتُ معه أسبوعين أرعاه وأُمازحه وأخبره أنه لن يذهب قبل أن يُزوِّج يوسف، يبتسم ابتسامة من يعرف أنه سيذهب حتى قبل أن ينطق حفيده أول كلمة له، ويتنهَّد وهو ينظر طويلًا إليه ويتعجب من صنائع القدر، وحين يلمح على وجهي عدم الفهم يبتسم ويقول لي بصوت يجاهد التعب:

«في ليلة تخرجك طلبكِ مني عمكِ صادق لابنه صالح، وفرحتُ بشدة لأنني كنتُ أتمنى هذا وأنتظره، وأخبرته أنني سأفاتحك في الأمر في اليوم التالي رغم ثقتي أنك لن ترفضي هذا الشاب المهذب الطبيب الذي يرفع الرأس، لكن خالتك أم صادق سبقتنا!»

أسمعه فاغرةً فمي دهشةً، صالح؟! حقًّا؟! هل كانت تلك رغبتُه أم رغبة عمي صادق؟! أفكر كثيرًا ولا أتوصل إلى جوابٍ مريح، وينتشلني صوت أبي بعد تنهيدة متعبة:

«بينما كنا ثلاثتنا ننتظر الوقت المناسب لمفاتحتك في الأمر والحصول على موافقتك اختطفتْكِ خالتك أم صالح لابنها الأصغر دون أن تعرف أن ابنها الأكبر طلب من أبيه أن يطلبك».

كانت رغبته إذًا! أشعر بأسف عليه، لكنني أنفض

الفكرة من رأسي، أسأل نفسي هل كنت سأوافق لو أن أبي تمكن من إخباري؟ لا أجد جوابًا للسؤال، ولن يُقدَّر لي أبدًا أن أعرف الجواب؛ لأن صالحًا سينتظر الوقتَ المناسب من جديد، وحين سيعود إلى أمريكا بعد أربعة سنين ليعرض عليَّ الزواج سأكون قد فعلتُ قبل أسبوعٍ واحدٍ فقط أسوأ شيء في حياتي وتزوجتُ من مساعد أبي في مطعمه؛ عبود، بدفعٍ من خالتي أم صالح أيضًا، لأن تلك المرأة التي راقبتْ حبَّ ابنها يوسف لي ولم تفطن لحب صالح لم يخطر لها أنه قد يرغب في زوجة أخيه الميت، إنه القدر؛ يسير نحوه الإنسان ظانًّا أنه سيد قراره حتى يكتشف أنه كان يسير معصوب العينين ويتخبط.

-١٢-

أمينة

الوقتُ دواءُ الحزين وسُمُّ المنتظر، يسحب روحه ببطء وتشفٍّ حتى يتركه جثة متعفنة، أعرف هذا من نفسي.

ما زالت أمامي خمسة أيام أخرى قبل أن أستطيع إجراء اختبار الحمل، وأشعر أن قلبي سيتوقف خوفا من قبل أن أُجريَه، يُخيَّل إليَّ أن اليوم الخامس عشر لن يجدني عندما يأتي. إنها فرصتي الأخيرة لأصبح أما، أملي الأخير الذي عليَّ بعده التخلي عن هذا الحلم سواءً خاب الأمل أو لم يخب، وهذا بالضبط ما يُخيفُني ويكاد يُقضى عليَّ من كثرة التفكير فيه، أريد أن أنام الآن وأصحو بعد عام؛ أيًّا تكن نتيجة ذلك الاختبار.

يزعم إلياس أنه لا يشعر بأن شيئًا ينقصه معي، وبأنه راضٍ وسعيد بحياته هكذا ولا يفتقد أن يكون أبا، عندما يخبرني بذلك قبل كل حقن مجهري وأثناءه وبعده أنظر له بحب وامتنان، وأفكر في نفسي كم هو قليل الحظ، أعرف أنه يحبني، لكن شعوري بأنني أقل مما يستحق يقتلني في تلك الأيام بالذات، ألا يكفي أنه متزوجٌ من امرأة بإعاقة في قدمها تمشي فتثير الشفقة أو السخرية حتى يعجز رحمها عن حمل طفل له! أستغفر الله وأحاول طرد هذه الأفكار من دماغي، وأتضرع إليه ألا يردني

خائبة هذه المرة، وأقول يا رب إن لم يكن من أجلي فمن أجل إلياس؛ يليق به أن يكون أبا!

أحاول شغل نفسي بالقراءة عسى أن يمر الوقت، أنقل عينيَّ بين السطور ورأسي في مكان آخر، لو كانت أمي حية لأخبرتها بأشياء كثيرة لا أستطيع أن أقولها لإلياس، أتخيل أحيانًا أني أذهب إلى بيتها وأطرق الباب فتفتح لي، أُلقي نفسي في حضنها فتمسح على رأسي وهي تسألني بقلق عما بي، لا أستطيع الكلام فتسحبني من يدي حتى الأريكة وتُجلسني، رائحة البيت تعبق بطبختها على الموقد وكرة الصوف والإبرة يرقدان على المنضدة الصغيرة بجانب كرسيها المفضل في غرفة المعيشة والتلفاز مفتوح على القناة الأولى الفلسطينية التي تعرض نشرة أخبار الثالثة، تأتي لي بكأس من عصير الليمون وتناولني إياه وتجلس جانبي، تمسح على رأسي وظهري وهي تحثني على شرب الكأس حتى آخره، وعندما أنهيه تأخذه من يدي وتضعه على الطاولة أمامنا، تُمسك بيدي بين كفيها الدافئتين وتسألني «ماذا بك؟»، فأنهال هناك مثل نهر كان ينتظر أن يُفتح السد الذي يحجزه، أُفضي إليها بكل الكلام الذي يخزُ قلبي مثل الإبَر، أخبرها وأنا أبكي أنني تعبت، وأن روحي تحترق على طفل، وأنني أتعذب كل يوم وأنا أنظر إلى زوجي الذي أحبني رغم إعاقتي وأسأل نفسي: ألا يستحق هذا الرجل أن يأخذ ابنه فى حضنه؟ وأننى أنظر إلى

أطفال الآخرين بلهفة ثم أخاف أن أحسدهم أو أن تنبت في رأسي أسئلة سامة كلماذا تستحقهم أمهاتهم ولا أستحق بالمثل أن يكون لي طفل، وأنني أخشى على نفسي كل يوم من أن يُحولني انتظاري للشيء الذي لا يحصل إلى امرأة ساخطة أو حقودة، امرأةٍ لا أحب أبدا أن أراها عندما أنظر في المرآة، وأن نظرات الأمهات اللاتي أعرفهن تقتلني سواءً عندما يُشفقن عليَّ أو يخفن من الحسد، وأنني أُخبر زوجي دائما أن يتزوج امرأة أخرى تُنجب له أطفالا رائعين وأخاف بشدة أن يسمع كلامي ويفعلها، تضمني أمي بين ذراعيها بقوة وتربت على ظهري وتُسمعَني الكلام الذي أحتاجه، الكلام الذي لن يمنحني طفلا ولكنه سيُعرِّفني كيف أتعامل مع غيابه، لن يُزيل آلامي ولكنه سيمنحني الطاقة للصبر عليها، وأخرج من حضنها مغسولةً من يأسي بدموعي ودعائها الصادق ومعرفتي أن خلفي أمًّا تُحبُّني وتهتم لأمري ويمكنني أن أهرع عليها كلما ضاقت الدنيا بي، أقبِّل وجنتيها وأغادر إلى بيتي وأنا أخطط لغداء اليوم وأنتوي تصحيح كراريس الطالبات.

لكن هذا كله لا يحدث، وبالأحرى توقف منذ ثلاثة أشهر عن الحدوث، ذهبت أمي ولم أذهب إلى بيتها منذ ذلك اليوم؛ لأنني لن أحتمل أن أجتاز عتبة ذلك البيت ولا أجدها في استقبالي. أحيانًا أفكر وأنا في بيتي أنها ما زالت هناك، وأروح أنسج أحلامًا جميلة أذهب إليها

فيها فتضحك لي وتُضحكني وتضمني وتنصحني ونتبادل أطراف أحاديث كثيرة عن شغل البيت ومشاكل الطالبات وأحوالي مع إلياس، لكن هذه الأحلام هشة بقدر ما هي جميلة، وتُفرقع مثل بلالين صُنعت من مادة رديئة عند أقل ضغطٍ للواقع مُخلفةً وراءها الخضَّة ووجع القلب.

كنتُ شاردةً في تلك الأحلام أنظر من حين لآخر إلى باب غرفة المكتب، حيث يجلس إلياس مستغرقا في عمله، حين رنَّ هاتفي فجأة فانتشلني من شرودي، التقطتُه عن المنضدة الجانبية برغبةٍ شديدةٍ لا في الرد وإنما في إسكات صوت الرنين، حين طالعني اسم أبي على الشاشة كحدث غير سار، هذا آخر ما يُمكنني أن أحتمله الآن، ولذلك كتمتُ الصوت وألقيتُ الهاتف من جديد على المنضدة، لكنه أضاء برسالةٍ قبل أن ألفتَ وجهي عنه، ولم أستطع مقاومة النظر إليها من الخارج، فوقعت عيناي على كلمتين تصرخان هناك مثل مصيبة، «قتلت يوسف»!

التقطتُّ الهاتف بسرعة وفتحتُ الرسالة، التهمتها عيناي على عجل:

«أنا بعد أن شاب رأسي يتهمني الكلب زوجك أنني قاتل؟! ومن؟! يبلغ الشرطة أنني قتلت يوسف؟! ليس غريبا أنك لا تردين على مكالمتي، من المؤكد أنك موافقة على فعلته، يا أولاد الكلب!»

لحظة! إنني لا أفهم شيئا، مزيج غريب من الفزع وعدم الاستيعاب اجتاح كياني، طلبتُ رقم أبي سريعا فلم يرن الهاتف لثانية حتى فتح الخط وانهال عليَّ السباب، حاولتُ إيقاف ذلك السيل من الشتائم البذيئة بكل السبل فقط لأفهم، رجوته بارتباك:

«أرجوك يا أبي اهدأ، لم أفهم شيئا، أي قتل؟ عن أي قتل تتحدث؟»

رد بصوت يتلعثم من شدة الغضب وسرعة تتابُعِ الشتائم:

«أنا يا أولاد الكلب؟! يا أولاد الأوساخ؟! قاتل؟ ابن الكلب الآخر، ذاك، أقتله؟ سأريكم يا أولاد...»

لم يبدُ لي أنه سيتوقف، ودفعني هذا إلى مقاطعته ولكن وأنا أصرخ هذا المرة، ندَّت مني صرخةٌ عاليةٌ وطويلة انقطع على إثرها الصوت على الجهة الأخرى وخرج إلياس من مكتبه فزِعا، هُرع نحوي لكنني أشرتُ له بيدي ألا يقترب، ماذا فعل هذان الرجلان؟ ما الذي حدث لأخي؟ عليَّ أن أفهم هذا أولا قبل أن ينخرط هذا في وصلة شتائمه أو يلوذ الآخر في مكتبه بالصمت. صرختُ في الهاتف بقوة لم أدرِ من أين واتتني في تلك اللحظة:

«ما الذي تقوله؟! بمَ يتهمك إلياس؟!»

فردَّ بحنق ولكن بنبرة أقل شراسة:

«يتهمني أنني قتلتُ ابن زوجتي، أبلغ الشرطة بذلك وهم الآن هنا في البيت يُفتشون كل شبر فيه، ابن الكلب يتهمني أنا أ...»

حدقتُ في إلياس مصدومةً فتوتر وبدأ يحاول تهدئتي، قال:

«حسنًا، أغلقي الخط وسأشرح لك، لا تنهاري أرجوكِ، اهدئي، أغلقي الخط، أمينة أغلـ...»

لم أُلقِ له بالا وسألتُ أبي الذي ما زالت الشتائم تسيل من فمه:

«ماذا؟ لماذا يتهمك بقتله؟! ما الذي تقوله!»

أجابني غاضبا:

«هل تحاولين خداعي؟ على أساس أنك لا تعرفين، هل ترينني عبيطا لأصدق هذا التمثيل؟!»

انفجرتُ صارخةً بكل ما فيَّ من مشاعر مكبوتة تجاهه لا أفلح في فهمها:

«لا أطلب منكَ أن تصدق شيئا، عليك فقط أن تخبرني: لماذا اتهمك بأنك قتلته؟! أنت ماذا فعلت لأخي؟! ماذا فعلتَ ليوسف؟! لم تحبه في يوم من الأيام، ما الذي فعلته به؟! ألم يكفكِ أنك ضيعتَ منا إبراهيم؟!

والآن ما الذي فعلته ليوسف؟!»

أغلقَ المكالمة وأصابتني نوبة هلع، تسارعت أنفاسي وأحسستُ أن قلبي سيخرق صدري ويقفز منه لشدة ضرباته، ثم فقدت توازني وعجزت قدماي عن حملي فشعرتُ أنني أتهاوى مثل بناء أصابه صاروخ، تلقفتني ذراعا إلياس قبل أن أسقط على الأرض، أجلسني على الأريكة وراح يحاول تهدئتي، كان قد تعلم كيف يتعامل مع نوبات هلعي قبل سنين، لم يحتج ذلك كثيرا في آخر سنتين، لكن ها هي نوبة هلع تهاجم من جديد بضراوة وتستغرق وقتا أطول من المعتاد حتى تزول.

ما إن انتظم تنفسي حتى أزحتُ بغضب يده التي تربت على شعري، تقوست شفتاه أسفًا وقال:

«أعرفُ أنكِ غاضبة، لكن صدقي أنني فعلتُ هذا من أجلك»

قال الكلمة الأخيرة وهو جالس القرفصاء أمامي ووضع يده على يدي المستقرة على فخذي، سحبتها بعنف وقلت:

«ستخبرني الآن بكل شيء»

نظر في عينيَّ بتردد، كانت عيناه تقولان أنني أكثر هشاشةً مما يتطلبه هذا الأمر، فصرخت:

«الآن، ستخبرني!»

قام من مكانه وجلس بجانبي محاولا أن يحوطني بذراعه، نهضت من الأريكة وجلست على الكرسي المقابل، كررتُ جملتي الأخيرة بنفس الغضب، زفر زفرةً طويلة ومسح رأسه بيده، ثم تكلم أخيرا..

«في اليوم الذي اتصل فيه والدك فجرا عندما وجد جثة كلبه عثرتُ على قدَّاحة يوسف هناك في المرأب..»

وقصَّ عليَّ التفاصيل كلها انتهاءً بأن علينا انتظار ما سيُسفر عنه تفتيش البيت وكلمة المعمل الجنائي عما إذا كان الدم في المرأب لبشريٍّ أو لحيوان. شعرتُ بجسدي يرتجف وقلبي كذلك، كان يحكي وكنت أحترق غضبا لا أدري ممن بالضبط، شعرتُ بقلبي يضطرم، وفي لحظةٍ استعادت ذاكرتي كل المرات التي أحسستُ فيها بأنني غيرُ كفء لتحمل صعاب هذه الحياة، تساءلتُ في عقلي -وربما لأول مرة- لماذا تدور الدنيا من حولي دون أن أحس، لماذا لستُ خيارًا مناسبًا لأحبابي من أجل البوح بالهواجس والشكوك والأخبار الصعبة، لماذا أجعل نفسي كتابا مفتوحًا لمن أحبهم ولا يمكنني أن أحظى منهم بالمثل، حتى أبي الذي يتصل بي ليشتمني أكثر مما يتصل بأيٍّ من أخواتي عندما يرغب في قول شيء مهم لا أخطر بباله.

نهض إلياس من مكانه وجلس على ركبتيه أمامي،

وقبل أن يُمسك بيدي قمتُ وأنا أقول له:

«لا تقترب مني»

أدرتُ ظهري له متجهةً إلى غرفة النوم، كنت أحتاج أن أجلس وحدي، صحيح أنني تعودتُ على فعلها معه منذ تزوجنا لكنني الآن أريد أن أجلس وحدي بدونه، أرغب في أن أبحث عن إجابات أسئلة كثيرة، أهمها لماذا حبستُ نفسي طوال عمري في دور المرأة الهشة غير الجديرة بأن تُخبَر بما عليها معرفته، لماذا سمحت لنفسي بأن أجلس دائمًا بجانب جدار ما وأبكي وأُصاب بالهلع في الوقت الذي يتعامل فيه من حولي مع الحياة بجَلَد، وكيف غفلتُ عن أخي يوسف حتى وصلت الأمور بينه وبين أبي إلى الاشتباه في أنه قتله.

أمسك إلياس يدي يستوقفني فسحبتها منه، لم أكن حانقةً عليه بقدر حنقي على نفسي! قال برجاء:

«لا يا أمينة أرجوكِ، صدقيني لم أُرد أن أُفزعك، لم أشأ أن أخبركِ بشكوكي حتى أتأكد»

استفزني كلامه فقلت بغضب:

«مِمَّ؟ من أن أبي قتل أخي؟ مَن تعتقدني؟ واحدة من موكليك يا حضرة المحقق الخاص؟! لا تريد إخباري حتى لا تُغامر باحتمال أن تكون تكهناتك خاطئة؟!»

ارتفع حاجباه دهشةً وقال مصدوما:

«ماذا؟! هل هذا ما فهمتِه حقًّا؟ أنني خفتُ على كبريائي كمحقق؟!»

وخزتْ قلبي نبرته المصدومة وتعبير وجهه العاتِب، كنت أقول أشياء غير صحيحة واستمررت في ذلك، لا أدري لماذا لكنني كنت غاضبة ولا أستطيع مواجهته بما أشعر به حقا وما أفكر فيه عن نفسي، فأجبته بنبرة صارمة وبسرعة:

«ليس هناك تفسير آخر لأن تُخفي عني أمرًا يعنيني إلى هذه الدرجة!»

قال بصوت لم أستطع أن أفسر إذا كان دفاعًا أو عتابا:

«بل هناك تفسير كنتُ أظنك واثقة منه؛ خوفي عليكِ!»

«لستُ طفلةً حتى تخاف عليَّ»

قال وهو يحاول التحكم في انفعاله:

«كل مرةٍ تكلمين فيها أباكِ أو تعرفين شيئًا عنه أرى في وجهك وتصرفاتك ومزاجك لأيام ما ينجم عنها من آثار سيئة، حاولت أن أمنع عنكِ كل ما يمكن أن يؤذيك!»

كان يريد أن يُفهمني ويجعلني أهدأ، ولكنه بدلا من ذلك ألقى في موقد غضبي حطبا أكثر، ضغطتُ قبضتي

بشدة حتى جرحتني أظافري، لم أقل شيئا، واتجهت إلى غرفة النوم وأغلقتها ورائي بالمفتاح، وهناك غرقت في مستنقع أفكار آسنة لم أتخيل يوما أن أترك نفسي فيه طواعية.

هل كنت أشكو قبل ساعة من قسوة الانتظار؟ الآن عندي ما أنشغل به من غير عناء في البحث، أفكر تارة في أخي الذي لا أعرف مصيره، وتارة في نفسي التي أكرهها الآن بشدة.

-١٣-

عبود

لن أنسى لهم أنهم أهانوا شيبتي وتسببوا لي في المتاعب، لا حبهان ولا ابنتها ولا زوج ابنتها سأسامحهم أبدا، ويوسف ذاك بالذات لن أسامحه أبدا ويستحق ما فعلتُ به.

عدتُ أخيرا إلى البيت مُنهكا بعد ساعات من التحقيق، لم تعد سني ولا صحتي تسمحان لي بهذا التعب، وليتهم قدروا هذا، لكن علامَ ألومهم وهم عيالُ حبهان! كنت جائعا وغاضبا، فاتجهت إلى المطبخ لأُسخن حساء القرنبيط الذي أخبرتني صفية أنها أعدته من أجلي، «على الأقل هناك من يفكر فيك يا عبود العجوز، لم يزل يوجد من يُتعب نفسه ويفعل شيئا من أجلك»، قلتُ لنفسي وأنا أبحث عن تلك القِدر، لم أجدها، هل كذبتْ عليَّ البنت؟! ما من قدر حساء على الموقد ولا في الثلاجة!

كنتُ أدور حول نفسي وأنا أسبُّ وألعن وأرثي سوء حظي في عيالي حين أتاني صوت حبهان من خلفي..

«ألا يمكن أن أراك إلا ساخطا!»

التفتُّ نحوها وأنا أود لو أطبقتُ يديَّ على عنقها فلم أتركها إلا بعد أن أُخرج روحها، لكنني تذكرت أن ليس

بوسع المرء أن يقتل شخصًا ميتا بالفعل، وحبهان كانت تكمن مناعتُها الآن في أنها ماتت فلم يعد بالإمكان كسرها، وكنت أرى ذلك في وجهها حتى قبل أن تموت، امرأة مستعصية لا سبيل لكسرها، وكلما حاولتُ كنتُ ألمحُ في عينيها نظرةَ «ماذا يمكنك أن تفعل لي؟ لا أعبأ»، هل يعود هذا لأنها جاءت من بلدٍ أقسى ما يمكن أن يحصل لناسه يحصل كل يوم بالفعل؟ لعنتُ اليوم الذي فكرتُ فيه أن أتزوجها.

كانت آثار النعاس واضحةً على وجهها وعينيها، تقف على باب المطبخ بمنامتها البيضاء وشعرها الرمادي محلول الضفيرة، سألتُها بحنق:

«ما الذي تريدينه مني يا حبهان؟ لستُ في حالٍ لأحتملك!»

قالت بلا مُبالاةٍ وهي تدلف لتتناول إبريق الماء عن طاولة المطبخ:

«لا أريد منك شيئا، لقد صحوتُ على سبِّك ولعنك يا رجل!»

زفرتُ بضجر ولم أرد، شربتْ كأس ماء ثم قالت:

«ماذا تفعل في المطبخ في هذا الوقت؟»

كانت الساعة على الجدار المقابل تُشير إلى الواحدة

والنصف بعد منتصف الليل، قلتُ بحنق:

«لقد ضحكتْ عليَّ ابنتُك، أخبرتني أنها طبخت حساء قرنبيط من أجلي والآن لا أجد شيئا!»

قالت بنفس اللا مُبالاة:

«لم تضحك عليك، لقد وجدتُه بالفعل لكنني وضعتُه لقطةٍ وعيالها جاءوا إلى البيت اليوم»

لم أفهم للوهلة الأولى، أي قطة وأي عيال أطعمتهم غدائي؟ سألتها بغضب:

«نعم؟ ما الذي فعلتِه؟ ماذا فعلتِ بالحساء؟»

قالت وهي تخرج من المطبخ إلى غرفة المعيشة دون أن تكلف نفسها عناء التوقف أو النظر إليَّ:

«وضعتُه أمام القطة وعيالها. بالمناسبة؛ لقد قررتُ الاحتفاظ بها والاعتناء بصغارها، اسمها زعتر، لم أقرر أسماء صغارها بعد»

انفجرتُ فيها:

«لعنة الله عليكِ وعلى القطة وعيالها، على جثتي أن تعيش هنا!»

قالت بنفس هدوئها وهي تضع نظَّاراتها الطبية وتتناول الإبرة وكرة الصوف من المنضدة عن شِمالها:

«أنا لا آخذ رأيك فيما أفعله في بيتي يا عبود، أخبرتُك فقط حتى تنتبه أثناء دخولك وخروجك بالسيارة، وكذلك حتى تحسن معاملتهم لأنهم ما زالوا خائفين ولم يتعودوا على المكان بعد»

وشرعت تغزل دون أن ترفع عينيها عن غزلِها، زاد ذلك من اشتعال غضبي ولم أدرِ كيف يمكن أن أثأر لكبريائي منها وهي لا تبالي بي إلى حد أنها لا تنظر إليَّ وهي تكلمني، قلتُ:

«لقد أفلت عيارك تماما، تتخلصين من غدائي وتضعينه للقطط، ولا تهتمين لعودتي متأخرا بعد منتصف الليل ولا تقلقين، لا تُعدين لي طعامًا ولا تسألينني إذا كنتُ بخير، وفوق هذا كله تُدخلين قططًا إلى البيت وتقولين لي لا أستأذنك وهذا بيتي! يا لك من امرأة ناقصة!»

توقفت يداها عن الغزل فجأةً ووضعت الإبرة والصوف على المنضدة الجانبية، سرتْ في بدني رجفةٌ حين رفعتْ عينيها وحدقت في وجهي بتعبيرٍ لم أفهمه، لا أعرف ما كنت أشعر به ساعتها بالضبط؛ هل أردتُ أن أسحب كلامي وأعتذر منها؟ هل أردتُ أن أقول المزيد وأسبها وألعنها وأدفع عجلة الشر إلى نهايتها؟ لا أدري!

لم يطُل صمتُها، نهضتْ من كرسيِّها وسارت نحوي خطوات حتى لم يبقَ بيني وبينها إلا بقدر ما تمدُّ ذراعها

أو أمد ذراعي، زفرتْ زفرةً حدستُ منها أن شيئًا سيئًا سيحدث، قالت بصوتٍ هادئ هدوءًا مخيفا:

«هل تدري مَن الناقص يا عبود؟»

وسكتتْ بُرهةً كأنما تمنحني فرصةً للتفكير قبل أن تُجيب، ثم أردفت:

«بالضبط، أنت تعرف في قرارة نفسك، كلانا نعرف لكنني لم أرغب يومًا في مواجهتك بما أعرفه وتعرفه، أردتُ دائمًا أن أحافظ على صورتك وأحفظ كرامتك، ليس من أجلك صدقني؛ لأنني كففتُ منذ سنواتٍ طويلة عن المبالاة بك لذاتك، وإنما من أجل أبنائي، وكن متأكدًا من أن أيَّ معاملةٍ طيبة أو تغاضٍ عن مساوئك كان من أجلهم فقط؛ حتى لا يشعروا بالسوء إذا رأوا أباهم قليلا في عين أمهم، لكن يبدو يا عبود أن سكوتي لك وتغاضيَّ عن نقصك الذي تعرفه جيدًا قد أغراك بالتمادي..»

هممتُ أن أفتح فمي لكنها رفعتْ يدها أمامي في حسم فلم أستطع أن أنطق، قالت بنفس النبرة الهادئة ولكن وهي تضغط على الكلمات كأن الضغط عليها يؤكدها:

«إياك يا عبود، إياك أن تسمح لنفسك بعد اليوم بإهانتي أو أن تفكر في طردي، وأنصحك أن تفكر كثيرا بعد الآن قبل أن تقول لي اذهبي، وأنصحك كذلك ألا

تنسى نفسك وألا تحاول أن تنسى ما أنت عليه، هذا البيت ليس لك، وإذا كان خيالُك يصور لك أحيانًا أنه يمكن أن يصير ملكك فعليكَ أن تصحو من أحلامك؛ لأن النوم الطويل ليس جيدا لعقلك»

شعرتُ بالغيظ وحقدتُ عليها، ولم أدرِ بنفسي إلا وأنا أخبطُها بقولي:

«قد لا يكون هذا البيت لي الآن، لكنه لم يعد لكِ أيضا»

ضحكتْ ضحكةً أخافتني، وكلُّ ضحكها يخيفني لأنه ليس من الجيد أن يضحك لك شخصٌ ميت في العموم، فماذا لو ضحك في محادثةٍ من هذا النوع! قالت بتحدٍّ:

«لماذا؟ هل قمتَ ببيعه بخدعةٍ من خدعكَ الرخيصة؟ على ذكرِ الرُّخص؛ هل هذا ما كنتَ تبحث عنه قبل أيام في غرفة إبراهيم؟! وثيقة ملكية البيت؟!»

تلجلجتُ لوهلة؛ إنها تعرفُ إذًا أنني أبحث عن شيء، هل هذا سر انقلابها المفاجئ ضدي؟! لكن من أين تعرف؟ لقد كنتُ حريصًا ألا أبحث إلا عندما أتأكد من أنها نائمة، من أين عرفت؟ ليس هذا ما يهم الآن، المهم ألا أدعها تنتصر عليَّ. قلتُ بنبرةٍ حرصتُ أن تكون متحدية أيضًا وكأن جملتها الأخيرة لم تُربكني:

«سواءً وجدتُ ما أبحث عنه أو لم أجدْه فإن هذا البيت

لم يعد لك»

هزت رأسها ورفعت حاجبيها ساخرةً، فقلتُ بتشفٍّ:

«لأن أملاك الأموات لا تعود لهم بعد أن ينزلوا تلك الحُفر، وأنتِ نزلتِها»، وأضفتُ وأنا أضغطُ على الحروف: «أنتِ ميتة، والميت لا يعود يملك شيئا»

تلاشت الابتسامة عن وجهها ببطء؛ كأنَّها تزنُ كلامي عن الموت هذه المرة فترجح كِفَّته شيئًا فشيئا، هل جدَّ شيءٌ جعلها تفتح باب عقلها للفكرة بدلا من السخرية منها؟ أصلًا من العجيب ألا يكون قد حدث شيء، إنها امرأةٌ ميتة والجميع يعرف هذا، فما الذي تبقى حتى تُدرك هي نفسُها الأمر؟ كانت عيناها تحدقان فيَّ بشك، ليكن، حتى هذا الشك هو مكسب في حد ذاته، عندما أخبرتها في المرة الماضية بأنها ميتة ضحكتْ طويلا كأني أخبرتُها بنُكتة، على الأقل باتت تشك الآن، وليس عليَّ سوى أن أضغط على ذلك الشك وأضغط حتى ينفجر فيها. قلتُ بثقة:

«نعم يا حبهان، أنتِ ميتة، لم يعد لكِ وجود، لم تعودي تملكين شيئا من كل هذه الأشياء اللعينة التي تزدهين بها، أنتِ ميتة، مجرد ميتة حقيرة تأكلها الديدان الآن في حفرةٍ على بعد عشرين ميلا»

كانت ساكنةً تستمع دون أي رد فعل، وأخيرًا ارتسمت

على وجهها ابتسامة ساخرة من جديد وقالت:

«أنا أعرف ما تُحاول أن تفعله!»

سكتُّ غيرَ فاهمٍ ما تقصد، اتسعت ابتسامتها أكثر وقالت:

«أنت تسعى لإصابتي بالجنون كي يسهل لك الاستيلاء على البيت!»

ضحكتُ ضحكةً صفراءَ حرصتُ على أن تحمل كل ما يمكنني من ثقة وقلتُ:

«هذا ما تقولينه لنفسك كل يومٍ إذًا! هل تعرفين أنني أفهم ما تحسين به؟ إي والله أفهمك الآن جيدا!»

أثَّرتْ فيها تلك الضحكة أكثر مما كنت أظن، أربكها ردي فاضطربت ملامحها، وبدأ بؤبؤا عينيها يتحركان حركةً سريعةً مُتوترة كعادتها عندما تضطرب، أحسستُ لأول مرة بالانتصار، وشجعني هذا على المضي أكثر واستغلال هذا النصر، فزممتُ شفتيَّ ورسمتُ على وجهي تعبيرا مشفقا وقلتُ بأكثر نبرةٍ ساخرةٍ في الوقت نفسه:

«كم هو مؤسف أن يكتشف المرء فجأة أنه قد مات، وأنه يرقد الآن في حفرةٍ معتمة يأكل جسمه الدود دون أن يقدر على فعل شيء، وأنه أصبح مُجرَّدًا فجأة من كل شيءٍ حصل عليه في حياته وكان ذا قيمة، من عياله

الذين كان يفخر بهم، ومبادئه التي كانت تُرضي كبرياءه، وحتى بيته الذي يحبه كثيرا ويحرص عليه حرصَه على عينيه!»

انقبضت ملامحها أكثر فأكثر، ران الصمتُ لحظاتٍ ثم قلتُ من جديدٍ أطرقُ الحديد وهو ساخن:

«إنني أشفق عليكِ حقًّا؛ الجميعُ يعرف أنك ميتة إلا أنتِ، هل تواصلتِ مع أي أحدٍ سواي منذ ثلاثة أشهر؟ هل جاءت ابنتك الكبرى إلى هنا أو عانقتِ ابنتك الصغرى عندما تجيء؟ هل هاتفتِ ابنتك الوسطى وردت عليكِ؟ ورغم ذلك ما زلتِ تُكذِّبين كل ما يدل على أنك ميتة، وما زلتِ تلتصقين بالبيت كأن بقاءك فيه سينفي هذه الحقيقة، كأن وجود شبحك هنا سينفي أنك لم تعودي موجودة!»

ضغطتْ بأسنانها على شفتها السفلى، قالت بصوت شارد كأنه يأتي من بعيد جدًّا:

«هناك أمرٌ لطالما أردتُ إخبارك به يا عبود»

سكتتْ هنيهةً ولم أُبدِ أي رد فعل، فأردفت وقد ثبتت ملامحها:

«منذ زمنٍ بعيد وأنا أود أن أقول لك أنك رجلٌ قذر»

شعرتُ بالغيظ، لكنَّ ما هوَّن عليَّ أنها أهانتني من شدة

ما كانت تشعر به من أسف على نفسها، وعندما خطر لي ذلك ضحكتُ إمعانًا في التشفي. أكملتْ بنفس الملامح الثابتة كأنها مُسجَّل:

«طوال عمرك وأنت إنسان وصولي وعينُك على ما ليس لك، يحلو لك كل ما لغيرك، ومثل كائن طُفيليٍّ قذر تحطُّ على الآخرين وتعمل بدأب على تجريدهم مما يملكون»

ازداد حنقي عليها لكن لا؛ لن أسمح لها أن ترى على وجهي أنها نالتْ مني، فاتسعت ابتسامتي أكثر بينما هي تواصل:

«في السابق لم تكن تُصرِّح بمطامعك بهذه البجاحة، كنتُ أعرف أنك دنيء وكنت تعرف أني أعرف، لكن لم يكن ذلك ليهمَّ رجلا بلا كرامةٍ مثلك، أما الآن فقد خلعت برقع الحياء وصرت تتكلم بالمكشوف»

هممتُ أن أبطش بها لكنها لم تترك لي فرصة؛ اقتربت مني فجأة حتى لم يبقَ بين وجهها ووجهي أكثر من مسافة إصبع، وقالت لي بصوت بثَّ في الرعب:

«وبما أنك تكلمت بالمكشوف وفضحتَ نفسك الدنيئة بنفسك فأنا أيضا سأكلمك لنوبة شجاعتك هذه»

كانت عيناها مثبتين في عينيَّ، لم أجرؤ على الإشاحة بنظري ووددتُ لو لم يحصل هذا كله، قالت:

«تقول أنني الآن امرأةٌ ميتة، أليس كذلك؟! لكن ما أجمل هذا! ما أجمله حقًّا! هل تعرف ماذا يعني أن أكون امرأة ميتة؟!»

هززتُ رأسي بالنفي، فاقتربت من أذني وقالت بهمس جعل الرعب يدب في أوصالي:

«يعني أن بوسعي أن أقتلك دون أن أُحاسب، ستموت بلا ديةٍ يا عبود!»

سرى ذلك السائل الدافئ بين رجليَّ، ويبدو أنها أحست بذلك، فابتعدت ونظرت إليَّ بتقززٍ واحتقار وقالت:

«لا ترتعب إلى هذا الحد، لن أقتلك الآن، لا أنوي أن أُسدي إليكَ راحة الموت بسرعة!»

ثم ابتعدت خطوتين إلى الوراء وهي تضع يدها على أنفها باشمئزاز وقالت بابتسامةٍ صفراء مخيفة:

«ألستُ ميتة؟ للأشباح طرقٌ أخرى للقتل يا عزيزي، استعد لتتعرف عليها».

ثم تركتني وذهبت إلى غرفة النوم، ولم تنم عيناي تلك الليلة.

المذكرات

لم تكن الحياةُ سهلة بعد موت يوسف، أوحش البيت عليَّ أنا وخالتي أم صالح؛ امرأتين أرملتين فجأة في مهب هذه الحياة الكبيرة، غريبتين في بلد غريب مع طفلٍ يتيم والكثير من الحزن، لكنها كانت تتماسك من أجلي ومن أجل يوسف الصغير، وأنا بدوري لم أكن أملك رفاهية الانهيار؛ فأمام امرأة ستينية فقدت زوجها وابنها في عام واحد وداهمتها أمراض الشيخوخة كلها فجأة ليس بوسعك أن تحزن؛ لأن الحزن سيُضعفها ويُسقطها، ولم أكن مستعدةً لخسارة آخر من تبقى لي من أهلي، ولا لأن أواجه الدنيا وحدي مع ابني الصغير وأنا بعدُ لم أستوعب تمامًا فكرة الأمومة.

أتساءل الآن كيف لو أن خالتي أم صالح لم تكن موجودة في حياتي بعد موت الجميع، هل كنت لأصمد؟ لا أظن! كم مرة أنقذتني تلك المرأة عندما كنت على حافة اليأس، وكم مرةً ردتْني إلى صوابي حين كنت أفقده وأشعر بالغرابة فجأة ولا أتعرف على نفسي، لو قيل لي في تلك الأيام «ستعيشين يا حبهان وستتخطين الستين ويصبح عندك أبناء غير يوسف» ما صدقت، لكن هذا ما حدث، وهذا ما أنا عليه الآن، امرأة ستينية أمٌّ لثلاث بناتٍ وولدين، أجلسُ على أريكةٍ في صالة بيتي بعد منتصف ليلة ماطرة أكتب حكايتي دون أن أعرف من

سيقرؤها، وأفكر طويلا وأسأل نفسي كيف مرَّت كل تلك السنين منذ تلك اللحظة التي جلستُ فيها على رُكبتيَّ وأكلتُ قطي الأليف؟! لا أعرف حقًّا، الحياة غريبة، هذا ما يبدو لي الآن وأنا أنظر إلى جسدي الذي بَدُنَ وغزته أمراض الضغط والقلب والسكر وآلام المفاصل فلا أعرفني، من أنتِ حقًّا يا حبهان وأين أنتِ؟! ماذا تفعلين هنا أيتها المرأة الحزينة؟! وأنظر حولي كأنني أُمرِّرُ ذاكرتي على تفاصيل البيت الذي عشتُ فيه أكثر من أربعين عامًا، أريد الآن شيئًا أتشبث به، لا شيء؛ لا وطنَ ولا بيتَ والأبناء ذهبوا، أبسطُ يديَّ الفارغتين أمامي وأتأملُهما، ماذا تبقى لي غيرُ هذا البيتِ في وطن مسروق وذاكرةٍ تتفلتُ منها صورة وطنٍ رفضتُ أن أدخلَه لأول مرةٍ بختمِ سارقِه على جواز سفري. هل هذا بيتي حقًّا؟ وهل ما يجعل البيتَ بيتًا أن تَرِثِيه من أبٍ اشتراه بحُرِّ ماله؟ أم أن الوطن هو ما يجعل المباني بيوتا؟ وهل أنتمي إلى هذا البلد الذي عشتُ فيه ثلاثةً وأربعين عامًا أم إلى البلد الذي أخرجوا أبي منه ولم أرَه؟ أسئلةٌ كثيرة مُراوغة وأنا امرأةٌ مُتعبة هشَّت مفاصلها عن أن تحتمل الركض خلف إجاباتٍ لا تُمسَكُ في اليد. عندما مات أبي كان آخر ما أخبرني به أنه لم يستطع أخذ مفتاح بيت أبيه في قريةِ السِّنديانةِ بفلسطين، بكى بقهرٍ وقال: «لم أكن أعلم أنهم سيقصفون البيت، لو كنتُ أعلم لعلّقت المفتاح على وسطي كما كان يفعل جدك»، هوَّنتُ عليه الأمر ولم

يهُن، ومات وهو يشعر بالذنب لأنه ترك المفتاح، أتذكر ذلك الآن وتُعاودني كلمة جدي سعد: «المفتاح معي لكنَّ الدار ليست معي»، وأجدني بين رجلين أحدهما يبكي الدار التي طُردَ منها والآخر يبكي مفتاحها الذي ضاع منه، وأنظر إلى نفسي فلا أجد شيئًا تبقى لي أنا، حبهان، من ذلك الوطن الذي بكَيَاه، لا رأيتُ الدار ولا أحمل مفتاحها، لكنني أتساءل هل ضياعُ المفتاح يُسقط حقي في دار أهلي ووطني؟ وأبتسم لأول سؤال أعرف إجابته، وأنظرُ إلى التاريخ فيُخيَّلُ إليَّ أنه يومئ لي موافقا، فأعود أنظر إلى الأشياء من حولي وإلى هذا البيت في هذا الوطن الذي ليس لي، فأقول لنفسي أن المبادئ لا تتجزَّأ، وأنني أتمسك بما أملك كما أتوق إلى ما حيلَ بيني وبينه، ويداهمني الصوت الذي في رأسي: هذا ليس وطنك! فأقول: لكنه ليس وطنهم أيضًا، على الأقل أنا هنا كلاجئةٍ ولم أزعم يومًا أن الأرض لي، ويخطر لي مارت واعتذار ماري له قبل أن يهزمها سرطان الثدي:

«أنا آسفة يا بني لأن أجدادي سرقوا هذه الأرض من أجدادك وأبادوهم، وأتمنى أن أكون بأمومتي لك قد كفَّرتُ عن ذلك الذنب الرهيب!»

صديقتي ماري التي لم يُساعدها رحمها لتصير أُمًّا فتبنَّت طفلًا يتيمًا من السكان الأصليين بعد أن تجاوزت

الأربعين وحاربت أهلها من أجله، ثم ماتت ليجد نفسه بلا أهل مرة أخرى ولم يبلغ السادسة عشرة بعد، وضعتْ أمامي أخيرًا إجابة صحيحة لسؤال آخر، أبتسم برضى ثم أعود إلى الأوراق النَّهمةِ للحكاية من جديد.

كانت حياتنا قد استقرت أخيرًا في تلك الأيام، لم يتبدد الحزن ولكنه أصبح أليفًا لا يخمش، وأصبحنا أنا وخالتي أم صالح ندور حول يوسف الصغير، حتى إننا كنا نتشاجر بسببه أحيانًا، تسقيه منقوعَ أعشابٍ غريبة قائلةً أنها تُقوي مناعته فأعترض ونتخاصم، أو أصطحبه معي إلى المدرسة في يومٍ بارد رغم اعتراضها خوفًا عليه فنتخاصم أيضًا، لكننا ما نلبث أن ننتحل الأسباب من أجل الصلح الذي لا يطول، شدٌّ وجذبٌ أضفى على حياتنا الوادعة الساكنة نوعًا من الحركة المحببة المجنِّبة للملل، حياتنا التي كانت تتفتح فيها وردة كلما نطق يوسف كلمةً جديدة أو تعلم حركةً من حركات الكبار أو أعلنت تصرفاته عن ذكاء ما، أو تبدى فيه شيئًا فشيئًا شبهه الكبير بأبيه في الشكل والطبع والسلوك، نتبادل نظراتٍ مبللةً أنا وخالتي، نبتسم، وتضع إحدانا يدها على قلبها كأنها تُرسل سلامًا ليوسف الذي هناك. تقسم لي خالتي أن صوت يوسف الصغير هو صوت أبيه عندما كان في مثل سنه، لا يسعني أن أؤكد هذا أو أنفيَه بطبيعة الحال، لكنني أتلقف هذه الشهادةَ بلهفة وأستنتج منها أن صوته عندما يكبر سيصير صوتَ أبيه إذًا، تدمع عيناها وتقول:

كلُّه هو، الولد سر أبيه!

لكنَّ هذا الاستقرار الوادع لم يدُم، وكسرَه عبود بدخولٍ صادم غير متوقع، كان مساعد أبي في مطعمه منذ سنوات، ولسنين طويلة تساءلت: كيف أمكن لأبي، الرجل الحصيف الحذر، أن يثق في هذا الشخص! لقد تمكَّن من أن يُصبح يده اليمنى بعد فترة قصيرة من عمله في المطعم، وبعد أن مات أبي لم يكن أمامي خيارٌ آخر غير أن أُسند إليه إدارته. صرتُ أراه مرةً كل أسبوع على الأقل، أمر على المطعم للتفقد وأُحصِّل الإيراد وأُبدي بعد الملاحظات أو أُطالب بتعديل هذا أو ذاك من تفاصيل قائمة الطعام أو تقديم الخدمة، مع الوقت أحببتُ المطعم جدًّا، ونمت في داخلي رغبةٌ صادقة في أن أُديره بنفسي، لكن هذا لم يكن ممكنا في وجود طفلٍ صغير يستغرق كل وقتي الفائض من وظيفة ليست سهلة، ولهذا قنعتُ من هذا الميل بالإشراف وتكثير الزيارات التي كان عبود فيها يُبدي أقصى ما يستطيع من التهذيب تجاهي واللطف تجاه يوسف في المرات التي أصطحبه معي.

عندما أتم يوسف ثلاث سنوات فوجئتُ بعبود يعرض عليَّ الزواج، كنا في المطعم وكنت قد رفضت طلبَه أن نجلس في مكانٍ آخر ليكلمني في أمر هام، لم أكن أبغضه وما من أسبابٍ ملموسة تبدت لي فيه تجعلني أتخذ منه موقفا سلبيا، لكن شيئًا ما فيه كان يستفزني،

ربما كان تهذيبه المبالغ فيه، أو لطفه المتكلَّف، أو نظراته المتزلّفة، شيءٌ مُبهم كان يُحذِّرني منه، ولربما لو استطعتُ فهم ذلك الشيء في تلك الأيام لأمكنني أن أُميز أن شعوري ذاك كان فراسةً صادقةً لا سوء ظن.

لم يكن استغرابي طلبَه عائدًا إلى غرورٍ أو أني كنت أراه أقل من طلب كهذا مثلما قال لي مراتٍ عدة بعد ذلك، ولم يكن كذلك لأنفتي أن أتزوج هذا الرجل ذا الأنف الأفطس والملامح غير المتناسقة بعد أن كنت زوجة رجل وسيم كيوسف، وإنما كانت غرابة طلبه في طريقته، لم أتخيل أنني قد أشاهد رجلًا يطلب الزواج من امرأة كأنه يستجديها، كان ذلك مختلفًا تمامًا عن تصوري للرجال وما فيهم من أنفةٍ محمودة، عندما قلتُ ذلك لخالتي أم صالح أخبرتني أنني أسيء الظن في رجل طيب، وأن تصوري ذاته -أن الرجال كلهم صورة واحدة- خاطئ. المهم أن الوقع الأول لطلبه كان صادمًا لي بشدة، ألأني لم أتخيل أن أتزوج بعد يوسف؟ أم لعدم استساغتي ما كان في نبرته من استجداء في موقفٍ كهذا يتطلب كل ما في نفس الرجل من عزة؟ لا أعلم، ولعله لذلك لم ينسَ قطُّ رد فعلي ذاك، وظل يُلوِّح به في وجهي في كل خلافٍ كأنه يُذكرني بغلطة قديمة، أو يُثير فيَّ الشعور بالذنب نحوه. كان أول ما نطقتُ به بعد أن عرض عليَّ الزواج:

«ما الذي تفعله بحق الله؟!»

ارتبك وأُلجم لثوانٍ قبل أن يستجمعَ نفسه ليقول من جديد:

«ما يفعله جميع الرجال، أطلبُك على سنة الله ورسوله، صحيح أن مقامكِ أعلى، والمقامات ستظل محفوظةً طبعا، لكن..»

قاطعتُه باستياء:

«كُفَّ عن ذلك يا سيد عبود!»

ليست نبرته فقط؛ بل حتى نظراته المُتمسكنة كانت تبعث فيَّ شعورًا غريبًا بالنفور. سكتَ من جديد ولاح الاضطراب على وجهه، قبضتُ على كفِّ يوسف الصغيرة حتى تألم ولم أنتبه إلى أنه كان يحاول تخليص يده مني فبكى عندما لم يستطع وازداد ألمه، كل ما كان يسيطر على شعوري ساعتها أن هذا الرجل، بطلبه الغريب ذاك، كان يُشكل تهديدا لعلاقتي بابني بشكلٍ ما، فقبضتُ على تلك الكفِّ الصغيرة كأنني أتمسك به وأدافع عنا معا، عندما أتذكر كل ذلك الآن أستغرب شيئين وأضحك لأعاجيب القدر، الأول أنني لم أفهم بعدما عُدتُ إلى البيت شعوري ذاك بالتهديد ولا سببَه فاقتنعتُ أخيرًا بأنه كان خوفًا مبالغًا فيه؛ خاصةً مع لطف الرجل الزائد مع يوسف، والثاني أنني اكتشفت فيما بعد أن ذلك الشعور

كان صحيحًا!

انتبه هو إلى تألم طفلي بينما كنت أشدُّ قبضتي عليه أكثر فأكثر وألتقط حقيبتي عن المنضدة القريبة استعدادًا للرحيل، اعترض طريقي وهو يضع يده على رأس يوسف وقال:

«إنكِ تؤلمين الطفل يا أستاذة!»

نظرتُ إليه فراعتْني الدموع الغزيرة على وجهه، أرخيتُ قبضتي، وقبل أن أفعل شيئًا آخر لإصلاح تصرفي السيء غير المقصود كان عبود قد نزل على ركبتيه وراح يمسح دموع الصغير ويُلاطفه، بدأ يوسف يهدأ، سأله عبود إذا كان يرغب في تناول قطعة كنافة لذيذة فأومأ على استحياء، لكنني سحبتُه بسرعةٍ وخرجتُ متذرعةً بضرورة العودة إلى البيت في الحال.

لم يستسلم، وظل موضوع الزواج مفتوحًا لعامٍ كامل، لم أخبر خالتي بالأمر، ليس فقط لسخافة وقسوة أن أقول لها أن رجلًا يريد أن يتزوج أرملة ابنها، وإنما أيضا لأني كنت منزعجةً للغاية منه ولم يخطر لي مجرد خاطر أنني قد أتزوج بعد يوسف. لكنه لم يتوقف عند حد تجديد عرضه في كل مرة أذهب إلى المطعم؛ رغم تقليلي الذهاب إلى هناك تجنبًا له، بل جاء إلى البيت في غيابي وطلبني من خالتي أم صالح! طلبَ امرأةً من أم زوجها الميت!

غضبتُ بشدة عندما أخبرتني بالأمر، رأيتُه تعديًا غير مقبول منه بعد ردي الحاسم عليه أكثر من مرة، لكنني فوجئتُ بخالتي تُلح عليَّ للتفكير فيه، ولا أدري ما فعلَ لها حتى راحت تُقنعني به وتُعدد لي فيه محاسنَ لم أرَها، كنتُ في ذلك اليوم مُتلَفة الأعصاب تمامًا بسبب مشكلةٍ جديدة بيني وبين حنَّة؛ امرأة يهودية بغيضة لا أدري من أين خرجت لي، ويُمكن تخيل العداوة الحتمية ومستوى إلحاح المشاكل بين امرأتين إحداهما فلسطينية لاجئة والأخرى مؤمنة متطرفة بالصهيونية تكره العرب والمسلمين، ومن سوء حظي أن القدر جمعني بها في نفس المدرسة، والأدهى أنها كانت مُنافستي على الترقيات، فلم يكن أمامي إلا أن أستسلم وأنسحب من تلك الحرب تجنبًا لا جُبنًا، أو أن أقبل بها وأستشرس في مواجهة امرأة كنت أرى فيها أسباب كل شيء سيء حدث لي في حياتي؛ بدءًا من كوني لاجئة مسروقة الوطن من الجماعة التي تنتمي هي إليها، وانتهاءً بمقتل زوجي في جريمة كراهية كانت تحضُّ عليها. بكل هذا الغضب إذًا عُدتُ إلى البيتِ في ذلك اليوم، فماذا فعلتْ فيَّ سيرة عبود؟ جعلت الأمور أسوأ، فلم أشعر بنفسي إلا وأنا أنفجر صارخةً في وجه خالتي أم صالح وأتهمها بنسيان ابنها وأتساءل كيف يمكن أن أكون أوفى لذكراه منها، ندمتُ بشدةٍ فيما بعد، لكن لا يمكنك استرجاع الكلمات الحارقة بعد أن تُطلقها.

لم تغضب مني ولم تُعاتبني، بل انتظرتْ حتى هدأتُ وكلمتني بلسانٍ آخر، بسطتْ أمامي كل مخاوفها دفعةً واحدة؛ من أننا امرأتان وحيدتان في بلدٍ غريب، ومن أنها عجوزٌ على حافة القبر ولا تريد الذهاب من الدنيا حاملةً قلقها عليَّ وعلى يوسف الصغير، ومن خوفها أن تخون الأمانة التي تركها لها ابنُها وأبي لتحتفظ بي إلى جانبها، تكلمتْ كثيرا وبشكل موجع، ونجحتْ في أن تُدخل مخاوفها كلها في قلبي قبل أن تغادر غرفتي طالبةً مني أن أمنحه فرصة حتى تطمئن عليَّ وعلى يوسف.

وافقتُ بالفعل، من أجلها ومن أجل ابني، وبعد ثلاثة أشهر تزوجت عبود وانتقلتُ معه إلى بيت أبي، وأضحك الآن بمرارةٍ عندما أُدرك أن خالتي أم صالح التي دفعتني نحو عبود لأنها كانت مملوءةً بهواجس الموت السريع وتركي وحفيدَها وحيدين فجأة، عاشت بعد ذلك اليوم ستة عشر عامًا وهي مَن ربَّتْ حفيدها الذي لم يهدأ عبود إلا بعد أن تخلص منه!

بعد زواجي بأسبوع قدِم صالح إلى أمريكا، كنتُ في بيت خالتي، وأمامها عرض عليَّ الزواج وأبدى استعداده لأن يعود للاستقرار هنا إن أنا وافقت، جمَّدتْنا الصدمة؛ خالتي من طلب ابنها وأنا من أنها لم تُخبرْه في أيٍّ من رسائلها إليه أنني تزوجت، وكانت لحظةً من لحظات حياتنا العصيبة، وأجزم أن خالتي كانت تفكر في أيِّ خطأ

-١٤-

إلياس

حاولتُ كثيرًا أن أشرح لأمينة لكنها لم تستمع لي، تمرُّ الساعاتُ وهي مغلقة على نفسها باب الغرفة من الداخل ولا ترد على نداءاتي ولا توسلاتي، لا أفهم تمامًا سبب غضبها مني إلى هذا الحد رغم أنني ما أخفيتُ عنها إلا لخوفي عليها وشدة حبي لها، ورغم عدم فهمي أشعر الآن أني من تسببتُ في الحال التي هي عليها الآن في هذا الوقت الصعب الذي تمر به؛ فبينما تنتظر نتيجة المحاولة الأخيرة الممكنة في طريق الأمومة لم يكن ينقصها أن تكتشف إخفائي عنها أمرًا كالذي أخفيتُه، لكن ما الذي كان بإمكاني فعله غير ذلك؟

يجرفني التفكير إلى سؤال لم يراودني من قبل: هل يا تُرى نتكلم أنا وأمينة لغاتٍ مختلفةً للحب؟ لم أشعر بذلك قبل هذه اللحظة وكأنني أكتشفه الآن فقط، أسأل نفسي وأود أن أسألها لماذا تكون محاولاتي دائمًا غير كافيةٍ لتجعلها أفضل حالا؟ إنني أبذل جهدي وفي المقابل تُبدي امتنانها دائما، لكن ما على الامتنان أردت أن أحصل، بل على الشعور بأن هذا الجهد يُجدي حقا، فما فائدة أن تمتن لي امرأة على محاولاتي التي لا تنفعها؟ لربما لا تدرك أمينة الأثر الجارح لكل مرة أراها فيها حزينة أو خائفة رغم وجودي وسعيي لتجنيبها

كل ما يؤذيها، من المؤكد أنها لا تدري ولا تتعمد أن تُشعرني بقلة الحيلة وعدم الجدوى، لكنني تعبت؛ لا من المحاولة من أجلها، بل من كل مرةٍ أخيبُ فيها فيكون عليَّ إعادة ترميم رجولتي المجروحة وشعوري بالكفاية.

أقول لو أن المحاولة تنجح هذه المرة، لو أننا نحظى أخيرا بطفل، لربما تستقر نفسها وتنحلُّ الكثير من المشاكل، سيكتمل النقص الذي خلَّفه فشل محاولاتنا السابقة وتجدُ سكينتها، وأُصبح أبا يراقب طفله بشغف كل يوم ويسمع تلك الكلمة السحرية، أقول لو أنَّ عذابنا هذا ينتهي نهايةً سعيدة لربما يصير كل شيء أفضل، لكنني أنفض الفكرة عن دماغي لأنني أعرف أن الأمل أكثر القتَلة وحشية، وأدعو في أعماقي أن تمر هذه الأيام على خير ونتصالح مع ما بعدها مهما كانت النتيجة، ثم يُريحُني أن هذه هي المحاولة الأخيرة؛ نهايةُ حربِ استنزافِنا التي دامت أكثر من ست سنوات وأنهكتنا تماما.

عندما يئستُ من أن ترد عليَّ أو تخرج من غرفتها أحضرتُ دفتر المذكرات من المكتب وجلستُ أقرأ على الأريكة في مواجهة الباب، عين في الورق وعين تريد أن تنفذَ إلى ما وراء ذلك الخشب لتراها، كان تركيزي مشتتًا ورأسي تتناهشه أفكار كثيرة، أقرأ السطر مرةً واثنتين وثلاثا، وعندما أصل إلى نهاية الصفحة أكتشف

أنني فقدت خيط الحكاية فأعود إلى أولها. قضيتُ ما تبقى من الليل على تلك الحال، غفوتُ في مكاني حتى الصباح، عندما استيقظتُ نظرتُ إلى الباب فوجدته مغلقا، أُصبتُ بخيبة أمل، لكنني حين نهضت من الأريكة انتبهتُ إلى الغطاء الذي لم يكن هنا حين نمت، يبدو أن أحدًا ما تسلل ووضعه عليَّ، ابتسمت وزال عني هم خصامها الذي بدا لي في تلك اللحظة صغيرًا في مواجهة المحبة.

جلستُ حتى الضحى في المكان نفسه، أعدتُ قراءةَ ما كنت قرأتُه أمس بتركيز أكبر زاد من حجم تأثيره في نفسي، وكأنني لم أكن أقرأ المكتوب أمامي. قطع قراءتي رنين هاتفي، كان ضابط الشرطة، أجبتُ متلهفًا لما سيخبرني به، أخبرني بأنهم لم يجدوا أي شيء في بيت حماتي لكنهم اكتشفوا أن الدم الذي كان في المرأب دمٌ بشريٌّ بالفعل، وأنهم استدعوا حمايَ للتحقيق، وعرض عليَّ أن أحضر التحقيق معه إذا كنت أرغب، شكرتُ له ذلك وأكدت أنني سأكون عنده خلال ساعة على الأكثر. ورغم أني كنتُ أحدس أن عمي عبود فعل شيئًا ليوسف فقد كنتُ أتمنى ألا يكون هذا صحيحا، فانقبض قلبي عندما أكد الضابط لي مخاوفي.

أخبرتُ أمينة من وراء الباب أن عليَّ الخروج لكنني لم أخبرها بوجهتي، حملتُ دفتر المذكرات معي وخرجتُ

متعجلًا أرغب في طيِّ الأرض، بعد أقل من ساعة كنت في مكتب الضابط، تحدثنا قليلًا أولًا وأعاد عليَّ بشيء من التفصيل ما أخبرني به في الهاتف، ثم أمر بإدخال عمي عبود.

ما إن لمحني حتى ثارت ثائرته، فأرغى وأزبد ورفض أن أحضر التحقيق، أخبره الضابط بأنه وحده الذي يقرر مَن يحضر التحقيق أو لا يحضر، وبأنني موجود هنا بصفتي محققا بجانب كوني من اكتشف الدم في مرأبه، وهدده بأن يتخذ ضده إجراءً إذا لم يجلس هادئًا ليجيب على كل ما يُطرح من أسئلةٍ بصراحة.

على الفور تبدل موقفه فلملم غضبه الذي كان قد بعثره وجلس، قال بعد أن استقر في مقعده:

«ما الذي تريدونه مني الآن؟»

أجابه المحقق ببرود:

«وماذا قد نريد منك يا سيد عبود؟ لقد سألناك أمس إذا كنتَ تعرف أي شيء عن ابن زوجتك المتوفاة»

قاطعه عمي عبود بتحفز:

«وقلت لكم أنني لا أعرف شيئًا عنه»

أكمل الضابط كأنه لم يسمع شيئا:

«وسألناك عن آخر مرةٍ رأيتَه فيها فأنكرتَ أنك رأيته

قريبا»

تلعثم في البدء ثم قال مؤكدا:

«نعم، آخر مرة رأيته كانت في جنازة أمه»

ابتسم المحقق مثبتًا نظره عليه، وقال كأنه يُطلق عليه رصاصة:

«لكننا وجدنا نقطةً من دمه على جدار المرأب في البيت الذي تقيم فيه»

نظرتُ إلى الضابط مستغربًا؛ فلم يثبت أن الدم دم يوسف، كل ما استطاعوا التوصل إليه أنه دمٌ بشري، لكنني فهمتُ ما يرمي إليه عندما اضطرب عمي عبود في مقعده وراح يفرك يديه بتوتر، اتسعت ابتسامة الضابط فضغط عليه أكثر:

«اعترف يا سيد عبود، لقد عرفنا كل شيء، قتلته؛ أليس كذلك؟»

اندفع يقول بانفعال وارتباك شديدين:

«لم أقتله، أقسم أنني لم أقتله، هو من جاء إليَّ ليقتلني!»

أصابتني جملته الأخيرة بالذهول؛ يوسف يفكر في القتل؟ لا أصدق! لا بد أنه يهذي أو يكذب. قال الضابط يُسايره:

«وأنتَ دافعتَ عن نفسك فقتلته؟»

أسرع يقول وقد زادت حدة انفعاله:

«أقول لك لم أقتله، هو من أراد قتلي لكنني لم أقتله!»

زفر الضابط بنفاد صبر وسأله محاولًا أن يتحلى بالهدوء:

«حسنًا، احكِ لي من البداية، ما الذي حدث في ذلك اليوم؟ أولًا متى جاء إليك؟»

أجاب بصوت مرتجف:

«قبل ستة أيام، كنتُ على وشك الرجوع إلى مطعمي بعد أن أخذت قيلولة في البيت، في طريقي إلى المرأب رأيتُه يدخل من الباب الخارجي للحديقة، استغربت وتساءلت عما أتى به، ولم يلبث أن صار أمامي فامسك بخناقي وراح يُردد كالمجنون: ماذا أفعل بك؟ أخبرني ماذا أفعل بك؟!»

ارتفع حاجبا الضابط وتسارعت ضربات قلبي، لم يبدُ لي أنه يكذب، لكن ما الذي يدفع يوسف شديد الهدوء إلى هذا الحد من الانفعال! سأله الضابط:

«ما الذي كان يقصده؟»

أجابه عمي عبود بجفاء:

«وما أدراني، هذا السؤال ينبغي أن تسألوه إياه»

ضرب الضابط سطح المكتب بيده فأجفل حمايَ وقال بتوتر:

«أقسم أنني لا أعرف ما الذي كان ينوي فعله بالضبط»

قال الضابط بنبرة مهددة:

«لا أسألك عن نيته، أسألك عن سبب انفعاله، لماذا كان ابن زوجتك حانقًا عليك إلى هذا الحد؟»

راح يفرك يديه بشدة وهو يقول بعد تلعثم:

«لا أعلم، إنه لا يحبني»

سأله الضابط كمن يُساير طفلا صغيرا:

«ولماذا لا يحبك؟ ماذا بينك وبينه؟»

قال متوسلا:

«أقسم أنني لم أفعل له شيئا، ما من ولد يحب زوج أمه، أنا لا يُمكنني قتل صرصور حقل فكيف أقتل شابًا يتجاوزني طولا وقوة!»

همهم الضابط متشككا:

«حسنًا، سنعرف. أخبرني الآن: ماذا حدث بعد ذلك؟»

هدأ قليلًا وأخذ نفسا عميقا وأطلقه ثم قال:

«أبعدتُ يديه عني وأمرته أن يمضي إلى حال سبيله»

قال الضابط بسخرية:

«بهذه البساطة؟! شخصٌ يأتي إلى بيتك مهددا ويبدو عليه أنه ينوي بك شرًّا فتأمره فقط أن يمضي إلى حال سبيله؟ يا لك من رجل مسالم يا سيد عبود!»

قال متغاضيًا عن نبرة السخرية الجلية:

«إي والله إنني مسالم، قلت لنفسي إنه ابن زوجتك المرحومة يا عبود ولا داعي لأن تتسبب له في مشكلة، رغم أنه هو من بدأ واقتحم بيتي، لكنني أبعدت يديه عني بالكاد وأمرته أن يذهب، واتجهت إلى المرأب حيث كانت سيارتي، فقد كنت تأخرتُ عن العودة للمطعم..»

قال الضابط يستحثه على اختصار ما لا يهم من التفاصيل:

«حسنًا، وهو لم يغادر وإنما لحق بك إلى المرأب، أليس كذلك؟»

أجابه عمي عبود:

«لم يتبعني على الفور، وإنما ظل واقفًا مكانه يكيل لي السباب والتهديدات، وحين لم أرد عليه استفزه ذلك فلحق بي، كنتُ قد ركبتُ سيارتي وبينما أُغلق الباب

أمسكَ به يمنعني من إغلاقه، ظللت أكرر عليه أن يذهب لأني لا أريد أن أفعل شيئًا لم يكن ليُسعد أمه لو كانت حية، لكنه لم يستجب وظل يهددني بأنه لن يتركني ويردد بأنه سينتقم مني»

سألتُه بانفعال دون أن أستأذن الضابط:

«لأي شيءٍ أراد أن ينتقم منك؟!»

نظر إليَّ نظرةً لو كانت نارًا لحوَّلتني إلى رماد، كانت مزيجًا من الحقد والغضب والخوف؛ نعم الخوف، هذا ما شعرتُ به، كأنه كان يُخفي شيئًا ولا يريد لأحد أن ينبشَه، خاصةً إن كان أحدًا قد استعان به بنفسه، لأول مرة في تلك اللحظة يخطر لي أن كل ما يحصل منذ ماتت أمي حبهان منتظمٌ في سلسلةٍ واحدة وينبع من الأسباب ذاتها، ربما لأنني كنت أقرأ في مذكراتها قبل هذا التحقيق فتذكرتُ قولها أنها فعلت أسوأ شيء في حياتها بزواجها منه، فجأة صرتُ أرى هذا العجوز الجالس أمامي كوحش، لم يعد مُجرد عجوز سيء الطباع كثير الشكوى، وإنما وحش كان قادرًا على أن يُفسد حياة امرأة إلى حد أن تعتبر زواجها منه أسوأ ما فعلته.

كان اعتصامه بالصمت واستمراره في تصويب نظراته الحارقة ليستمرا لولا أن الضابط أعاد عليه سؤالي بجفاء، ما اضطرَّه في النهاية لأن يُجيب بحنقٍ لم يُخفِ اضطرابه:

«إنه يعتقد أنني سرقتُ منه أمه، ولهذا السبب أراد أن ينتقم مني»

لم يبدُ أن الضابط قد اقتنع بإجابته، لكنه سأله:

«وهل سرقتَ منه أمه يا سيد عبود؟»

اندفع مدافعًا عن نفسه:

«بالطبع لا، لماذا وكيف سأسرقها منه؟ لقد تزوجتها فقط وصار لها أبناء آخرون غيره، قضى طفولته مع جدته لأبيه بينما نعمَ إخوته بأمهم التي لم تعد تبيتُ معه في البيت نفسه، وهذا ما لم يقبله قط»

كنت أعلم أنه يكذب؛ فأنا أعرف يوسف جيدا وأعرف كم يحب إخوته جميعا. قال له الضابط:

«تقول إن علاقتكما لم تكن جيدة، أليس كذلك؟»

قال عمي عبود بثقة:

«من ناحيته، لم تكن جيدةً من ناحيته، رغم أني كنت أعامله برفق، فهو ابن زوجتي في نهاية الأمر إضافةً إلى كونه يتيمًا مات أبوه قبل ولادته، لكنه لم يحبني ولم يُرد أن يعيش في بيتي، أراد أمه له وحده، كما أن جدته المسنة التي كانت تعيش وحيدة تمسكت بعيشه معها»

قال الضابط بضجر واضح ولكن لم يخفَ عليَّ ما في

نبرته من خبث:

«لم تكن جيدة من ناحيته، يعني أن الجو بينكما كان متوترًا على الدوام، وأن مُشادَّاتٍ من هذا النوع؛ أعني ما حدث قبل أن يختفي، قد حدثت من قبل أيضًا»

أسرع ينفي بانفعال:

«لا بالطبع، لم تحدث بيننا أي مشاداتٍ من قبل!»

فعاجله الضابط بنبرةِ صيادٍ أفلح في الإيقاع بفريسته:

«إذًا ما الذي جدَّ يا سيد عبود ليهددك بالقتل ابنُ زوجتك الذي لم يفعلها من قبل رغم زعمك أنه يحقد عليك منذ كان طفلا؟!»

ويبدو أنه أدرك وقوعه في الفخ فازداد توتره، لم يترك له الضابط فرصةً للتفكير وتلفيق إجابة فواصلَ:

«ما الخلاف الذي وقع بينكما مؤخرًا وأوصله إلى درجة المجيء إليك وتهديدك بالقتل؟»

تلعثم هنيهةً ثم قال بارتباك:

«لم يحدث خلاف، إنه هكذا منذ أن ماتت أمه، زاد حقده عليَّ بعد موتها»

سأله الضابط ضاغطًا أكثر:

«لن أقول لك أن أمه ماتت قبل ثلاثة أشهر كاملة

وأسألك لماذا لم يهددك إلا الآن، لكن سأسألك لماذا يزداد حقد رجل كبير عليكَ بسبب موت أمه؟! هل كان لك دخل فيه؟!»

ثارت ثائرته وانتفض من مقعده وصاح بغضب:

«لا، هذا يكفي، هل وصل الأمر إلى اتهامي بقتل زوجتي؟! إن ما يحدث هنا جنون فعلا!»

رد الضابط بنبرة لا تقل غضبا عنه:

«اجلس يا سيد عبود ولا ترفع صوتك مرة أخرى، أنت هنا لأننا وجدنا دمًا بشريًّا على جدار مرأبك، الأمر ليس بسيطًا وأنا لا أدردش معك لتتعامل بهذه الطريقة»

انكمشت ثورته وعاد للجلوس في مقعده، ساد جو من التوتر لم يرفع فيه حمايَ عينه من الأرض محاولًا كظم غيظه بينما ظل الضابط يرمقه بنظرات حانقة متشككة. تكلمتُ فجأةً فخُيِّل إليَّ أنني سمعتُ صوت انكسار الصمت المشحون:

«أعتقد أننا لم نصل بعد إلى النقطة المنشودة يا حضرة الضابط، فإذا سمحتَ لي أن أطرح هذا السؤال..»

أومأ لي موافقا، فأردفت موجهًا الكلام إلى عمي عبود:

«وبعد؟ أمسكَ بباب السيارة ليمنعك من غلقه، ماذا

حدث بعد ومن أين جاء الدم؟»

رمقني بنظرة حاقدة من جديد وزفر ثم قال:

«أمسك الباب وانحنى نحوي حتى صار وجهه في مستوى وجهي وراح يقول كلامًا خائبًا..»

قاطعه الضابط:

«مثل ماذا؟!»

زفر بنفاد صبر كمَن يُجبر على فعل شيء لا يود فعله:

«قال إنني أفسدتُ حياة الجميع حتى أصبحت أمه تحت التراب بينما ما زلت حيًّا، وأشياء من هذا القبيل وراح يعيد تهديداته»

«وبعد؟»

أكمل وقد بدا أنه فقد كل طاقة ممكنة للكلام:

«رددتُ عليه بالطبع وقلت إنه مجرد رجل بائس ومعقّد ولن يستطيع فعل شيء لي، فأغضبه ذلك وأراد أن يُمسك بخناقي من جديد، لكن قبل أن تصل إليَّ يداه دفعتُ الباب الذي كان قد تركه بقوةٍ فصدمه إطاره العلوي في وجهه فسال الدم منه، اختل توازنه للحظاتٍ وابتعد بحركة تلقائية نحو الجدار خلفه متفحصًا أنفه وجبهته حيث كان ينزف..»

قال الضابط:

«هكذا إذًا»

فأسرع يقول بانفعال:

«لكنه لم يمُت من تلك الضربة، أقسم أني لم أقتله، لقد دفعتُ الباب لأُبعده عني»

سألتُه:

«وماذا فعلتَ بعد أن دفعتَه عنك؟»

قال بعد أن أخذ نفسا عميقا:

«أدرتُ مُحرِّك سيارتي وغادرتُ بها قبل أن يستجمع قوته ويهاجمني من جديد»

قلتُ:

«إذًا فقد غادرتَ قبله تاركًا إياه في المرأب بعد أن تلقى تلك الضربة!»

«نعم»

فسبقني الضابط إلى سؤاله:

«كيف تجزم إذًا أنها لم تقتله وأنت أسرعتَ بالمغادرةِ بعد أن ضربته فلم تره يغادر حيًّا؟!»

أُسقط في يده وبدا العجز على وجهه، لكنه قال:

«مستحيل أن يكون قد مات، إنه رجل كبير، كيف تقتله ضربةٌ مثل تلك؟ كيف يموت من مجرد جرح سطحي في جبهته ونزفٍ من أنفه؟!»

ويبدو أنه كان ينتظر جوابًا لأنه شعر بخيبة أمل عندما لم يرد أحد منا على سؤاله، فسكتَ بدوره ولم يقل شيئا.

بدا للضابط كما بدا لي أنه لن يحصل منه على أي معلومة أخرى، فاضطر لصرفه دون أن يتخذ أي إجراء ضده، مع أنه كان متأكدًا مثلي أنه يخفي كثيرا وأنه كذب كثيرا، قال لي بعد أن غادر عمي عبود:

«أجزم أن هذا الرجل فعل شيئًا خطيرا، لا أعرف ما هو بالضبط لكنني متأكد، ورغم هذا لا يسعني إيقافه أو اتخاذ أي إجراء ضده؛ إذ لا وجود لجثة لأتهمه بالقتل»

قبضت قلبي كلمة جثة فازدردت ريقي، سألته:

«هل انتهى الأمر عند هذا الحد إذًا؟!»

تنهَّد باستياء وقال:

«فيما يخص والد زوجتك نعم، أما بخصوص أخيها فسوف أطلب البحث عن اسمه في قوائم المسافرين في المطارات والموانئ وآمل أن نصل إلى شيء، لكن هذا سيستغرق أياما»

شكرتُه وغادرتُ المكتب، ولم أشعر أن من الصائب أن

أعود إلى البيت بهذا الرأس المليء بأفكار سوداء لأواجه أمينة التي ما زالت غاضبة مني، فركبتُ سيارتي ورحتُ أجوب بها الطرقات بغير هدف محدد.

-١٥-

صفية

كنتُ أستعدُّ للخروج إلى عملي عندما هاتفتني أمي، كان صوتها منفعلًا وهي تطلب مني الذهاب إليها على وجه السرعة، أقلقني طلبها؛ فلأول مرةٍ منذ ثلاثة أشهر أجدها منفعلةً إلى هذا الحد.

عندما وصلتُ البيت عانقتُها بحرارة، لكنني شعرتُ أنها جامدةٌ إلى حدٍّ بعيد، سألتُها عما بها، بدتْ متوترةً وهي تقول لي:

«أحاول الاتصال بأختيكِ منذ الصباح لكنَّ أيًّا منهما لا ترد، هاتف ضحى خارج نطاق الخدمة، وهاتف أمينة يرن ويرن دون جواب!»

أربكني ذلك للغاية ولم أدرِ بمَ أُجيبها، ففي المرات السابقة التي أخبرتني بعدم تمكنها من التواصل مع إخوتي تمكنت من إقناعها بصعوبةٍ أن ذلك راجعٌ إلى مشاكل في شبكات الاتصال وإلى انشغالهم جميعًا هذه الفترة، حارصةً على أن أنقل إليها أخبار كلٍّ منهم مُضيفةً تفاصيلَ من عندي تُقنعها بانشغالهم وتُنسيها التفكير في سبب عدم تواصلهم معها، لكن هذه المرة تبدو مختلفة، حاولتُ أن أفطن سريعًا إلى سبب اختلافها لكنها لم تمنحني الوقت وأردفت:

«أما أنتِ يا صفية فما من مرةٍ اتصلتُ بكِ إلا أسرعتِ بالرد قبل أن تكتمل الرنة!»

زاد هذا من توتري، قلتُ لها بنبرةٍ مشاكسة وأنا أُطوِّقُ كتفها بذراعي وأُسند رأسي عليها:

«حتى تعلمي أنني أكثر من يُحبك في أبنائك كلهم يا أمي!»

أزاحتْ يدي عن كتفها وقالت لي وهي تنظر في عينيَّ:

«ما الذي تخفينه عني؟»

جاهدتُ حتى لا يبدو اضطرابي على وجهي لكني لم أنجح في هذا على ما يبدو، إذ قالت لي:

«صارحيني الآن وأعدُكِ أنني لن أغضب منك»

أسرعتُ أقول بنبرةٍ حاولتُ أن تبدو واثقة:

«لا أخفي شيئًا يا أمي، صدقيني!»

قالت بصوت مرتجف وما زالت عيناها تنظران في عينيِّ:

«أنا ميتة؛ أليس كذلك؟!»

هوى قلبي من صدري وشعرتُ بقرقعةٍ عنيفةٍ في داخلي، تخيلتُ أن هذه اللحظة ستأتي لكنني لم أستعد لها، أردفتْ عندما لم تجد مني ردًّا:

«أختاكِ وأخوكِ لا يهاتفونني ولا يأتون ليس لانشغالهم ولا لمشاكل في الاتصال، وإنما لأنني مُتُّ ولم أعد موجودة، كان عليَّ أن أفهم ذلك من تلقاء نفسي، كان عليَّ أن أُدركَ في كلِّ مرةٍ رأيتُ الرعب في عينَي أبيكِ وهو ينظر إليَّ، لطالما سألتُ نفسي لماذا بات هذا الرجل يخاف مني؟ وكانت الإجابة أقرب إليَّ مما أظن لكنني لم أرَها: أنا امرأة ميتة، ومن المفترض ألا أكون هنا لأنني لم أعد موجودة!»

أسرعتُ أقول وأنا أغالب تكسُّر صوتي:

«لا يا أمي، أنتِ موجودة ولن تغادرينا أبدا، انظري حولك، كل شيء في هذا البيت يؤكد أنك لم تغادريه، هل تشعرين أنكِ ميتة؟»

قالت بانفعال:

«لا تكذبي عليَّ لأنني لا أريد أن أكذب على نفسي»

رددتُ بنبرةٍ متوسلة:

«أُقسم أنني لا أكذب عليكِ، أنتِ موجودة هنا والآن، حتى إننا نتكلم وتلمس إحدانا الأخرى!»

لم أرَ أمي ضعيفةً قبل اليوم، رؤيتها هشة على هذا النحو المحزن أسقط كل دفاعاتي فانهمرت دموعي رغمًا عني، لأول مرة تخاف حبهان، أصلب أمرأة عرفتها في

حياتي، من شيء ولا تستطيع أن تُخبِّئ خوفها. مدت يدها تتلمس بها وجهي كأنما تتأكد من وجودها، ثم انتفضت فجأةً وشهقتْ وهي تسألني بهلع:

«صفية! هل أنتِ حيةٌ أم ميتة؟!»

ألجمني سؤالها لحظات، لم أستوعبه على الفور، تحسستُه في عقلي وعلى لساني وفكرتُ فيه هنيهةً قبل أن تُردف:

«يا الله! كيف لم أفهم ذلك! أنتِ فقط من بين إخوتك التي ترينَني، لماذا؟! لأنكِ معي في نفس العالم، لأنكِ مـ...»

وتلعثمت في كلمتها الأخيرة، وقاطعتها شهقات عنيفة فراحت تتحسس وجهي دون أن تتمكن من نطق أي كلام واضح. أمسكتُ يديها بكفيَّ ورحتُ أحاول إسماعها إذ بدتْ ساعتها في دنيا أخرى:

«اهدئي يا أمي، أنا لستُ ميتة، إنني حية أقسم لك!»

راحت تُسائلني بعينيها مُمزَّعةً بين شكها ورغبتها الشديدة في تصديقي، أومأت لها مرارًا حتى هدأت قليلا، ثم قالت:

«إذًا.. إذًا كيف ترينني؟ وكيف من دون إخوتك تسمعين أمك الميتة؟!»

خفق قلبي كأن قبضةً حديديةً تعتصره، ابتلعت ريقي بصعوبة وأجبتها:

«ألم تخبريني يا أمي أن الإنسان الذي يعيشُ بما يؤمن به لا يغادر مكانه أبدًا حتى وإن مات؟»

عبرت وجهها انقباضةُ ألم وأومأت تستحثني على المواصلة، فأردفت:

«أنتِ لم تغادري هذا البيت ولن تتركيه أبدًا لأنه لك، لأنكِ مَن صنعه وصنع مَن فيه، لأنكِ هنا ربيتِنا على الدفاع عما يخصنا، كل ركن في هذا البيت يعرفُك ويحتفظ بك في مسامه، ذاكرة المكان متخمة بكِ حتى وإن عبرتِ بوابة الموت، ألستِ من علمتِني أن قصة المرء مُقاوِمة للفناء وأن البيوت لا تخلو أبدًا من أصحابها؟»

لم تُجبني ولم تزل عيناها تحدقان فيَّ، سألتُ:

«أليس لهذا السبب بالضبط تُؤكدين أن بلادنا تظل لنا ولن تخلو منا حتى ولو تغرَّبنا عنها ألفَ عام؟ وأن تلك الأرض ستظل تعرفنا حتى لو جرَّفوها ليمحوا ذاكرتها؟»

مسحتُ دمعتين كبيرتين عن وجنتيها ورحتُ أتحسسهما ببطء لأُثبت لها ما أقول، لأؤكد لها أن ما علَّمَتْنيه صحيح وأن المرء لا يفنى بموته. ابتلعتْ ريقها ومسحتْ وجهها بيديها واستجمعت نفسها وقالت بهمسٍ كأنها

تكلم نفسها:

«لهذا إذًا! يا لك من رجل!»

استفهمتُها لكنها هزَّت رأسها بلا مبالاة، فسألتُها وكأنني تذكرتُ للتو:

«لكن كيف عرفتِ؟ ما الذي حدث وأوحى لكِ بفكرة الموت؟»

تنهدت وقالت:

«أوحى إليَّ؟! لو كنت لأفهمَ بالإيحاء لفهمتُ منذ أول لحظة، لكن يبدو أن المرء لا يفهم موته بسرعة. أبوكِ هو من أخبرني، فعل ذلك قبل أيام فضحكتُ ولم أصدقه، ثم أعاده على مسمعي أمس، قال لي: أنتِ ميتةٌ يا امرأة! أنتِ الآن...»

قطعتْ جملتها كأنها أدركت أن عليها ألا تُخبرني بذلك، يا لأمي هذه! ما زالت تحسب بعد هذا كله أنني لا أفهم، ما زالت تعتقد أن عليها حمايتي من كل ما يؤذي المرء أن يعرفه، ربما هذا ما تسبب في كل ما أحمل في قلبي من حنق تجاهه؛ أنه لم يُقدِّر حرصها على تنظيف صورته في أعيننا رغم عدم اهتمامه بذلك. سألتني:

«لكنني لم أفهم؛ لماذا أنتِ فقط؟!»

قلتُ راسمةً على وجهي ابتسامةً ذات مغزى:

«لستُ وحدي!»

تمتمتْ بشرود:

«عبود أيضًا...! إنني لا أفهم شيئا!»

«الأمر ليس صعبًا يا أمي، اثنان لا يمكن أن تذهبي عنهم حتى وإن متِّ: مَن يحبكِ بشدة، ومَن يبغضكِ بشدة!»

استغرقت لحظةً لتُدرك أن صورة الأب التي عملت على بنائها بدأب لسنوات منهارةٌ تمامًا، وعندما أدركت ذلك جفلتْ مصدومة، حاولت أن تقول شيئًا ولم تستطع، قلتُ أقطع الطريق أمام أي محاولة:

«إنني أعرف يا أمي، لا داعي لأن تُتعبي نفسك، إنه عصيٌّ على الترميم»

ردت بنبرة موبخة:

«ما الذي تهذين به يا بنت؟ تعرفين ماذا؟»

قلت بهدوء وثقة:

«أن أبي يبغضك»

كانت الكلمة صادمة كقذيفة، ولم أكن متأكدةً إذا كان عليَّ أن أقولها بكل تلك الصراحة والمُباشرة، أحيانًا

ينبغي علينا لحفظ خاطر من نحب من الكسر أن نلتف حول المعنى ولا نتلبَّس به، نُراوحَ قريبًا منه دون أن نمسَّه؛ لأننا ندرك أنه رصاصةٌ متفجرة لا يمكننا توقع آثارها المُخرِّبة في داخل من تُطلق عليه، لكنني كنتُ مشحونة بغضبٍ أردتُ أن أُنفِّس عنه قبل أن أفكر في العواقب، لا من أمي بل منه، وربما منها أيضًا، لأنني أعتقد أنه كان عليها عند نقطةٍ ما أن تُدرك أننا كبرنا ولم نعد بالهشاشة التي تُجبرها على الاستمرار في تلميع صورة رجل سيء من أجلنا، لكن ربما كانت الأمهات هكذا دائمًا؛ مدفوعاتٍ بالتضحية طوال الوقت ولا يكبر أبناؤهن في أعينهن أبدا.

أردفتُ عندما طال صمتها:

«لم يحبك قط، إنني أعرف هذا يا أمي كما تعرفينه، لم يعد هناك داعٍ لتخافي من عواقب انكشاف حقيقته لي، لن يؤثر عليَّ هذا إلا كما أثر عليك ميلادُك كلاجئة؛ سيُحزنني بالطبع لكنني لن أنغمس في بكائيات سخيفة، بل سيدفعني بشكلٍ أقوى لأنجو من كل ما تفرضه عليَّ هذه الحقيقة التي لا مفر منها، بالضبط كما قاومتِ دائمًا حتى لا تستسلمي لما يتوقعه العالم منك كلاجئة»

دمعتْ عيناها من جديد وقالت بتأثر وهي تتفحصني كأنما تكتشفني لأول مرة:

«لقد كبرت يا صفية!»

قلتُ مومئةً بابتسامة:

«نعم، وطالما أردتُ أن أخبركِ بهذا حتى تتوقفي عن الخوف علينا، وحتى تتخذي قراراتك حسبما ترغبين أنتِ لا حسبما نود»

أجابتني بشرود وما زالت عيناها تتأملانني:

«لم أكن أظن أن مهارتي في التجميل ضعيفة إلى هذا الحد!»

قلتُ بنبرة واثقة:

«مهارتك في التجميل لا تُضاهى حتى إنني لسنواتٍ طويلة نظرتُ إلى أبي كقديس»

سألتني بأسف:

«أين كان الخطأ إذًا؟!»

أجبتُها غيرَ آسفة:

«مساوئه أكثر من أن تُجمَّل لعمرٍ كامل يا أمي، كفى، لا تتوقعي أن نولد ونعيش هذه الحياة الطويلة ونموت قبل أن ننتبه لما تُخبِّئينه فيه، ليس منضدةً مُقشَّرةَ الطلاء ستسكنُ مكانها محتفظةً بمِفرشك المُطرَّز الجميل على سطحها»

«تتكلمين عن الأمر بتصالح مخيف، ألا تأسفين لذلك

يا ابنتي؟ ألا يُحزنك أن يكون أبوكِ رجلًا سيئا؟!»

أجبتُها بثقة:

«يحزنني، لكن ماذا عليَّ أن أفعل؟ هل أنذر نفسي للنشيج وأعذبها بطول التفكير دون أن أقدر على تحرير نفسي من محبته كأمينة؟ أم أبتعد تمامًا عن مكان ذكرياتي وأخاصم بيت نشأتي لأنجو بنفسي؟ أم هل أفعل كما فعل إبراهيم وأعتقد ألا فكاك لي من اسمي الثاني؟»

عبرتْ وجهها انقباضة ألم على ذكر إبراهيم وندمتُ على تسرعي، أردفتُ محاولةً محو كلماتي الأخيرة من جو الغرفة:

«إنني مثل أخي يوسف ومثلك يا أمي، أعتبر نفسي مُقاوِمة؛ وأعتمد أسلوب النِّياصِ في البقاء في مأمن من الأفكار السامة والمحيط الذي يسعى لمحوي: التحصن بقناعاتي عند استشراس عدوي، والتجول في الليل عندما ينام»، وأضفتُ ضاحكةً لتلطيف الجو: «ابنتك تجيد المناورة والحركة بالليل، عليكِ أن تفخري بي!»

لم تضحك، بل سألتني مُتوجسةً وحزينة:

«هل تعتبرين أباكِ عدوا يا صفية؟!»

فكرتُ قليلًا ثم أجبتُها متحسسةً كل كلمة:

«أنا أحبه بداعي البنوة التي تربطني به، لكن أفكاره هي أعدائي، طباعه وكل شيء سيء فيه، هذه المفارقة وهذا التمييز هما ما ساعدني على النجاة من آثاره المخربة»

قالت بنبرة شاردةٍ ولكن بانفعال:

«يا إلهي! أين كنتُ عندما نمتْ فيكِ هذه الأفكار؟! متى ساءت نظرتك له إلى هذا الحد؟!»

رددتُ بانفعال مماثل:

«عندما عرفتُ أنه تزوَّجكِ ليُجردكِ من كل ما تملكين، في البدء صُدمت، واستُنزفت لفترة بين شعورين متناقضين تجاهه، لم أستطع أن أكرهه لأن علاقتي به من النوع الذي لا يمكن قطعه مهما حاولت، لكنني لم أستطع أن أتغاضى أيضا أو أتظاهر بأنني لم أعرف شيئا»

سألتني وهي تنظر في عينيَّ بتوجس:

«ماذا عرفتِ وكيف؟»

أجبتُ بلا مبالاة مصطنعة وأنا أحاول كبت رغبتي في البكاء:

«عندما اكتشف قبل سنوات أن جدي لم يوصِ بهذا البيت لأخي يوسف»

أومأتْ وقد شردتْ عيناها كأنها تتذكر ذلك اليوم،

أردفتُ:

«كنتُ مارةً بالمطعم مع صديقتين لي بعد خروجنا من الجامعة، وعدتهن أن يتذوقن ألذ مقلوبة دجاج في العالم، عندما وصلنا أخبرني العامل أن أبي في مكتبه، اندفعت نحو المكتب بحماس لكنني توقفت قبل أن أطرق الباب، كان مواربا وكان أبي يجلس مع صاحبه بالداخل، صوته كان مرتفعًا وغاضبًا وهو يقول له بالحرف: (العاهرة خدعتني أنا طوال تلك السنين، أوهمتني أن أباها كتب البيت لحفيده حتى لا تعطيني إياه، أولاد الكلب! هل هذا جزائي بعد أن تزوجتُها أرملةً وأمًّا لولد؟!) . ألجمتني الصدمة وجمدتني في مكاني، لم أفهم للوهلة الأولى، هذا أبي المسالم الهادئ ينعت أمي نعتًا قذرًا كهذا! لمَ؟! ثم أدركت أن زواجه منكِ كان فقط من أجل أن يستولي على البيت والمطعم، غنيمة باردة وسهلة حسب ظنه كمهاجر لم ينجح منذ قدم إلى هنا سوى في العيش على حد الكفاف»

انحدرتْ دمعتان كبيرتان على وجنتيها وأطبقتْ جفنيها كأنها تحبس ذكرى مؤلمة حتى لا تهاجمها، وددتُ لو أنها فتحت لي قلبها وحكت لي، كانت أمي حتى هذا اليوم كتاب أسرار مُغلق رغبتُ بشدة في أن ينفتح أخيرًا لأفهم أشياء كثيرة لم أكن أفهمها، لم تزوجتْ أبي؟ كيف تغاضت عن كل تلك الفوارق بينهما؟ لماذا لم تتركه في

أول الطريق عندما اكتشفتْ نواياه؟ أم أنها لم تكتشف إلا حين لم تبق فرصة للتراجع؟

لكنها لم تبُح بشيء ولا أمهلتني لأسألها شيئا، قالت وهي تمسح وجهها وتستجمع نفسها:

«حسنًا، هذا يعني أنه كان محقًّا، لقد مُت، ولهذا كان يُلحُّ عليَّ لأذهب، لم يكن يطردني كما كنت أظن، بل كان يدفعني عنه كما يحاول أي إنسانٍ أن يتخلص من شبح أو روح شريرة!»

قالت جملتها الأخيرة ثم انخرطت في نوبة ضحك، لم أفهم رد فعلها، ومع استمرارها في الضحك وهي تغطي فمها بيدها مُحاولةً التغلب على النوبة بدأتُ أخاف عليها. هدأتْ أخيرًا فتنهدتْ وقالت بسعادة:

«أنتِ محقة؛ لا ينبغي أن يأسف أحدٌ لأن عبود رجل سيء، لا أنتِ ولا أنا ولا كان على أيٍّ من إخوتك أن يترك نفسه يعاني بسبب ذلك»

ثم ضحكت من جديد، لكنها قطعت ضحكتها وأردفتْ:

«أبوكِ هذا مسكين، إي والله مسكين! يظن أنني سأذهب بهذه السهولة، ويشتطُّ به ظنه إلى حد أن يتخيل أنه بذهابي سيحصل على هذا البيت! يثق كثيرًا بحظه ما أحلاه!»

سألتُها وقد حيرتني جملتُها الأخيرة:

«ماذا تعنين بهذا يا أمي؟! هـ...»

قاطعتني:

«لأول مرةٍ أشعر بالارتياح هكذا، على الأقل لن أقلق عليكِ بعد الآن»، وأضافت وهي تمسح بكفها على رأسي: «ما شاء الله حواليكِ، أصبحتِ واعيةً وذكيةً ولا تسمحين لشيء بإفساد سلامك أو تنغيص عيشك»

بصعوبةٍ رسمتُ ابتسامةً على وجهي لأنني لم أُرد أن أُخبرها أن هذا الرجل الذي تعتقد أنه لم يتمكن من إفساد سلامي قد أفسده بالفعل، وأن ذلك يغزوني في كوابيسي كل ليلة، ولم أُرد أن أُبدد ارتياحها ذاك بإخبارها أنني ما إن أغادر البيت سأهاتف أبي لأسأله بحدة عما فعله بأخي يوسف، وسأنفعل عليه وأخبره بأنني أعرف ما فعله بأمي وأن يوسف عرف مني أنا، وأهدده بأنه إذا لم يقل الحقيقة سأُبلغ عنه، لكنه يقسم أنه لم يؤذه ويكرر أنني لا أفهم شيئا، فأغلق المكالمة وأنا أحترق غيرَ عارفةٍ ماذا عليَّ أن أفعل، أكتب رسالةً إليكترونية أخرى لعمي صالح، أضغط زر الإرسال بيأس آملةً أن يعود لفتح التطبيق ويرد عليّ.

المذكرات

بمرور الأسابيع أخذ لطف عبود مع يوسف يتضاءل، وعندما عرفتُ أنني حبلى بدأ يُلمِّح بذهابه إلى بيت جدته؛ في البدء «لمؤانسة العجوز المسكينة في وحدتها»، ثم «لأن الحمل يُتعبك والولد يحتاج عنايةً أكثر»، ثم في النهاية لأن «جدته أولى به مني أنا زوج أمه المسكين الذي ينتظر طفله الأول». لم يستغرق وقتًا ليتحوَّلَ من الأب الذي وعد أن يكونه لابني إلى زوج أمه الذي من حقه أن يعرف الأبوة لأول مرة مع ولدٍ من صلبه، وفي كل مرةٍ لا يجد كلامه مني أُذنًا صاغية كانت معاملته ليوسف تسوء، فلما صرَّح بأنه لا يريد هذا الطفل في بيته صُدمت وأُلجمتُ للحظة؛ بيتُ من؟!

غادرتُ البيت مع يوسف إلى بيت خالتي أم صالح بعد أن أخبرتُه أنني أريد الطلاق وأن عليه ترك البيت خلال ثلاثة أيام على الأكثر، اربدَّ وجه خالتي حين رأتني ببطني المنتفخة في شهري التاسع مع يوسف وثلاث حقائب، حاولتْ تهدئتي لكنني كنتُ مُصرَّة على الطلاق، في فجر اليوم التالي استيقظت على تقلصات الرحم، فزعتْ خالتي من نومها على صراخي وبكى يوسف هلعا، وقضيتُ اليوم بطوله في المشفى حتى وضعتُ أمينة مع هبوط الليل، تعلق قلبي بها منذ وقعت عيناي عليها، وملأني التصاق يوسف المندهش بأخته الوليدة بمشاعر لا

يمكنني وصفها.

في الليل عدتُ مع خالتي والطفلين إلى البيت، ولم تمر ساعة حتى جاء عبود، حمل الطفلة بين يديه بتأثر بالغ، ناداها باسم إبراهيم، وعندما أخبرته خالتي أنها بنتٌ عبرت وجهه تكديرةٌ خفيفة ما لبث أن أزاحها بابتسامة وقال: «لا مشكلة، هذه المرة بنت والمرة القادمة الولد»، كنتُ مملوءةً بالغضب إلى آخري، فرددتُ بجفاء:

«ما من مرةٍ قادمة»

نظر لي بملامح جامدة فأردفت:

«ليس مني على الأقل!»

حاولتْ خالتي تلطيف الجو، تذرَّع بأنه كان مضغوطًا عندما قال ما قاله ولم يكن على ما يرام، لكنني قلتُ بثبات وحسم ونبرةٍ حاولتُ ألا تبدو منفعلة حتى لا يظنا أنه قرار في لحظة غضب سيتغيرُ بزواله:

«لقد قلتُ ما عندي، أريد الطلاق وأُصرُّ عليه»

في تلك اللحظة ظهر وجهٌ آخر لعبود، وجه جديد تمامًا؛ كريه ودنيء ولا يُحتمل، قال بغضبٍ لم يُفلح في كتمه:

«سأطلقك، ولكن سآخذ ابنتي»

كانت البنت ما تزال بين ذراعيه، انتفضتُ من فراشي

كالملدوغة وحاولت أخذها منه لكنه تراجع خطوتين إلى الخلف وهو يرغي ويزبد، لم أستطع أن آخذها فرُحت أكيلُ له سبابًا لم أكن أدرك أنني أعرفه، حاولت خالتي تهدئتي دون جدوى، ثم همست لي بأن هذا الأسلوب سيزيد من عناده، هدأتُ قليلا، وعندها تذكرتُ انقباض وجهه عندما عرف أنها بنت فقلتُ لنفسي أن رغبته فيها غير حقيقية، يريد أن يُمسكني من يدي التي توجعني فقط، ولا شيء يُوجع امرأةً أكثرَ من أطفالها، هدَّأتني تلك الفكرة تماما فسكتُّ وعدتُ إلى فراشي، أربكه سكوتي، جلس على أقرب مقعد وراح يُحاول تلطيف الجو من جديد، قطع وعودًا كثيرة واستعطفني بالبنت التي دخلت دنيانا للتو، قال أنها لم تزل بيضاء نقية ولا ذنب لها بعدُ حتى تجد والديها مُطلَّقين، قال أنه لطالما أحبَّ يوسف وأن الشيطان دخل بيننا، ظللتُ صامتةً تمامًا، وكلما قال شيئًا ولم أردّ أغراه ذلك بقول المزيد على ظن أن سكوتي هو لينٌ وميلٌ إلى التراجع، لكن عندما طال صمتي بدأ يُحس أنه ليس الصمتَ الذي يُطمئن، سألني بعد أن فرغتْ جعبته من الأعذار المُلفّقة والوعود الكاذبة:

«لماذا أنتِ ساكتة هكذا؟!»

قلت ببرود:

«أنتظرُ أن تنتهي من قول ما عندك»

قال بتوجس مشوب بالانفعال:

«لقد انتهيت!»

أخذت نفسًا عميقًا وزفرتُه ببطء وقلت:

«لا أُصدق أيًّا مما تقول يا عبود، ما زلتُ مُصرةً على الطلاق، وإذا كنت تبتزُني بابنتي فلا تُطلِّقني، لكن انسَ أن أكون زوجةً لك بعد اليوم»

أُسقط في يده تمامًا فسكت، وخطر لي أنه رجل جبان ضعيف ليس في حوزته إلا الابتزاز والتهديد، وأن غضبه ليس سوى بالون سرعان ما انفقأ عندما فشلت حيلته. ناولني البنت وقال بنبرته المُتمسكنة المعتادة:

«على راحتك يا حبهان، لكنني متمسكٌ بك ولن أطلقك»

ثم رحل. ضحكتُ من قلبي حتى دمعتْ عيناي، وكانت خالتي تراقبني بإشفاق دون أن تجد ما تقوله. بعد أيامٍ أعطاني نسخته من مفتاح البيت وأخبرني أنه أخذ كل أغراضه منه، تكلم كثيرا عن عزة نفسه ورجولته التي لا تسمح بكيت وكيت، وضعتُ المفتاح في جيب سترتي بلا مبالاةٍ وانصرفت إلى غرفتي تاركةً إياه يتمسكنُ لخالتي كعادته.

مرَّت أربعة عشر شهرًا على تلك الحال، أنا في بيت خالتي وعبود يبيت في المطعم ويجيء من وقتٍ لآخر

ليرى أمينة ويُسلمني الإيراد، ربما كان يظن أن الوقت كفيلٌ بحملي على الرجوع له، لكنني كنت عنيدة واعتبرتُ الأمر معركة سينتصر فيها صاحب النفس الأطول، كنتُ صاحبةَ النفس الأطول وكان نافد الصبر، لكنه لم يُطلقني، بل اختطف ابنتي!

استيقظت قُبيل الفجر قلقةً ونظرتُ جانبي فلم أجدها، صرختُ وأنا أُهرع إلى غرفة خالتي مُمنّيةً نفسي أن تكون معها، استيقظتْ فزِعةً من صراخي وأسرعتْ نحوي قبل أن أصل إليها، وعندما عرفت أن البنت غير موجودة لم تحملها قدماها، أدركتها قبل أن تسقط وأسندتُها حتى السرير، انخرطنا في بكاء خائف مع يوسف الذي أيقظه صراخ أمه وأسئلة جدته، لم ندرِ ماذا نفعل، واتفقنا دون أن تقول إحدانا شيئًا أن عبود تسلل إلى البيت وأخذها، لم أعرف كيف فعلها، لكنني كنت متأكدة أنه من انتزع ابنتي من فراشي.

أسرعتُ بارتداء ثيابي بين أسئلة خالتي ورجائها ألا أخرج في هذا الوقت، طمأنتُها وطلبتُ منها أن تعتني بيوسف حتى أعود، كنت أركضُ في الطرقات كالمجنونة، وعندما وصلتُ المطعم رحتُ أطرق على الباب طرقات عنيفة هستيرية، لم ينفتح ولم أسمع صوتا، أخرجتُ نسختي من المفاتيح وفتحت، كان المكان غارقا في العتمة ولم يكن عبود هناك ولا ابنتي، بالطبع لن

يعود إلى المطعم بعد أن يختطف ابنتي، إنه دنيء لكنه ليس غبيا، فكرتُ أن أُبلغ الشرطة، لكن ماذا سأقول لهم؟ هل أقول أن زوجي اختطف ابنته؟ سيعتبروونني مجنونة ولن يُحركوا ساكنا، تهاويتُ على الأرض وانخرطتُ في بكاء مر، ولأول مرة شعرتُ بالضعف والانكسار والغربة، وبأنني وحيدة وظهري إلى الحائط، امرأة عزلاء تمامًا في بلد لا يعرفها في مواجهة عالم متوحش ورجل بلا أخلاق. لبثتُ على تلك الحال ساعةً حتى جفَّت عيناي، فقمت عائدة إلى خالتي وابني وكل الأفكار السيئة الممكنة تتناهشني.

ظللنا جالستين في صالة البيت ساعاتٍ كتمثالين شمعيَّين يحترقان، وفي التاسعة ليلًا رن الهاتف الأرضي، هُرعتُ إليه على أمل أن يكون عبود ولم يخب ظني، ما إن سمعتُ صوته حتى انفجرتُ فيه:

«سأقتلك يا عبود، أقسم أنني سأقتلك..»

قاطعني ببرود:

«من الأفضل لكِ أن تهدئي ولا تُضيعي الوقت المتاح لك إذا كنتِ تودين رؤية ابنتك مرة أخرى»

جمدتْني كلماته، سألته باندفاع وغضب وخوف:

«أي وقت متاح؟ ماذا تعني؟ أين ابنتي؟»

قال بنفس البرود الذي كان يحرقني ببطء:

«ابنتي معي في الحفظ والصون، ستُسافر مع أبيها حبيبها إلى بلد بعيد لن تعرفيه، ستُقلع الطائرة غدًا ظهرا، طبعًا إلا إذا..»

قاطعته بغضب وأنا أصرخ:

«ماذا تقول؟! هل جننت؟! كيف تأخذ مني ابنتي؟! هل تُساومني عليها؟!»

أكمل كأنني لم أقل شيئا:

«إلا إذا وضعتِ عقلكِ في رأسكِ وصرفتِ نظرًا عن الطلاق، وأبديتِ حسن نيتك وتنازلتِ لي عن نصف المطعم ونصف البيت»

انفجرتُ فيه بغضب:

«يا لك من رجل نـ...»

قاطعني مهددا:

«إياكِ أن يطول لسانك، هل ظننتِ أنني سأطلقك وأترك لك ابنتي الوحيدة؟ ليست مطالبتي بنصف المطعم ونصف البيت إلا لكي أربطكِ بي وأحتفظ بابنتي، إما أن توافقي على هذا فنعيش مع ابنتنا بهناء، أو أن أعود بها إلى بلادي وأتزوج قرويةً تربيها وأفتح لي مطعمًا بثروتي المتواضعة التي ادخرتُها، إنني أمنحكِ أنتِ الفرصة كي

لا تفقدي ابنتك، لذلك إياكِ أن تغلطي فيَّ، وأنصحك ألا تُضيعي مزيدا من الوقت وإلا لن ترَي أمينة أبدا»

لم أشعر بالعجز وقلة الحيلة مثلما شعرت بهما في تلك اللحظة، توقف دماغي تماما عن التفكير، قلتُ له راجيةً:

«موافقة، لكن أعدها لي أرجوك!»

قال مزهوًا بانتصاره:

«هكذا تعجبينني، لكن ليس قبل أن تتنازلي لي»

«سيستغرق هذا وقتا، أعدها لي وسأفعل كل ما تريده»

لكنه ضحك ضحكةً خبيثة وقال:

«هل تريننني أبله إلى هذا الحد؟ إذا كنتِ موافقةً على شرطي فسألتقيكِ وحدي صباح الغد لنوثق العقدين، تعودين إلى بيت خالتك لتحزمي أغراضك وتذهبي إلى بيتنا تنتظرينني كزوجة صالحة حتى أعود مع أمينة»

بكيتُ من القهر ولم أدرِ ماذا أفعل، قال:

«فكري الليلة على راحتك وقلِّبي الأمر في رأسك، سأتصل بكِ من جديد في الخامسة صباحًا، إما أن تقولي لي تعالَ يا عبود فآتي، أو لن أعطيكَ شيئًا يا عبود فأطير مع ابنتي بعيدا»

لم ينتظر أن أقول شيئًا وأغلق الخط، كانت أعصاب

خالتي قد تلفت تماما وهي تراقب ردود فعلي وغضبي وقهري وبكائي، فما إن وضعت الهاتف حتى تلقفتني بالأسئلة، أخبرتها بكل شيء فراحت تلعنه وتلعن اليوم الذي رأته فيه وتدعو عليه، استنفدنا كل ما كان في حوزتنا من الغضب والدعاء عليه والتوعد له، ثم أدركتُ فجأة أن الغضب لن يحل شيئًا وأن الوقت يمر، أخبرت خالتي أنني أحتاج أن أفكر وحدي وصعدت إلى غرفتي، وقضيتُ ليلةً من أصعب ليالي حياتي، كنتُ أُقلِّب جميع الاحتمالات في رأسي، فكرتُ مرةً أخرى في إبلاغ الشرطة، لكنني أدركتُ أن الوقت ليس في صالحي، وأنه سيتمكن من السفر مع البنت قبل أن يعرفوا مكانه، أُغلق عقلي تماما ولم أهتدِ إلى أي حل، وأدركتُ أن ليس أمامي سوى أن أرضخ له، هل سأتنازل له عما تحصَّل عليه أبي بكدِّه وعمل يده؟! كانت تلك الفكرة تقهرني وتكاد تقتلني، لكن هل كان أمامي خيارٌ آخر أو أن أتنازل عن ابنتي؟! لا شيء.

قضيت الليلةَ في ذلك التفكير المُمض، وقُبيل الفجر نزلتُ إلى الصالة وجلستُ إلى جانب الهاتف، متأملةً كيف استطاع عبود أن يربطَ يديَّ فلا أستطيع أن أفعل شيئًا إلا ما يريده، ويربطَ رجليَّ فلا أقدرُ أن أركض لأُطارده، هل كان مكتوبًا في قدري أن أكون أسيرة رجل كان قليلًا في عينيَّ منذ رأيته أول مرة؟!

في تمام الخامسة رن الهاتف، التقطت السماعة بسرعة وقلتُ له دون مقدمات:

«موافقة على التنازل لكِ عن نصف المطعم»

رد مُقرِّرًا بحزم:

«نصف المطعم ونصف البيت»

لم يكن من الممكن أن أجعله شريكي في البيت الذي لا أملك مكانًا سواه، لم يزل عندي أملٌ في أن أنجح في الخلاص منه فيما بعد، تنازلي له عن نصف البيت سيجعل ذلك الخلاص صعبًا للغاية. قلتُ محاولةً أن أبدو هادئة ولينة:

«البيتُ لا يمكن، سأتنازل لك عن نصف المطعم لكن لا يمكنني أن أتنازل عن نصف البيت»

سألني ساخرا:

«ولماذا لا يمكنك؟!»

لم يكن بوسعي أن أُخبره أنني أنوي الخلاص منه وأن البيت هو كل ما أملك، فلم أدرِ من أين واتتني الفكرة حين قلت:

«لأن أبي كتب البيت ليوسف قبل أن يموت، أنا مجرد وصيةٍ عليه حتى يكبر»

سمعتُ زفرةَ غضبه، وسكت هنيهةً ثم قال:

«إذًا تتنازلين لي عن المطعم كله»

وددتُ في تلك اللحظة لو كان أمامي لأقتله، سألني حين طال صمتي:

«ماذا قلتِ؟ تعطينني المطعم أم أسافر مع أمينة؟»

قلتُ مُستسلمةً:

«أُعطيكَ إياه»

هتف بنبرة منتصرة:

«كنتُ أعرف أن حياتنا وأسرتنا الصغيرة أثمن عندك من مطعم صغير!»

يا له من رجل بغيض! أيُّ حياة وأي أسرة! وهذا المطعم الذي يتكلم عنه أنشأه أبي وكبَّره بعرق جبينه، رغبتُ في قتله حقًّا لكنني كنت قليلة الحيلة، لم أكن لأستطيع فعلها لو قدرت. أخبرني عنوان المكان الذي سنلتقي فيه وأغلق الخط.

سارت الأمور كما خطط لها؛ أصبح صاحب المطعم وزوجي رغم أنفي وتخلص من يوسف الصغير كما كان يرغب، رغم أنه لم يكرر ما قاله من قبل لكن خالتي أم صالح هي من تمسكتْ بعيش حفيدها معها، واستْني بأنه سيظل قريبًا مني وبوسعي رؤيته كل يوم، وبأنه سيبدد

وحشة وحدتها ويعطيها ما تنشغل به في شيخوختها الموحشة، ويوسف كذلك تمسك بجدته ولم يرضَ أن يتركها، ولم أدرِ إن كان ذلك عن رغبةٍ حقيقية منه في العيش معها أم بإيعاز منها، أم أنه كان يدرك أن زوج أمه لا يريده.

عدتُ إلى عبود مُكرهة، وعاد وقد تغير، أو الأدق أن أقول: كان يُظهر لي أنه تغير، صار يحاول أن يكون ألطف وأن يُصور نفسه رب الأسرة المسؤول عنها والمتفضل عليها بكل ما يملك، ولمَ لا وقد أصبح صاحب مطعم من حيث لم يكن يحلم، ظللتُ عصيةً على كل محاولاته، لكن هزمتني ابنتي، أمينة التي كانت شديدة التعلق به، ولأنه يعرف هذا التعلق، بل عمل عليه بصبر حتى حصل له، فقد استخدمها دومًا ليحصل مني على ما يريد، ومع الوقت كانت آمالي في الخلاص تتضاءل، وأُدرك أنه كُتب عليَّ أن أُمضي حياتي معه، فاستسلمتُ مُقنعةً نفسي أنه من أجل ابنتي التي لن تستغني عن أبيها، وأنني مجرد امرأة لاجئة في بلد غريب ليس أمامها حل آخر، وأنجبتُ ضحى ثم صفية ثم إبراهيم، وشغلتني الأمومة عن شعوري بالهوة بيني وبينه، فرحتُ أرتقُ ثقوب زواجنا البالي بدأب لأُجنِّب أبنائي العيش في بيت مُفكك، وأُداري عيوبه ونقائصه حتى يكبروا معتقدين أن أباهم أفضل أب في الدنيا، وبينما أفعل ذلك متخيلةً أنني أُحسنُ صنعًا لم أنتبه إلى

أنني لم أنجح معهم جميعًا، وأنني كنتُ أرتقُ بخيوط عنكبوت، ولم أُدرك فشل محاولاتي إلا عندما أخبرني إبراهيمُ بذلك بأكثر الطرق إيلاما؛ بأن قتل نفسه.

-١٦-

ضحى

«لكي تذهب حبهان، هذا هو السبب»

لم أُصدِّقه، صحيح أن أبي يهذي منذ ماتت أمي بأنها ما تزال في البيت وبأنه لا يستطيع العيش على هذا النحو، ولكنني الآن بدأتُ أشك أن هذيانه طوال تلك الأشهر الثلاثة هو خطة لكي يصل إلى هذه النتيجة التي يُعلن عنها الآن: إنه يريد أن يبيع البيت!

قال بنبرةٍ حاولَ أن يجعلها لينةً دون أن ينجح في ذلك تماما:

«إنني أكلمكِ في هذا الأمر أولًا لأنكِ أعقل أخواتك؛ فأمينة خائبة كما تعرفينها لا تُحسن إلا البكاء والخوف كالجِراء الصغيرة، وصفية تدعي أنها تحب أبويها ولكن عند الجد ستجدينها تغرد بكلامها الماسخ عن المبادئ والذكريات وكل ذاك الهراء كالببغاء، أما أنتِ فعاقلةٌ وواقعية»

لم يقنعني تقربه إليَّ على هذا النحو الفج، هل يظن أنه سيمحو موقفه السابق مني كطفلة بإطراء مصطنع الآن؟ إنه لا يُدرك أنني لم أعد صغيرة ولم أعد أنتظر اهتمامه، في السابق نعم كان يؤلمني أنه يدلل إبراهيم ويعتبر صفية ابنته الأبرّ وأمينة كُبراه المُطيعة بينما أنا البنت

المتمردة غير المريحة مهما حاولتُ أن أُثبت عكس ذلك، أما الآن فلم يعد يهمني كيف يراني ولم أعد أحتاج أن يراني أصلا. قلتُ بعدم اهتمام:

«لا أعتقد أن أمينة أو صفية توافقان على بيع البيت»

قال بمزيج من الضيق والتزلُّف:

«ولماذا أكلمك أولًا؟ حتى تقنعيهما، قلت للتو أنك الأعقل بين بناتي»

انزعجتُ من محاولته المكشوفة والساذجة لاستمالتي، فقلت لأطلق رصاصةً على آماله وأُجهض جهوده الاضطرارية نحوي:

«لكنني غير موافقة أيضًا»

سكت لحظاتٍ بدا لي خلالها أنه فوجئ بردّي، ربما لم يتوقع أن أرفض تقربه مني بهذا الشكل وأنا التي لطالما تسوّلت منه إطراءً أو نظرة فخر، وفي الحقيقة لم أكن مشغولةً تمامًا بأمر البيت ولم يكن ليُزعجني بيعه؛ فأنا أعيش في قارةٍ أخرى في نهاية المطاف ولم أشعر يومًا بأنني أمريكية أو أن تلك البلاد بلادي أو أن لي فيها شيئا، أما ذكريات الطفولة التي عادةً ما تشدُّ الناس إلى أماكن نشأتهم فقد كنتُ أحملها معي في ذاكرتي، ما يعني أنني لستُ بحاجةٍ إلى بيتٍ لن أذهب إليه مرةً أخرى على الأغلب لكي أحتفظ بها.

ظل الصمت متمددا بيننا بجثته الثقيلة حتى قطعه أخيرًا عندما أدرك أنني لن أقول شيئًا فخشي أن تنتهي المكالمة بهذه النتيجة، قال محاولًا استعطافي:

«ألا تُدركين الرعب الذي أعيشه هنا؟! كل واحدةٍ منكن تعيش في مكان آخر مرتاحة البال، أنا مَن أعاني ليل نهار مع هذه المرأة!»

قلتُ بجمود:

«غريبٌ أن تكلمني عن أمي بهذه الطريقة وتنتظر مني أن أوافقك فيما تريده!»

رد مدافعًا:

«أنا لا أسيء إليها، لكن أليس من الطبيعي أن يرغب الإنسان في ذهاب شخص ميت؟ أي إنسان في هذا العالم قد يحب أن يدفن شخصا ثم يعود إلى البيت ليجده يجمع الملابس للغسيل كأن شيئا لم يحدث؟ أي إنسان قد يقوى على أن يعيش مع شخص ميت مهما كان وفيًّا ومخلصا؟!»

أضحكتني جملته الأخيرة عن الوفاء والإخلاص لكنني كتمت ضحكتي، أما هو فقد قال بحنق كأنه يتذكر هذا الآن فقط:

«اللعنة! إنكم لا تصدقون شيئا مما أقول أصلا!»

قلتُ ببرود استمتعتُ به:

«يحصل هذا أحيانًا لبعض الأزواج عند موت زوجاتهم فجأة، إذا صبرتَ قليلًا سيزول كل شيء»

فرد عليَّ بانفعال:

«أنتظر ماذا؟ أقول لك إنني أعيش في البيت مع شبح امرأةٍ ميتة!»

أجبتُه ببرود مرة أخرى:

«ليست غريبة، إنها زوجتك التي تعرفها في نهاية الأمر»

قال وقد ازداد غضبه:

«هل تمزحين؟ أي ابن امرأةٍ قد يحتمل العيش مع شبح في بيت واحد مهما كان يعرف صاحبه؟!»

فقلتُ لأُنهي الحوار:

«إذًا انتقل من هذا البيت!»

تغيرت نبرته على الفور وعاد إليه لينه المصطنع وهو يقول:

«أنتقل إلى أين؟ كيف أنتقل؟!»

فأجبته:

«إلى بيت آخر، يمكنك أن تستأجر أو تشتري بيتًا في أي مكان»

راح يتذرَّع مرةً بعدم قدرته ماديًّا على تحمل شراء أو استئجار بيت، فأسأله عن السبب وهو مالك مطعم من أكبر مطاعم المدينة وأكثرها شهرة، ومرةً بارتباطه عاطفيًّا بهذا البيت فأذكِّره بأنه يريد أن يبيعه وينتقل لبيت آخر، حتى نفد صبره وقال:

«وماذا سيحدث لهذا البيت عندما أنتقل منه؟!»

قلت بلا مبالاة:

«يحدث ما يحدث، المهم أن مشكلتَك ستُحل، وربما سعدَ الشبح بتركك البيت له»

لم يخفَ عليه ما في صوتي من السخرية، فقال بانفعال وصوت عالٍ:

«هذا بيتي ولن أتركه للعنكبوت»

فقلت ببرود:

«ما دام بيتك لماذا لا تبيعه من تلقاء نفسك دون أن تحاول إقناعي كل هذا الوقت؟ اذهب وبِعْه!»

وكما لو كان أحس بأنه أخطأ بانفعاله راح يحاول استعطافي من جديد:

«لماذا يا ابنتي؟ لقد كنت أقول إنك الوحيدة العاقلة بين بناتي! إنك تعيشين مع زوجك في المغرب ولا تنوين العودة إلى أمريكا، ما الذي تودينه من هذا البيت هنا؟»

أجبتُه بعدم اهتمام وأنا أفكُّ اشتباك طفليَّ:

«لا أريد شيئًا»

سألني بنفاد صبر:

«لماذا إذًا لا تريدين أن أبيعه؟!»

قلتُ:

«لأنك تريد ذلك»

لم يفهم، سألني عما أعنيه فزفرت بضيق وقلت:

«لا تُتعب نفسك يا أبي، أنا آخر شخص قد يساعدك في شيء تريده، فلا تضيع وقتك عبثًا و لا تبذل كل هذا الجهد لتكون لطيفًا معي»

فعاد عبود إبراهيم حسنين إلى طبيعته وصرخ فيَّ:

«كيف تكلمينني هكذا يا بنت الكلب؟! هل نسيتِ نفسك؟! هل تريدين...»

قاطعته قبل أن يُكمل:

«ماذا؟ هل ستُميتُني قهرًا كما فعلتَ بأمي؟!»

لم أدرِ كيف قلتُها بهذه السهولة وأنا التي كنتُ أحاول طوال الأسابيع الفائتة تناسي هذا الأمر، شعرتُ بضيقٍ في صدري بينما راح يواصل متباكيًا:

«هل أصبحتُ الآن قاهر أمك أيضا؟ كنتُ أعرف أنني مرزوء في عيالي، خلفةُ حبهان ماذا أنتظر منها! كلكم عاقون أولاد كلب!»

لم أستطع منع نفسي من أن أصرخ فيه:

«كفى، كلنا سيئون وأنت الوحيد الصالح بيننا؟! هل تصدق هذا فعلا؟! لا بأس، نحن سيئون، أنا وإخوتي وأمي وحتى إبراهيم رحمه الله، لا تنتظر شيئًا من هؤلاء السيئين ولا تستعطفهم للوصول إلى ما تريد»

ثم أغلقتُ الخط؛ إذ لم تكن فيَّ بقية طاقة لأستمع إليه. كانت حرائق الغضب قد شبَّتْ في صدري فرحتُ أوبِّخ الولدين اللذين ما زالا يتشاجران على اللعبة، ويبدو أنني كنتُ أُفرِّغ فيهما هذا الغضب لأن يحيى عاد من عمله في تلك اللحظة فحال بيني وبينهما وطلب منهما الذهاب إلى غرفتهما بعد أن أخبرهما أني مُتعبة، لم أنتبه إلى حالتي إلا عندما أجلسني على الأريكة وناولني كوب ماء رشفتُ منه رشفةً ثم ألقيتُ الكوب بأقصى ما استطعتُ من قوةٍ فتهشَّم على الجدار المقابل، حدَّق فيَّ يحيى مذعورًا وظل يسألني عما بي وكيف وصلتُ إلى هذه الحال، طلبتُ منه ألا يسألني الآن عن أي شيء ثم

قمتُ إلى المطبخ.

بعد أقل من ساعة هاتفتني أمينة تسألني ماذا قلتُ لأبي حتى انفعل إلى هذه الدرجة، لم أستغرب؛ فهي حائطه المائل منذ صغرها، لم أعد أعرف هل أشفق عليها أم أغضب منها!

قالت لي خائفةً:

«لقد كان غاضبًا بشدة، فاتحني أنا أيضًا في أمر بيع البيت ورفضت، فأرغى وأزبد وقال أننا من اضطررناه إلى فعل ما لم يُرد فعله وأغلق في وجهي، ماذا تظنين أنه سيفعل؟!»

لا أعرف ولم أكن مهتمةً بأن أعرف، لقد كان هكذا على الدوام؛ يهدد ويتوعد حين لا ينجح في الحصول على ما يريد بالتلطف واللين، لكنني أخبرتُ أمينة الخائفة أن ليس بوسعه عمل شيء وإلا لم يكن ليلجأ إلينا، لأنه يعرف جيدًا أنه لن يتمكن من بيع البيت إلا إذا وافقنا، زفرتْ أمينة بارتياح حسدتُها عليه، في حين كنت أتقلب في غضبي من المشاكل التي هربتُ منها فلاحقتْني من أمريكا إلى المغرب، المشاكل التي بدأت بموت إبراهيم ولم تنتهِ بموتِ أمي، كيف يمكن لي أن أعيش حياةً هادئة رغم هذا كله؟!

المذكرات

وافقت الفترة التي تعرفتُ فيها إلى ماري بيري دخول حَنَّة جابرييل المشئوم إلى حياتي، ولطالما اعتبرت من أعاجيب القدر أن أتعرف إلى صديقة صدوقة وعدوةٍ لدود كان لكلٍّ منهما أبلغ الأثر في حياتي في الوقت نفسه.

كنتُ وحَنة في السن ذاتها وتم تعينُنا في نفس المدرسة في الوقت ذاته أيضا، بينما ماري كانت تكبرُنا بعامين وسبقتنا في التعيين، كنتُ أُدرِّس الرياضيات وتُدرِّس ماري الفيزياء، أما حنَّة فكانت تُدرِّس التاريخ، وهذه نكتة بذيئة أخرى تُضاف إلى قاموس مفارقاتها البذيئة؛ إذ كانت يهوديةً متعصبةً للصهيونية ترى التاريخ كله مجرد دوران حول اليهود أبناء الله وموضع حلوله، ولأن نسبةً كبيرة من طلاب المدرسة كانوا من اللاجئين العرب المسلمين فقد كانت كثيرةً التصادمات بيننا؛ لأنني أخذت على عاتقي دحض كل كذبة تُلقنها للطلاب، وشيئًا فشيئًا بدأت عداوتنا تتخذ طابعًا علنيًا لا نبذل جهدًا في إخفائه عن الطلاب والمدرسين.

أكثر ما كنت أكرهه في تلك المرأة أنها وببرود شديد كانت تتعمد الحط من قدر العرب -المسلمين منهم بالذات- عندما نُوجد معًا في المكان ذاته، تفعل ذلك غيرَ مُوجِّهةٍ كلامها إليَّ وكأنها لا تعنيني، ولا أعرف كيف نجحت رغم ذلك فى النفاد من كل الشكاوى التى

قُدمت ضدها -ليس مني فقط بل من مدرسين آخرين وطلاب- تتهمها بالحض على الكراهية وتُطالب باتخاذ إجراءات ضدها، لم يحدث لها شيء، بل كانت تعود بعد كل شكوى أشرس وأكثر إصرارًا على بث سمومها من ذي قبل.

لم يكن يُهوِّن عليَّ مضايقاتها المستمرة سوى وجود ماري، خفف لطفُها من حدة الأوقات التي كنت مضطرة إلى احتمال حنة فيها، وكثيرًا ما حالت بيني وبين ارتكاب أخطاء كانت الأخيرة تنتظرها مني بفارغ الصبر، ولأنها كانت أجمل امرأة في المدرسة، ببشرتها البيضاء المُشربة بحمرة وقوامها الرشيق وصوتها الكرواني الذي أوقع نصف رجال المدرسة في حبها، فقد كانت حنَّة تحقد عليها، وكنت أتساءل: هل تدري حنة أن عزوف الرجال عنها ليس راجعًا إلى قلة حظها من الجمال -وإن لم تكن جميلةً كماري- بل إلى طباعها الحقودة التي جعلت معظم من يتعاملون معها يحرصون على تجنبها اتقاءً لشرها؟ يصعب تخيل أنها لم تكن تدرك ذلك.

لم تتوقف عداوتها عند حدود العمل ومحاولات الإيذاء فيه، بل تعدَّته إلى حياتنا الشخصية؛ إلى حياتي بدافع من كراهيتها لي كعربيةٍ مسلمة تستفزها بما تعتنقه من أفكار صهيونيتها المتطرفة، وإلى حياة ماري لحقدها غير المُبرر عليها، واستمررنا هكذا بين شد وجذب منذ

تعارفنا وحتى الآن؛ تحاول حنة تدمير كلٍّ منا وتحاول ماري المسالمة تلافي شرورها بينما أحاول التخلص منها.

عندما صرتُ أحد أضلاع ذلك المثلث كنت متزوجة بالفعل من يوسف وكانتا كلتاهما غير متزوجتين بعد، بعد عامين تزوجت ماري برجل أعمال وسيم من معارف عائلتيهما؛ إذ كانت تربط عائلة ماري وعائلة حنة الثريتين علاقة شراكة، الأمر الذي فاقم من حقد حنة عليها؛ هي التي لم تكن تفلح في الاحتفاظ برجل لأكثر من عدة أشهر. قضتْ ماري في زواجها ذاك سبع سنين حاولت فيهم بكل وسيلةٍ ممكنة أن تصبح أمًّا دون جدوى، فانتهى زواجها بالطلاق دون أن نعرف أبدا السبب، وإنْ كانت حنة لم تترك فرصةً لتقول بخبث في غرفة المدرسين أنها كانت تتوقع هذه النهاية لزواج «غير متكافئ»، وأن ذلك الرجل المسكين صبر طويلا على امرأة عاقر.

لم تتزوج ماري ثانيةً، لكنها بعد طلاقها بسنوات طويلة تبنت طفلا، هكذا فجأة ودون مقدمات، وكان ذلك الحدث ليمر عاديًّا مع سخافات حنة المعتادة لولا أن الطفل كان من السكان الأصليين، فأثار في عدوتنا اللدود ما تُثيره بقيةُ الشعب البائد في مُحتلِّه، وحنَّة كانت مُحتلةً بالنسبة لأمريكا باعتبارها أوروبيةً مُستوطنة

ترى في إبادة السكان الأصليين ضريبة التحضر التي كان يجب دفعها لتحرير مصير الأرض الواعدة من الشعب البدائي المتخلف، ومحتلةً كذلك بالنسبة لفلسطين، بلدي، باعتبارها صهيونيةً تُنادي بحق اليهود في فلسطين وتُؤمن بقول الكاتب الإسرائيلي بوعز إفرون «إن على الإسرائيلي في علاقته بالصهيونية أن يكون مثل الأمريكي في علاقته بالبيوريتانية»، فهي لا تعتقد فقط بأحقية المستعمر في احتلال الأرض وإنما تنادي كذلك بالتطهير العرقي، لذلك كان مفهومًا أن يستفزها بشدة أن تمنح ماري -التي تغار منها وتحقد عليها- أمومتها وعطفها لطفل من الأقلية التي تؤيد هي محوها من الوجود، فزاد استشراسها في عداوتها إلى حد أنها ألَّبت أهلها البرجوازيين عليها من جديد بعد أن كانوا على وشك القبول بالطفل كأمر واقع وترك ماري تفعل ما يحلو لها بدافع اليأس، رغم أن حنة لم تكن قط قريبةً من عائلة ماري بل كانت علاقتها بهم سطحية بحكم أن الأبوين كانا شريكين في أكبر سلسلة متاجر حواسيب في الولاية، لكنها نجحت في أن تسمم عائلتها ضدها مُقنعةً إياهم بأن تمسكهم برأيهم حيال ذلك الطفل، الذي وصفته بالقمامة مجهولة النسب، من شأنه أن يُثنيَها عن تصرفها الأحمق الذي سيضر بسمعة العائلة، الأمر الذي أدى إلى استمساكهم فعلا بالعناد إلى درجة مقاطعة ماري وحرمانها من ثروة عائلتها الضخمة وتجريدها من كل ما

كانت تتمتع به من رفاهية بفضل تلك الثروة.

لكن ماري لم تستسلم، وتحملت بصبرٍ جديرٍ بالإعجابِ هبوطَها الاضطراري من طبقتها المُرفَّهة إلى طبقة لم تكن تتخيل يومًا أن تنتمي إليها، وصعَّب هذا بالطبع من اعتنائها بالطفل بعد أن أُجبرت على التخلي عن المربية التي كانت قد وظَّفتها من أجله، لكنها اعتبرت الأمر معركةً سينتصر فيها الأطول نفَسًا والأقدر على الصمود، فأصبحت ترسل إلى الطفل -الذي سمَّتْه مارت- حارسَ مدرستنا ليأتي به إليها من مدرسته الابتدائية القريبة، فيظلُّ في المدرسة حتى تُنهي حصصها قبل أن يعودا معا إلى البيت، وكانت تعهد به في تلك الأوقات الطويلة لمسؤولات التنظيف بأجور يومية يحتملها راتبها أو إلى الطلاب الذين أحبوه وبخاصة ابني إبراهيم الذي كان حينها في السادسة عشرة، وتحولت ماري، الأرستقراطية الرقيقة كقطعة بسكويت، إلى أم عزباء مستعدة للتضحية بأي شيء من أجل ابنها.

ولم تقتصر علاقتها بمارت على منحها إياه أمومتها فقط، بل حفَّزتها عداوة حَنَّة وكرهها له إلى القراءة عن السكان الأصليين وتاريخ احتلال أمريكا لتفهم سبب تلك الكراهية التي لم تستوعبها تجاه طفل، كانت حتى ذلك الوقت بعيدة تمامًا عن الاهتمام بالتاريخ، ومع كل كتاب تقرؤه عما ارتكبه الأوربيون من مجازر في السكان

الأصليين كانت تبكي وتحتضن مارت وتعتذر له كأنها مَن فعلت ذلك بأجداده، وكان بإمكان مَن يعرفها أن يشعر بالتغيرات التي حصلت فيها بعد ذلك، فصارت تنفعل كلما ذُكرَ السكان الأصليون بقدرٍ غير كافٍ من احترام نُبلهم وطيبتهم والاعتذار لهم، ولم تعد تحتفل بعيد الشُكر، وأصبحت تتجاهل عمدًا كل الأعياد الوطنية الأمريكية إن لم تُصرِّح باحتقارها لها، كلُّ ذلك زاد من نبذ عائلتها ومعارفها لها، وانتقلت علاقتها بحَنة إلى طور جديد كانت تُعرِّفه بالعداوة الأخلاقية ولا تُوفر فرصةً للنيل منها، بعد أن كانت بطبعها المُسالم تحرص على تجاهل تصرفاتها المزعجة ومضايقاتها المستمرة.

ماتت ماري قبل عامين بعد صراع مع سرطان الثدي دام لخمس سنوات، تاركةً مارت وحيدًا في السابعة عشرة لا يملك أي شيء سوى وديعة باسمه ادخرتها له طوال سنوات من أجل دراسته الجامعية، ومُوصيةً إياي بالاعتناء به وعدم تركه وحده. لم يكن ارتباطي بمارت فقط لأنه ابن أعز صديقة لي، بل كان هناك سببان وطَّدا علاقتي بذلك الفتى الأسمر النحيل، الأول أن إبراهيم كان يحبه ويعتبر نفسه مسؤولًا عنه كأخ أكبر، والثاني أن كلينا عانى المصير التاريخي نفسه؛ أُبيد أجداده كما أُبيد أجدادي من مُحتل واحد، وتشرَّدَ كما تشردت، وما زال أهله يُضطهدون كما لم يزل أهلي. قلتُ ذلك كله لمارت ذات مرة فابتسم ورأيتُ في عينيه نظرةً لم أفهم إذا

كانت تضامنًا أو امتنانا، وأصبح من بعدها يدي اليمنى في زراعة الحديقة والعناية بحيواناتي وطيوري، بل صار يعتبر أشجاري وعنزتيَّ ونعجاتي الثلاث ودجاجاتي أبناءه الأعزاء، ولا يتخلف أبدًا عن مواعيد الزراعة وجني الثمار مهما كانت الظروف.

وكما كان لحَنَّة أثر سيء في حياة مارت لم تستثنِ ابني إبراهيم من أذاها، فقد كان طالبًا في المدرسة ذاتها وكانت تُدرِّسه التاريخ، وكونُه ابني منحها أسبابًا إضافية لكرهه ومضايقته أكثر من أي طالب عربي آخر، وحبيبي لم يكن صبورًا بما فيه الكفاية لتحمل تعريضاتها وتصريحاتها المستمرة بالعرب والفلسطينيين على وجه الخصوص، فلم يتمالك نفسه عندما نعتت الفلسطينيين في إحدى حصص التاريخ بالهمج والرعاع الذين نالوا ما يستحقونه لعدم استحقاقهم أرض فلسطين التاريخية التي تركوها للتصحُّر والبوار، فقام مدافعًا عن بلاده متهمًا إياها بالحض على العنف والكراهية، فأجابته باستفزازٍ بأنها ليست بلاده وأنه ليس فلسطينيًّا لأن أباه ليس كذلك، وأضافت ببرود أن أباه نفسه أخبرها شخصيًّا بأنه يتفق معها في الرأي، جُنَّ جنونه ورماها بالفرجار الذي لم يجد سواه في مُتناول يده، فأصاب عينها اليسرى فأفقدها إياها.

كان على وشك التخرج من المدرسة الثانوية فوجد

نفسه فجأةً مفصولًا ومُهدَّدًا بالسجن، ورغم مساندتي ومساندة إخوته له لم يحتمل أن يكون قليل الحيلة، وأمام ضغط أبيه عليه وتلميح حَنَّة بالعلاقة بينها وبينه فعلها؛ ذهب إلى المدرسة صباح أول أيام الامتحانات قبل الجميع وشنق نفسه بحبل ربطه في عارضة كرة السلة، مُعلِّقًا على صدره بدبوسٍ ظرفًا يحوي رسالة انتحار ظلت حديث الصحف ووسائل الإعلام لأسابيع تالية، دون أن تنجح في دفع حَنة إلى المحاسبة على جريمتها أو دفع عبود، أبيه الذي كان على علاقة لم نعرف إلى أي مدى وصلت بيهوديةٍ تحتقر جنسه كله وتتعمد إزعاج ابنه في مدرسته وتسببا أخيرا في موته، إلى الشعور بالذنب.

-١٧-

إبراهيم

لم أكن أريد لحياتي التي أحبها أن تنتهي على هذا النحو، لكنني لم أملك طريقةً أخرى لاتخاذ موقف.

كنتُ سأجتاز امتحانات الثانوية وألتحق بكلية الهندسة، أتخصص في الهندسة المعمارية وأعود إلى فلسطين لأدرس معمارها القديم وأُعيد إحياءه وأبني ما هدموه منها، أتزوج وأنجب وأعيش هناك في تلك البلاد التي لم يُكتب لي أن أراها إلا في نشرات الأخبار وصفحات السياسة الدولية في الصحف، كنت سأفعل أشياء كثيرة لكنهم لم يريدوا ذلك.

فُصلتُ من المدرسة قبل أسابيع قليلة من الاختبارات النهائية، وأُحاكَم بتهمة العنف ضد مُدرِّستي للتاريخ، ويوبخني أبي كل يوم لأن مستقبلي ضاع وقد ينتهي الأمر بي في السجن، وأنا لم أعد أحتمل هذا كله، وأرجو كل ليلةٍ أن أستيقظ في اليوم التالي لأكتشف أنه كان كابوسًا، لكنني أستيقظ فأجده ما زال حقيقة.

عندما ذهبتُ للمحكمة لأول مرة سألني القاضي: «هل تشعر بالكراهية تجاه الأمريكانِ كونَ عائلتك لاجئةً عربية؟» أجبتُه بأنني أحمل الجنسية الأمريكية وأنني وُلدتُ هنا ولكنني أكره المستعمرين أينما كانوا، فاعتبر

إجابتي هي أنني أكره الأمريكان، قلتُ له: «هذا يعني أنك تتهم كل الأمريكان الآن بأنهم مُستعمرون» فأمرني ألا أتكلم إلا عندما يسمح لي. قلت لهم اسألوا عني زملائي في المدرسة سيخبرونكم أنني لم أضرب أحدًا من قبل قط، طلبتُ منهم أن يسألوهم عما حدث في ذلك اليوم، فقالوا أن لا مبرر للعنف وأن النتيجة واحدة وهي فقد مُدرِّستي لعينها اليسرى، وأن المجتمع الأمريكي مجتمع متحضر يرفض العنف والكراهية، فسألتُه عمَّن أفقدَ المجتمع الأمريكي عينَه اليسرى أيضًا؛ لأنه يرفض عنفي وكراهيتي وحدي ولا يقول شيئًا للمُدرِّسة التي تُصرِّح كل يوم بكراهيتها واحتقارها للعرب والمسلمين والسكان الأصليين وتأييدها لإبادتهم في الماضي والحاضر والمستقبل، لكنني لم أحصل على إجابة.

كان بوسعي أن أفعل هذا في غرفتي لكنني أردتُ أن يراه الجميع، وهذه هي الطريقة الوحيدة التي في استطاعتي لرفض ما يحدث لي. اسم المُدرِّسة العنصرية حَنَّة جابرييل وايزمان.

أنا آسف يا أمي، هناك فارق كبير بين ما علمتِني إياه وما عشته في الأسابيع الأخيرة. أعتذر لأبي لأنني خيَّبتُ ظنه، وأؤكد له أنني لستُ مَن أضاع مستقبلي.

طلب أخير: أنزلوني من العارضة قبل أن تأتي أمي أو أختي أمينة، ستُحاول أختي تسلُّقها لإنقاذي فتؤذي

نفسها، أما أمي فستقول دعوه سينزلُ وحده، وأخشى أنني ساعتها سأنزلُ فعلا وأنسى الفكرة.

-١٨-

عبود

لا يحق لأحدٍ أن يلومني، لقد حاولتُ بأكثر من طريقة لكنهن لم يتركنَ أمامي حلًّا آخر، هل كان عليَّ أن أحتملَ كالكلب وأعيش مع شبح امرأةٍ ميتة في بيت واحد؟! قلتُ لها مرارًا: «اذهبي يا حبهان؛ أنتِ أصبحتِ من أهل القبور ولم يعد هذا بيتك!»، لكنها في البدء ضحكت ولم تُصدقني، وحين صدقتني أخيرًا وقلتُ سأرتاح قالت لي بما أنها الآن شبح فإن بوسعها قتلي ببطء دون أن تُحاسب، وشرعتْ بالفعل في ذلك، ذهبتُ للنوم في غرفةٍ أخرى لأحمي نفسي فضحكتْ بخبث، كنتُ غبيًّا؛ إنها شبح، يعني هذا أن إقفال الباب من الداخل بالمفتاح لثلاث دوراتٍ كاملات لن يمنعها من دخول الغرفة عليَّ، استيقظتُ في الليل على صوتِ أنفاسٍ بجانبي وشعورٍ بلمساتٍ على رأسي، عندما فتحتُ عينيَّ وجدتُها جالسةً في الإضاءة الخافتة على طرف السرير مُمسكةً بيدها مقصًّا، أصابني الهلع لكنني لم أتمكن من أن آتي بأقل حركة لأن المقص كان ليُرسلني إلى العالم الآخر قبل أن أفعل، صرختُ ورجوتُها ألا تقتلني، قالت لي ببرود:

«منذ متى لم تذهب إلى صالون الحلاقة؟ لقد طال شعرُك كثيرًا حتى أصبحتَ تُشبه المتسولين، لا تتحرك، أوشكتُ أن أنتهي»

جمُدتُ مكاني حتى انتهت من تهذيب شعري وغادرت، لقد صدقتْ؛ إنها تنوي قتلي ببطء!

هاتفتُ بناتها واحدةً تلو الأخرى لتنفيذ الحل الذي فكرتُ فيه وهو بيع البيت، كنتُ مضطرًا إلى ذلك لأن لكل واحدةٍ منهن نصيبا فيه، أردتُ أن أبيعه وأشتري بثمنه بيتًا آخر سيبقى لهن بعد موتي أيضًا، لكنهن كبنات كلب حقيقيات لم يوافقن، أعدتُ تمشيط البيت مرة أخرى بحثًا عن التنازل الذي جعلتُ حبهان توقِّع عليه قبل سنين ولكن دون جدوى، تحسَّرتُ على اللعبةِ التي حكتُها وأجبرتُها بها على التوقيع عندما أوهمتُها أني خطفتُ ابنُها يوسف، كنت قد كلفتُ صبيًّا يعمل عندي في المطعم بتتبعه إلى عمله وسرقة هاتفه، وعندما أخبرتُها أن ابنها الآن مع رجالٍ كلفتُهم بقتله إذا لم أتصل بهم قبل التاسعة وآمرهم ألا يؤذوه طلبتْ رقم هاتفه متشككة، ردَّ عليها صديقي الذي اتفقتُ معه وأخبرها أنها لن تسمع صوت ابنها إلا إذا أمرتُه، وقَّعت ورقة التنازل بارتباك وهي ترجوني ألا أؤذيَه، وكانت فرحتي ستكتمل بتوثيقها في صباح اليوم التالي بصحبتِها، لولا أن صفية عادت إلى البيت مُخبرةً إياها أنها كانت مع أخيها وأن هاتفه قد سُرق، لكن الورقةَ كانت معي وكان هذا يكفيني، لم تقُل شيئًا أمام البنت لكنها حاولت الضغط عليَّ لأُعطيَها التنازل، ولم أرضخ، قالت أنها لن

تذهب معي لتوثيق الورقة لأنه ما من شيء يُجبرها على ذلك وقد كانت ستفعله من أجل أن أترك ابنها، أخبرتُها أن بوسعي أن أخطفه بالفعل وستكون هذه المرة حقيقية، وغمزتُ لها بعيني قائلًا أنها تعرف أن باستطاعتي فعلها، وأن عليها التفكير إذا ما كانت تُريد المجازفة به أو التنازل بسلاسة عن بيت لا يساوي شيئًا مقارنةً بسلامته، كنتُ واثقًا من نفسي؛ فقد كانت حبهان ذكيةً للغاية إلا عندما يتعلق الأمر بأحد أبنائها تكون أغبى من عرفتُ في حياتي. استيقظتُ صباح اليوم التالي مغتبطًا أتخيل انتقال البيت إلى ملكيتي خلال ساعتين على الأكثر، لكنني صُدمتُ عندما لم أجد الورقة في المكان الذي وضعتُها فيه، رغم أنني كنتُ متأكدًا أنها لن يخطر ببالها أبدًا البحث عنها في غرفة إبراهيم التي لا تدخلها منذ موته إلا في موعد أسبوعي ثابت من أجل تنظيفها، كما أنني لم أصرف نظريَّ عنها طوال الليلة الماضية ونمتُ جانبها بعينين مفتوحتين كالذئاب، كدتُ أُجن؛ أين ذهبتْ تلك الورقة اللعينة؟! لم يكن بوسعي خسارة ذلك الانتصار أمامها وتشميتُها فيَّ، فأجلتُ الأمر متظاهرًا بانشغال مفاجئ ولم أخبرها أنني فقدتُ التنازل، رغم أنني كنتُ شبهَ متأكدٍ من أنها مَن سرقتْه بطريقةٍ ما، لكنني قلتُ لنفسي طالما أنها لم تواجهني بذلك وعلى الأرجح ستُنكر فما من داعٍ لأزيدَ خيبتي الثقيلة بتشميتِها فيَّ.

بحثتُ عنه كثيرًا دون جدوى حتى يئست، وبعد أن

ماتت بحثتُ عنه من جديد عندما أخبرني صديقي أن له علاقاتٍ يمكن أن تساعدني في توثيق التنازل بتاريخ يسبق موتها، لكنني لم أجده مهما حاولت.

والآن ماذا كان عليَّ أن أفعل؟ طوال الليالي السابقة وأنا أعيش في رعب، نظراتها تُرعبُني، حركاتها تُرعبني، حتى صمتُها يرعبني، لا هي تريدُ الذهاب ولا أنا بوسعي بيع البيت، هل كان عليَّ أن أظل على هذه الحال حتى أموت من الرعب أو ترأف بي وتقتلني قتلةً سريعة تُنهي الأمر؟ لم يكن أمامي حل آخر سوى ألا أترك نفسي فريسة سهلة لها بعيشي معها وحدي، عليَّ أن أتزوج، والمرأة الوحيدة التي تقدر على حبهان هي عدوتُها اللدود: حَنة.

أعرف ما سيقول أبناؤها عندما يعرفون، سيقولون تزوج المرأة التي تسببتْ في انتحار ابنه، سيقولون يا له من أبٍ قلبُه من حجارة، إنهم لا يرون ولا يشعرون باحتراقي كلما تذكرتُ منظره مُتدليًا بحبل في ملعب كرة السلة بمدرسته، ما زلتُ أراه كل ليلة في منامي يعتذر لي وأرجوه أن ينزل من العارضة حتى لا يُصاب بأذى فلا يستجيب، لكن حبهان هي من تسببتْ في انتحاره وليس أي أحد آخر، هي التي حشَتْ دماغه بكل تلك الأفكار التي أودت به من أجل بلدٍ لم يرَه، من أجل لا شيء، حبهان هي التي قتلت ابني!

سيقولون تزوج عدوة زوجته ويا له من زوج عديم الوفاء، لكن أحدهم لا يعرف أنني كان بوسعي أن أتزوجها قبل سنين وأحرق دم حبهان لكنني لم أفعل، رغم أن تلك المرأة راودتني عن نفسي على المكشوف ودون مواراة، وأخبرتني أنها تتمناني زوجا.

سيقولون تزوج يهوديةً تكره العرب والمسلمين ويا له من رجلٍ بلا أصل ولا مبدأ، لكنها لا تكره جميع العرب والمسلمين بل الأغبياء منهم فقط، أنا أيضًا أكره الأغبياء الذين يعيشون في فقاعات معقّمة ويهتفون بالشعارات التافهة طوال الوقت غير مدركين أن فقاعاتهم لا تصمد أمام حدث واحد من أحداث الواقع.

ذهبتُ إلى حَنة وعرضتُ عليها الزواج، سكتت لحظةً تفكر ثم وافقت، أنا متأكد أن طلبي هذا لو كان قبل ثلاثة أشهر فقط ما كانت لتُفكر في الأمر، وأنها وافقت للانتصار على عدوتها حتى ولو كانت ميتة، لكن لا أهمية لهذا طالما أنها وافقت.

فوجئتْ عندما أخبرتُها برغبتي في عقد الزواج في أسرع وقتٍ ممكن، لكنها لم تعترض، وخلال ست وثلاثين ساعة كنتُ أدخل البيتَ مُصطحبًا إياها معي.

كانت حبهان جالسةً في الصالة حيث يمكنها رؤية الداخل ما إن يتجاوز عتبة الباب، ولم أُفاجأ بردِّ فعلها عند رؤيتها حنة معي؛ إذ انتفضتْ من مقعدها ولم

تستطع للحظاتٍ أن تقول شيئا وهي تنقل نظراتها بين حنة وبيني كأنها تتساءل عن سبب مجيئها، ما فاجأني حقًّا، بل صدمني، كان رد فعل حَنَّة التي نظرتْ إليها وقالت بنبرة شامتة بعد لحظة صمت:

«يا إلهي! هل يُعاني الميتون من الملل إلى هذا الحد؟!»

مُشيرةً إلى كرات الصوف الكثيرة مختلفة الألوان التي كانت تُحيط حبهان نفسها بها. ردتْ عليها الأخيرة بغضب وحقد:

«ماذا تفعلين في بيتي أيتها العاهرة؟!»

فضحكت حَنَّة ضحكةً صاخبةً وقالت بتشفٍّ:

«بيتك؟! أنتِ مثل أهلك يا عزيزتي بطيئة الفهم، لا تدركين أن مكانكم هو القبر، وأنك دخلتِه بالفعل، هذا ليس بيتك، لم يكن كذلك قطُّ ولن يكونَ أبدا!»

وقبل أن تتمكن حبهان من قول شيء قالت موجهةً كلامها إليَّ بميوعة:

«حبيبي؛ إنني متعبةٌ وأريد أن أستريح، خذني إلى الغرفة التي سنبيت فيها الليلة مؤقتًا حتى أرى في الغد كيف سأحول هذا البيت إلى بيت راقٍ يليق بي»

قالت كلمتها الأخيرة وهي تُجيل عينها الباقية بقرفٍ في

الأثاث والجدران. أخذتُ بيدها إلى الغرفة التي كانت للبنات قبل ذهاب كل منهن إلى بلد، وما إن أغلقتُ الباب حتى قلت بنبرة متوجسة:

«إنك ترينَها إذًا!»

أجابتني بخبث:

«لم تُخبرني بذلك!»

قلتُ مدافعا عن نفسي:

«خشيتُ أن تظنيني مجنونا»

ضحكت ضحكةً مُتهتِّكةً حرصت أن تكون عالية لتصل إلى سمع حبهان، ثم قالت بصوت أخفض كثيرا وهي تُمرر يدها اليمنى على خدي كأنها تُداعبُ طفلا:

«هكذا إذًا! أنتَ خائفٌ منها ولهذا تزوجتني، ليس حبًّا فيَّ وإنما رغبةً في التغلب عليها!»

أربكتْني صراحتها وإدراكها لنيتي، وخطر لي لأول مرة كم أن العصابة الذي تغطي به عينها اليسرى تجعلها تبدو أخبث وتُثير الضيق في نفسي، وانتبهتُ من تلك المسافة القريبة للغاية إلى مسامِّ وجهها وجلدها المُجعد الذي لم تُفلح مساحيق التجميل في إخفاء قبحه. قلتُ بتوتر:

«أنتِ الوحيدة القادرة على إخراجها من البيت، لقد

رأيتُها بعينيَّ تُوضعُ في قبرها وعندما عُدت إلى البيت ونمت ساعتين كانت هي من أيقظني!»

ضحكت من جديد ضحكة صاخبةً كانت لتستفزني بشدة لو أنني كنتُ حبهان، وقالت:

«لا تقلق، هؤلاء الفلسطينيون وإنني أعرفهم جيدًا؛ لا يموتون بمجرد أن تقتلهم»

أربكتني إشارتها الخبيثة إلى القتل، إنها تقلقني لكن عليَّ أن أحتملها حتى أتخلص من حبهان ثم ليكن لي معها شأن آخر.

-١٩-

أمينة

لم تنجح محاولتنا الأخيرة لإنجاب طفل، لن أكون أمًّا ولن يصير إلياس أبا، لقد تأكدنا من الأمر وأجرينا أكثر من تحليل حمل وذهبنا إلى الطبيبة التي قالت الشيء نفسه.

قبل أيام كنتُ أظن أنني سأموت إن خاب هذا الأمل، لا أزعم أنني الآن لا أتألم، لكنني أطلقتُ أخيرًا زفرة ارتياح، مُدركةً أن أفضل شيء لمواجهة الاحتمالات السيئة والمخيفة هو تركها تحدث، يوجعني أنني لن أصير أمًّا، لكنني على الأقل لن آمل في هذا بعد الآن، وأنا أكثر مَن يعرف إلى أي حدٍّ بوسع الأمل أن يقتلنا ببطء.

إلياس أيضًا تنهد براحةٍ بعد أن بُحتُ له بذلك، قال لي:

«كنتُ خائفًا عليكِ من النتيجة، الآن بوسعي أن أطمئن وأتفاءل بأنك ستكونين في حال أفضل»

سألته بتشكك:

«ألم تكن تُريد أن تصير أبا؟»

فردَّ عليَّ وهو يطوقني بذراعه:

«بالطبع كنت أود، لكن الله لم يشأ، وإذا كان لم يشأ

فهو أعلم وأحكم، هذه هي الحياة لا يُنال فيها كلُّ شيءٍ يُراد، ماذا سنفعل؟»

أومأت موافقةً وأنا أُسند رأسي على كتفه، فأضاف وهو يداعب شعري:

«كما أن حبيبتي هي أمٌّ يُضرب بها المثل بالفعل، يشهد بهذا طالباتها اللاتي يُحببنَها بشدة ويلجأن إليها في مشاكلهن»

ابتسمتُ وغمرتني سعادة شفيفة ولففتُ يديَّ حول جذعه مُغمضةً عينيّ، سامحةً لتلك الطمأنينة الرائعة أن تتدفق إلى داخلي مُنهيةً أيامًا عصيبة من القلق وسنينَ من الركضِ خلفَ حُلمٍ مستحيل.

كنتُ أطبخ طعام الغداء في اليوم التالي حين رن هاتفي بمكالمةٍ من أبي، زفرتُ بضيقٍ وقد عاد إلى ذهني حديثُنا الهاتفي قبل يومين عن رغبته في بيع البيت وشراء بيت آخر، كان حديثًا مُحتدما وجدتُ نفسي فيه لأول مرة أواجهه بما في نفسي وأتصدى لمحاولاته أن يُشعرني بالذنب على أشياء لم أفعلها، ليس هذا فقط بل وأخبره أنني أصمتُ مؤقتًا في شأن أخي يوسف حتى تؤكد الشرطة إذا كان غادر الولايات المتحدة أو لا، وأنه إذا لم يكن غادرها فأنا من ستتقدم بشكوى ضده هذه المرة، صحيح أن تلك المكالمة انتهت نهايةً سيئةً ومُفعمةً بالسباب والشتائم، لكنني فرحتُ لأنني لم أضعف أمامه

وللمرة الأولى لم أخف منه، لقد تغلبتُ على هذا أيضًا، بل قلتُ له صراحةً أنه لن يستطيع أن يجعلني أشعر بالذنب أو أحتقر نفسي بعد الآن مهما حاول. نظرتُ إلى اسمه على الهاتف وللمرة الأولى أيضًا سحبتُ مؤشر قبول المكالمة دون أن أتردد أو ترتجف يدي. قلتُ بصوتٍ جامدٍ وخالٍ من أي انفعال:

«خيرًا يا أبي؟ لقد أخبرتُك أني غير موافقة على...»

قاطعني قائلًا وهو يلهث كأن أحدًا يُطارده:

«لقد قتلتْها! لقد قتلتْها، إنها تموت الآن، طلبتُ الشرطة والإسعاف للتو ولكنني لا أدري ماذا أفعل حتى يصلوا!»

لم أفهم شيئًا، قلت:

«اهدأ لأنني لا أفهم منك شيئًا الآن، مَن قتل مَن؟!»

فقال بأنفاس متقطعة من فرط الانفعال وهو يحاول أن تكون كلماته واضحة:

«حبهان قتلتْ حَنَّة! قتلتْها! ضربتها على رأسها وهي...»

قاطعتُه من جديد بنفاد صبر:

«حَنَّة مَن؟ لا أفهم شيئا!»

أجابني وليته ما فعل:

«حَنة جابرييل زميلتها السابقة في المدرسة، لقد تزوجتُها أمس وانتقلت معي إلى البيت، أمك قتلتْها!»

شُلَّ تفكيري تماما، نظر إليَّ إلياس مُستفهمًا وقد خرج من مكتبه للتو ملوِّحًا بورقة في يده، أخبرتُه بما يقول أبي فلم يبدُ أنه فهم، وكنتُ أظن أنه يهذي من جديد حتى سمعتُ صوت سيارة الإسعاف من الهاتف.

عندما ذهبنا إلى المشفى كانت الشرطة هناك، وكان أبي منهارًا ويرتجف على أحد المقاعد في صالة الانتظار. فهمنا من المحقق أنهم تلقوا مكالمة من أبي يخبرهم بمقتل زوجته، وأنهم عندما ذهبوا إلى العنوان وجدوا امرأةً فاقدة الوعي وتنزف على أرضية المطبخ، وحين طرحوا عليه الأسئلة لم يقل أي شيء سوى أن زوجته الميتة هي من قتلتْها، وظل يكرر ذلك حتى وصلوا إلى هنا.

كانت شكوك المحقق تحوم حول أبي، أخبره إلياس أن أبي يعاني اضطرابا نفسيا منذ موت زوجته يجعله يعتقد أنها ما زالت في البيت ولا تريد مغادرته، وأن بوسعهم التأكد من ذلك بسؤال الطبيب الذي أحضرناه له مرة في البيت وتكلم معه، وأعطاه رقم وعنوان الطبيب.

أسفرت التحقيقات عن أن حنة تلقت ضربة قوية على

رأسها من الخلف لكنهم لم يجدوا الأداة التي ضُربت بها، وكان التفسير الأقرب للمنطق أنها فقدت توازنها وسقطت فارتطم رأسها أثناء السقوط بحافة المنضدة الرخامية في المطبخ، وعندما سألوها فور إفاقتها عما حدث لم يفهموا منها شيئا، فقد كان كلامها غير واضح وبدا أنها تعاني مشاكل في التركيز والنطق، قال الطبيب الذي باشرَ حالتها أنها أصيبت بورم دموي جراء الصدمة التي تعرض لها دماغها، ونتج عن هذا الورم صعوبات في الكلام والحركة يمكن أن تتحسن مع الوقت بالعلاج.

بعد ساعات خرجت حَنة من المشفى وأصر أبي على أن تعود معه إلى البيت، نُقلت إليه على كرسي متحرك وتم تعيين مقدم رعاية لها بدوام جزئي، وقال أبي أنه قادر على الاعتناء بها حتى تتعافى تماما.

كرهتُه مرة أخرى بعد أن كنت تعاطفت معه بسبب انهياره وخوفه، لقد وعد بالاهتمام بعدوة أمي والمتسببة في موت أخي اهتمامًا لم أره منه تجاه أمي، الأسوأ من ذلك أنه يستضيفها في البيت كما لو كان يتعمد إغاظة أمي في قبرها!

عدتُ مع إلياس إلى بيتنا وأنا أحترق في غضبي، هاتفتُ ضحى وأخبرتُها لائمةً أن أبي نفَّذ تهديده بطريقة لم نتخيلها وتزوج عدوة أمنا اللدود، صُدمت وثارت ثائرتُها، وطلبتُ صفية وضممتُها إلينا في مكالمة جماعية

رحنا نتبادل فيها وصف تلك الشمطاء بأقذع الأوصاف، كنا ثلاثتنا نشعر بالعجز وقلة الحيلة ونحن نراها تُقيم في بيت أمنا التي كانت تكرهها بشدة وحيث عاش أخونا الذي تسببت في انتحاره دون أن نستطيع عمل شيء، قالت صفية في غمرة غضبها أن الضربة التي تلقّتها حنَّة كان يجب أن تكون أقوى، حدقتُ فيها متشككة لكن ثورة ضحى لم تترك لي فرصةً لأستفهمَ منها عما تعنيه، حاول إلياس أن يتكلم أكثر من مرة لكننا لم نستمع له من فرط ما كنا غاضبات، صرخ فينا أخيرًا فتطلعنا كلنا نحوه مشدوهات وهو يقول:

«اصمتن قليلا! أقول إن معي شيئًا يُمكن أن يُجبرها على الخروج من البيت!».

-٢٠-

إلياس

حصلَ ذلك مثل معجزةٍ في الوقت المناسب، كنتُ أُقلب في صندوق الأوراق الذي أحضرتُه من بيت أمي حبهان بعد أن انتهيتُ من قراءة دفتر مذكراتها، أوراق كثيرة متفرقة مُدوَّن عليها ملحوظات ويوميات غير مكتملة وأرقام هواتف ومعلومات عن قرى فلسطينية مُهجرة وأحيانًا قوائم مشتريات، بينما أتفحصها وقعت في يدي ورقة مدهشة، تقول فيها أمي حبهان أنها في اليوم السابق كتبت وصيةً أودعتها لدى مُحاميةٍ أرفقت اسمها ورقم هاتف مكتبها وعنوانها، وأنها أوصت فيها أن تؤول مكلية البيت بكل ما فيه لمارت ابن صديقتها بالتبني لأنه الأحق بملكية بيت في وطنه، وأنها ستكون ممنونة له إذا سمح لبناتها أن يستأجرنه منه إن رغبن في ذلك، وأضافت أنها أثبتت في تلك الوصية تاريخ كتابتها وأقرت بأن أي ورقة أو مُستند مُوقَّع منها بخصوص البيت بعد ذلك التاريخ يكون ضد رغبتها ولذا يكون لاغيا! تذكرتُ ما كتبتْه في مذكراتها عن خداع عمي عبود لها وإجبارها على التنازل له عن المطعم ثم محاولته بعد ذلك أن يسلبها البيت بخدعة حقيرة، وخطر لي أنها ربما كتبت ذلك البند في وصيتها لتلافي أي خداع آخر مُحتمل قد يمارسه عليها مستقبلا.

لم أجد الفرصة لإخبار أمينة بالأمر في ذلك اليوم ولا بعده إذ حدث ما حدث فورا، لكنني تمكنت أخيرا من إخبارهن فبدَونَ كأن جبلًا من الهم انزاح عن قلوبهن، طلبت منا صفية ألا نتحرك حتى تصل إلينا لنذهب إلى البيت معا، وصلتْ أخيرًا وتركت سيارتها أمام بيتي وركبنا ثلاثتنا سيارتي، في الطريق تلقيتُ اتصالا من الشرطي الذي حقق في موضوع يوسف، تسارعتْ دقات قلبي وفتحت المكالمة بسرعة، أخبرني أنهم عثروا على اسم يوسف في قوائم المسافرين في أحد مطارات نيويورك وأنه طار إلى لبنان قبل ثمانية أيام، زفرتُ زفرةَ ارتياح وأخبرتُ أمينة وصفية ففرحتا بشدة.

بعد ساعاتٍ كنا ثلاثتنا، أنا وأمينة وصفية، في صالة بيت حماتي. وجدنا عمي عبود متكومًا على نفسه على الأرض في أقصى يمين الصالة مختبئًا خلف الأريكة ويرتجف بشدة، وحنة جابرييل تجلس في كرسيها المتحرك وعلى وجهها آثار صفعة يبدو أنها لم تزل حديثة جدا، حاولنا أن نستفسر منهما عما حدث لكن عمي عبود لم يكن يردد سوى اسم أمي حبهان وحنة لم تكن تعافت بعد من آثار الضربة فلم تُحسن بيانا، كانا مُرتعبَين للغاية، ما أقلقني وأقلق أمينة، أما صفية فقد ارتسمت على وجهه ابتسامة واسعة غريبة، ابتسامة هي أكثر من مجرد تشفٍّ فيهما، ثمة شيء آخر بلا شك!

لم ندرِ ماذا نفعل، حاولت أمينة طويلا أن تُنهض أباها ليجلس على الأريكة لكنه كان ينظر نحو المقعد الذي كان لزوجته الميتة بذعر ويهز رأسه رافضا، لم يكن ذلك غريبا، الغريب حقًّا أن حَنَّة هي الأخرى كانت تُحدق بهلع إلى نفس المكان!

قلتُ وكأنني أفكر بصوتٍ عال:

«كلاهما ينظران إلى نفس الشيء، ثمة شيء يُخيفهما هنا»

وأشرتُ إلى الكرسيّ المُخطط بالأبيض والأزرق ذي المسند العالي، نظرت أمينة نحوه باستغراب وقالت:

«تُرى هل أُصيبت هذه اللعينة بنفس اللوثة؟ هل يتهيأ لها أن أمي هنا؟!»

فصاحت صفية فجأةً بانفعال:

«أنتما غبيَّان ومطموسا البصيرة، يا إلهي! لم أعد أحتمل كل هذا الغباء!»

نظرنا إليها في الوقت نفسه ثم نظرنا إلى بعضنا بعضا، كان التلفاز شغالًا على إحدى القنوات الإخبارية الفلسطينية، كانت حَنَّة تضطرب في كرسيها المتحرك وهي تنقل عينيها بين التلفاز والكرسي، بحثتُ حولي عن جهاز التحكم لكنني لم أجده، على هذه المرأة أن تهدأ

حتى نستطيع التفكير فيما علينا فعله، فقمتُ وأطفأتُ التلفاز يدويًّا وعدتُ إلى الأريكة، لم أكد أجلس حتى أضاءت شاشته مرةً أخرى! التصقت أمينة بي كقطة مذعورة، تغلبتُ على خوفي ونهضتُ فأغلقتُ التلفاز مرة أخرى، وهذه المرة أضاءت الشاشة قبل أن ألتفت عائدا إلى مكاني، فتحولنا من شخصين مذعورين إلى أربعة أشخاص مذعورين وفتاةٍ غاضبة تُشير نحو كرسيٍّ لا نرى فيه أحدا!

قالت أمينة بصوت يرتجف:

«هل ترينَها حقًّا؟! هل هي هنا حقًّا؟! لم أعتقد أن الأشباح حقيقية!»

ردت صفية بغضب:

«كفاكِ غباءً ولا تقولي أشباح، إنها أمنا! كيف بوسعك أن تنعتيها بالشبح وأنتِ تجلسين أمامها!»

نظرتْ أمينة برعب نحو الكرسي وازدردت ريقها بصعوبة، سألتُها:

«منذ متى وأنتِ ترَينَها؟!»

ردت باستياء:

«لم يحدث أن جئتُ إلى هنا مرة بعد ذلك اليوم ولم أرَها»

بدأ دماغي يربط التفاصيل بعضها ببعض، مجيئها إلى هنا خفيةً دون أن تُخبر أمينة لتلتقيا كما اعتادتا، ويبدو أنها انتبهت لكوني رأيتُها فهاتفت أختها وأخبرتها بتلك الكذبة عن تعطل سيارتها بالقرب كي تبدد أي شك قد يراودني فيها، انفعالها غير المُبرر في رسائلنا الإليكترونية عندما سألتها إذا ما كانت علاقة أبيها بأمها متوترة يؤكد أنها تخفي شيئا. سألتُها باندفاع غير محسوب:

«هل استشرتِ طبيبًا نفسيًّا؟!»

استشاطت غضبًا وقالت:

«يا لكما من أعميَين فعلا! إنكما تجلسان معها في نفس الغرفة وهناك ثلاثة أشخاص معكما يرونها، حاولتَ إطفاء التلفاز مرتين وأعادتْ أمي تشغيله في المرتين، ورغم ذلك ما زلتَ تزعم أنني وهذين مجانين دون أن تشك أنك أنت الأعمى!»

هتفتُ فيها كمن اكتشف حلًّا للغز:

«أنتِ مَن قتلتِ الكلب، أليس كذلك؟!»

حدقتْ فيَّ ببرود دون أن ترد، فأردفتُ:

«جئتِ إلى هنا خفيةً في الليل، قتلتِه بالسُّمِّ ثم ربطتِه من رقبتِه حبل، واستعنتِ بالمنضدة التي في الخارج

لتطالي حلقة السقف عند العتبة وتُعلقيه فيها، ثم غادرتِ دون أن يشعر بك أحد!»

قالت ببرود:

«ما زلتَ تحتفظ بذكائك، لماذا إذًا لا ترى الأشياء الواضحة كالشمس أمامك؟!»

قالت جملتها الأخيرة وهي تُشير نحو الكرسيّ، سألتْها أمينة مصدومةً:

«هل فعلتِ ذلك حقًّا؟! هل عذَّبتِ روحًا بريئة؟! لماذا؟!»

قالت صفية بانزعاج:

«كفاكِ سذاجة، لم يكن ذلك الكلب روحًا بريئة، هل نسيتِ كيف كان يهاجم أمك؟ هل نسيتِ عندما عضَّها في قدمها اليسرى واضطرتْ لتلقي العلاج والعرَج بها طوال أسبوع؟! لقد أحب أبوك هذا الكلب أكثر مما أحبَّ أيًّا منا، فاستحق أن يرى هذا العزيز لديه معلقًا على باب البيت، كما أنه كان يُضايق أمي طوال الوقت فأرحتُه منها»

سألتُها:

«هل أنتِ أيضًا مَن علَّقتِ مشنقةً في غرفة إبراهيم لتُخيفيه؟»

زفرتْ بحنق ولم تُجب، قالت أمينة بانفعال:

«حقًّا؟! إنني لا أعرفك! كيف فعلتِ ذلك؟! ما غرضكِ من كل هذه الأفعال اللعينة؟!»

فردت صفية بانفعال أكبر:

«لأنني كنتُ أعلم أنه إن دخل غرفة إبراهيم الذي كان سببًا في انتحاره فسيدخلها لغرض واحد، هل سألتِه لماذا دخلها قبل أن تحاكميني الآن؟ هل عرفتِ إذا كان دلف إلى تلك الغرفة اشتياقًا لابنه الميت أو ندمًا على دفعه لقتل نفسه أم أنه كان يريدُ منها شيئًا آخر؟»

سألناها باستغراب في نفس واحد:

«ماذا كان يريد منها؟»

قالت:

«لقد أخفى فيها منذ سنواتٍ ورقةً أجبر أمي على توقيعها مهددًا إياها بحياة يوسف، وقعت أمي خوفًا على ابنها وكان سيُوثقها في صباح اليوم التالي، لكنني رأيتُه لسوء حظه وهو يخفيها في أحد كتب إبراهيم، فتسللتُ إلى الغرفة وسرقتُها، كنتُ متأكدة أنه سيبحثُ عنها مرارا خاصة بعد موت أمي»

سألتْها أمينة:

«ماذا كان في تلك الورقة؟»

أجابت وهي تنظر بحنق إلى أبيها:

«تنازلٌ من أمي له عن البيت»

شهقتْ أمينة ونظرتْ بغضب لأبيها الذي يرتجف خلف الأريكة كطفل خائف، أردفتْ صفية:

«لقد أراد الحصول على كل ما تملكه، أخذ منها المطعم الذي أنشأه والدها وكان يسعى لأخذ البيت، وعندما ماتت وظن أنه حصل عليه أخيرا فوجئ أنها لم تذهب وأنها لن تتركه له، وما زواجه من هذه اللصة الحقيرة إلا محاولة لإجبار أمي على الذهاب بالاستعانة بعدوتها»، وأضافت وهي تبتسم ابتسامة شامتة: «لعله ظنَّ أنه سيستخدم زوجته الجديدة للتخلص من زوجته الأولى ثم يتخلص منها، لكن أمي الراسخة كجبل والشجاعة كذئبة ستُجنِّنُهما حتى يرحلا لينجوا بنفسيهما منها»

ونظرتْ نحو كرسيِّ أمها بفخر وإعجاب، قلتُ بانفعال عاجزًا عن التصديق:

«هذا جنون!»

عند تلك اللحظة دخلت قطةٌ بيضاء مع أربعةٍ من القطط الصغيرة، ساروا جميعًا نحو ذلك الكرسي ثم توقفوا عنده، وهناك راحوا يموءون ويتمسحون في شيء

لا أراه، قالت صفية وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة منتصرة:

«ما زلتَ ترفض أن تُصدق، أليس كذلك؟»

أذهلني ذلك المنظر واستعادت ذاكرتي فجأة تفصيلا مهما؛ تلك الورقة التي وجدتُها هنا على المنضدة يوم فتشتُ البيت، كان فيها قائمة مُشتريات بتاريخ اليوم بخط أمي حبهان، هل هي هنا حقًّا؟ هززتُ رأسي كأنني أنفض الفكرة، لكنني أعرف خط صفية جيدا، لا يمكن أن تكون من كتبَها!

بينما كان كلٌّ منا شاردا في أفكاره ارتفع صوت التلفاز، نظرنا دون وعي نحو ذلك الكرسي، ثم انتبهنا إلى ما يقوله مذيع النشرة الإخبارية:

«والآن، سادتي وسيداتي وآنساتي، كما وعدناكم في بداية النشرة سنعرض لكم تقريرًا ميدانيًّا انتشر في الساعات الأخيرة على مواقع التواصل الاجتماعي، استطعنا الحصول عليه رغم أنه مُلاحَقٌ بالحذف أينما نُشر، وهو لصحفي لم يُفصح عن اسمه يرصد التغييرات التي جرت لقرية السنديانة المُهجَّرة من قضاء حيفا المحتلة»

ثم يظهر يوسف على الشاشة فجأة، نقفز ثلاثتنا ونتصلَّب أمام التلفاز، يتجول في أرضٍ مُجرَّفة تنمو

فيها نباتات برية وصبار كأنها إصرار من المكان على المقاومة، وتنتصب خلفه بقايا واجهة بناء غير معروف، يقول يوسف:

«مرت خمسةٌ وسبعون عامًا وما زال الاحتلال يخاف من ذاكرة المكان، لأنه يُدرك جيدًا أن المكان لا ينسى أصحابه حتى وإن أُجبروا بالسلاح على تركه، قبل أسابيع نشرت صحيفة آحاد هعام التابعة لحكومة الاحتلال خبرًا عن نية الحكومة استصلاحَ ما تبقى من أراضي السِّنديانة والانتفاع بها باعتبارها صحراء جرداء لم تُسكن من قبل، تمكنَّا من التسلل إلى هنا لنتجول معكم في المُتبقي من القرية ونسألكم: هل ترون هذه الأرض صحراء كما يراها الاحتلال؟ انظروا إلى هذه الواجهة الصامدة منذ خمسة وسبعين عاما بعد أن قصفت الميليشيات الإسرائيلية بيوت القرية، هذه الواجهة هي كل ما تبقى من مسجد قرية السنديانة»

ثم تنتقل آلة التصوير من الواجهة الحجرية لتدور في المكان، يُكمل يوسف:

«إنني أنظر إلى جميع الجهات الآن متسائلا في أي جهةٍ وفي أي رقعةٍ بالضبط كان يقع بيت جدي لأمي، صالح سعد العليا، المحاط بمزرعته العامرة بأشجار الزيتون والبرتقال والصنوبر. على تلك الأراضي التي ترونها في الجنوب الغربي من القرية أنشأ الصهاينة

مستعمَرة أفيئيل، أما الأراضي المحيطة بها من الجهات الأخرى فإنهم يستخدمونها كمرعَى للمواشي، والسِّنديانة نفسُها، هذه التي أمستْ أكوامًا من الحجارة وأنقاض المنازل المُدمَّرة ونبات الصبار وأشجار التين والزيتون والسنديان والنخيل، مُسيَّجةٌ كما ترون بالأسلاك الشائكة، إنهم يسجنون السنديانةَ كما لو كانت ستهرب! انظروا إلى كل هذه الأنقاض وبقايا المنازل والأشجار التي ما زالت تطرحُ الثمار، هل هذه أرضٌ بلا شعب؟ إنني متلهفٌ بشدة لأن أعرف أين كان بيت جدي بالضبط، ربما لن يتسع الوقتُ المتاح لي لأفتح الخرائط القديمة التي توصلتُ إليها وأهتدي إلى المكان، لكنني على يقين أن أصحاب ذلك البيت سيعودون إليه يومًا ما، إن لم أعد أنا فإخوتي أو أبناؤهم أو أحفادهم»

لا تُفلح أمينة ولا صفية في منع دموعهما من الانهمار، ويتشتت تفكيري بين الفرح بأن يوسف ما زال حيًّا والتساؤل عن الكيفية التي وصل بها إلى قرية أجداده المُهجَّرة رغم تعقيدات ذلك، وأتذكر ما كان يُردده دائمًا من أنه حين يعود إلى فلسطين فلن يعود كسائح يتجول فيها يومين ويرحل بل كمقيم، أبتسم وأدرك أنه حقق أمنيته أخيرا.

-٢١-

يوسف

لا أعرف ما الذي كنتُ أنوي فعلَه وأنا ذاهبٌ إلى بيت أمي لأواجه زوجها، لكنني عندما أخبرتْني صفية بما تعرفه لم أتمالك نفسي فأسرعتُ بالذهاب، ربما لو لم يدفعني بباب السيارة ويهرب كنتُ قتلته!

لماذا أخبرتني في ذلك الوقت بالذات رغم أنها صمتت طوال الأسابيع الماضية منذ وفاة أمي؟ عندما سألتُها هذا السؤال في آخر مكالمةٍ مرئية بيننا قالت أنها لا تدري، وأنها تشعر بأن الأمر ثقيل عليها ولا تستطيع أن تحمل هذا السر الحارق وحدها، وبأنه لا أمينة ولا ضحى تصلحان لحمله معها. قالت وهي تنشَق بصوتٍ متهدِّجٍ وجفونٍ منتفخة:

«عندما سقطت أمي في المطبخ كنتُ معها في مكالمةٍ مرئية، كانت تضع الحاسوب المحمول على منضدة المطبخ، شعرتْ بالضعف فجأة ونهضتْ لإحضار جهاز قياس السكر، لكنها سقطت ما إن خطتْ خطوتين، رأيتُها وهي تسقط ويُغمي عليها، ناديتها كثيرا دون جدوى...»

شهقتْ شهقاتٍ متتالية فأكملتُ نيابةً عنها:

«وهاتفتِني فأخبرتني بما جرى حتى أذهب لإنقاذها»

أردفتْ بعد أن مسحت دموعها ثم أنفها بمنديل ورقي:

«نعم، لكنني لم أُغلق مكالمتي معها، ظل حاسوبي مفتوحًا وحاسوبها كذلك، ولهذا رأيتُ كل شيء»

غلبها البكاء من جديد بعد الكلمة الأخيرة، حاولت تهدئتها وأنا أسألها عما رأته، استجمعتْ نفسها وقالت:

«قبل أن تصلَ إليها عاد أبي إلى البيت، دخل المطبخ، رأيتُه لكنه لم ينتبه إلى الحاسوب في الزاوية، انحنى نحو أمي وظل لحظاتٍ منحنيًا، لا أدري ماذا فعل في تلك اللحظات، ربما يكون جسَّ نبضها، أو ربما... لا أدري، لكنه نهض أخيرًا وغادر المكان بسرعة»

ألجمتني المفاجأة فظللنا ساكتَين لثوان، ثم سألتُها بصوتٍ يجاهد للخروج:

«هل تعتقدين أنه فعل شيئًا ما؟ هل فعلها؟!»

أجابت من بين دموعها:

«لا أدري، لكنه حتى لو لم يفعلها بنفسه فقد كان بإمكانه إنقاذها، لقد وصل قبلك ولو كان أسعفها لكانت حية الآن، لكنه تركها عمدًا لتموت، لهذا اعتقدتُ أنه قاتلٌ أيًّا كانت حقيقة ما حدث في ذلك اليوم»

«النذل!»

هتفتُ بانفعال وأنا أضرب سطح المنضدة بيدي، قالت

صفية:

«لم أدرِ يومَها ماذا أفعل بما رأيته، كنا جميعًا مشغولين بموت أمي، وكنت أشعر بنفسي كالتائهة في لجة عميقة لا أدري كيف أطفو، لا ينجح عقلي في تفسير أي شيء أو التفكير في أي شيء، دماغي مشلول وقلبي مُصاب وحواسي مُتخدِّلة وثقيلة، وحتى عندما بدأتُ أستعيد نفسي لم أخبره أنني رأيتُ شيئا، لا أدري لماذا، لكنني لم أنسَ ذلك لحظةً واحدة، أحلم به كل ليلة»

هتفتُ متوعدا:

«سأقتله، أقسم أنني سأقتله!»

قالت بصوتٍ راجٍ:

«أرجوك يا أخي، لا تفعل شيئًا، لا تجعلني أندم أنني أخبرتُك، إنه ينال جزاءه الآن بالفعل، يعيش في رعبٍ حقيقي، لم تغادر أمنا البيت ولم تتركه مرتاح البال، لقد صار يكلم نفسه»

أجبتُها بغيظ:

«كل هذا لا يكفي، هل هذا فقط هو ثمن حياة أمي؟ لقد ماتت بينما لم يزل ذلك النذل يعيش في بيتها حتى الآن!»

قالت بإصرار:

«بالطبع ليس هذا فقط، كن واثقًا أنني سأنتقم لها ولكن بطريقتي، عِدني فقط ألا تفعل شيئا»

سألتُها بقلق:

«ما الذي تنوين فعله؟!»

فأجابتني بعد أن رشفتْ رشفتين من كوب ماء كان بجانبها:

«لا تقلق، لن أفعل شيئًا يضرُّ بي بأي شكل، أنا فقط أعرف نقاط ضعفه، وسأحول حياته إلى جحيم حتى لا يبقى أمامه سوى مهربَين: الانتحار أو الجنون»

لم تُطمئنِّني كلماتها، بل على العكس أخافتني نبرتها المليئة بالحقد، وانتهت مكالمتُنا دون أن أعرف ما ينبغي عليَّ فعله.

لكن لم تكد تمر ربع ساعة حتى كنتُ قد حسمتُ أمري على الذهاب إليه، كان يحزُّ في نفسي أن له يدا في موت أمي وها هو الآن يهدد سلامة أختي، خرجتُ من البيت بعد أن حزمتُ أغراضي، وطلبتُ سيارة أجرة وأنا أقول لنفسي أنني سأقتله وأستقل طائرة الليلة إلى بيروت، كنت قد اتفقت مع أحد الأصدقاء من موقعِ قاومْ أن أدخل إلى الداخل المحتل برًّا من بيروت بجواز سفري

الأمريكي بمعيةِ قريب له يحمل الجنسية الإسرائيلية، كان موعد إقلاع طائرتي بعد ست ساعات، وطوال الطريق إلى بيت أمي رحتُ أفكر في طريقة مضمونة لقتله والهرب قبل أن يكتشف أحد جثته، لكنني وصلتُ البيت قبل أن أُقرر شيئًا بعينه.

تشاجرنا وسببتُه بشتائم لم أعرف أن بوسعي نطقها، لكنه تمكن أخيرا من الإفلات من قبضتي واتجه نحو المرأب، لحقتُه فركب سيارته، وقبل أن يُغلقها أمسكتُ بابها ورحتُ أكرر أنني سأقتله دون أن أنفذ وعيدي، لا أدري ما الذي كنتُ أنتظره، حتى استفزني حين قال ساخرا إنني لا أقدر على فعل شيء له لأنني قليل الحيلة كأمي ونسبي كله، استشطتُ غضبًا فتركتْ يداي باب السيارة لكن قبل أن تصلا إلى عنقه دفع الباب بكل قوته ليضرب به رأسي، اختل توازني وشعرتُ أن الأرض تهتز تحت قدميّ، تراجعتَ إلى الوراء لأستند إلى الحائط فاستغل الفرصة وهرب بسيارته.

عندما استجمعتُ قواي وزال عني الدوار كان كل ما أفكر فيه هو قلقي على صفية، لم أكن مطمئنا للنبرة التي تكلمت بها ولا لفكرة الانتقام من أبيها، لكن لم يكن أمامي وقتٌ كافٍ لمقابلتها ومحاولة ثنيها عما تنتويه، فقد كان عليَّ الانطلاق في رحلتي نحو نيويورك حيث ستقلع بي الطائرة الليلة إلى بيروت، تمزَّعتُ لدقائق

بين الخيارين، إما أن أُلغي سفري تاركًا الفرصة التي انتظرتُها تذهب وأنا غير متأكد أنها قد تسنح مرة أخرى، وإما أن أسافر تاركًا صفية لرأسها الذي لا أعلم ما يدور فيه، اخترتُ أن أسافر ومنّيتُ نفسي بأنها ذكية كفاية لعدم إيقاع نفسها في ورطة، وبأنني سأتواصل معها فور أن أستقر في فلسطين بعد أداء مهمتي.

الآن وبعد مرور أكثر من عشرة أيام أجلس هنا في مخبئي غير قادرٍ على الاتصال بها أو حتى أن أُزيح ستارة النافذة أو أُشعل الضوء، تطاردني شرطة الاحتلال لأنني قتلتُ جنديَّين أوقفاني في حاجز أمني وطلبا تفتيش السيارة التي كنت فيها، كانوا سيكتشفون آلة التصوير وما عليها ويفشل كل شيء خططنا له، تبادلت مع رفيقي الذي كان في مقعد السائق نظرةً اتفقنا فيها على ما سنفعل، وبحركة خاطفة أخرجتُ المسدس من حزامي وأطلقتُ رصاصتين في صدريهما، وانطلق رفيقي بأقصى سرعة وخلفه سيارة شرطة أخرى، أفلحنا في الهرب منها بصعوبة، ومنذ ذلك الوقت ونحن هنا.

من المُفترض أن نغادر هذا البيت الليلة بصحبة معارف بعض الأصدقاء، أخبرتُهم أن لي عمًّا يعيش في قطاع غزة فوعدوا بمساعدتي في الذهاب إليه إذا نجونا.

-٢٢-

مارت

أشار أستاذ علم النبات إلى شجرة السنديان العتيقة وقال:

«عمرُ هذه الشجرة ألفٌ وسبعمائة عام»

تصاعدت همهمات الدهشة من الزملاء، قلتُ بصوتٍ مسموعٍ دون أن أوِّجه كلماتي لأحدٍ بعينه:

«شجرةٌ أكبرُ من أمريكا ذاتِها!»

نظر لي بعض الطلاب شزرًا وبعضهم الآخر باستفهام وآخرون بغير اهتمام، لم يُبدِ الأستاذ أيَّ ردٍّ فعلٍ وأكملَ رافعًا صوته ليتغلب على الجلبة الصغيرة الناشئة:

«إنه لشيء مدهش حقًّا أن ننظر إلى شجرةٍ تجاوزت سبعةَ عشر قرنًا بكلِّ ما حصل فيها من جفافٍ وأعاصيرَ وحروب، أنتم كعلماء نبات مستقبليين ينبغي لكم كي تدرسوا شجرةً ما أن تبدؤوا بدايةً صحيحة، هذه البداية ليست أيًّا من الخطوات العملية التي درسناها بالتفصيل الممل، هذه البداية ليست سوى التعرف على الشجرة، ستعرفون عائلتَها وعمرها ثم تتكلمون معها كما يتكلم حفيدٌ مع أحد أسلافه لو أمكن له أن يلتقيَ به»

مدَّ أحدُ الطلاب يده نحو الشجرةِ باسطًا كفَّه وقال

مُتظارفًا:

«مرحبًا يا جدتي الشجرة، اسمي أندرو، أين جدي العزيز لا أراه!»

ندَّتْ من بعض الطلاب ضحكاتٌ مكبوتة، قال الأستاذ مبتسمًا وبهدوء:

«هذا ظُرفٌ منكَ يا أندرو، يُمكنكَ الآن أن تعود إلى الحافلة وتنتظرنا هناك»

تلاشى التعبيرُ المَرِحُ عن وجه أندرو وحاول أن يرجوَه، لكن الأستاذ قطع عليه الطريق بنظرةٍ زاجرة فلم يجد بُدًّا من الانصياع، وعادت الجديةُ تكسو ملامح الطلاب خاصةً من ضحكوا منهم بعد ما رأوه من صرامة الأستاذ. قال بعد ذهاب أندرو:

«عالِم النبات الذي لا يُحسنُ التواصل مع الشجرة التي يدرسُها لن تُعطيَه الشجرةُ أسرارها، أول شيءٍ عليكم أن تتعلموه عن الأشجار هو أن تحترموها، كلُّ شجرةٍ تنظرون إليها قد تكون أكبرَ عمرًا منكم، هذه كائنات رأت ما لا ترونه، شهِدتْ على أشياء لا تعرفونها إلا من خلال الكتب، مرتْ بتجارب ربما لن يمرَّ بها أيٌّ منكم، ثم بقيتْ صامدةً حتى اليوم الذي تقفون فيه أمامها بغرورٍ معتقدين أنكم ستعرفون عنها كل شيء بما تمتلكونه من أدوات البحث العلمي وفحص النباتات»

نظر بعضُنا إلى بعض، ودار الأستاذ حول شجرة السنديان التي بدتْ لنا مَهيبةً في تلك اللحظة، قال وهو يتحسس لحاءها الخشن المليء بالأخاديد:

«العلمُ وحده لم يكن كافيًا للعالِم في أي وقت، ستتواصلون معها بكلِّ حواسِّكم، ستسحضرون ما تعرفونه من ماضيها، ثم ستتركون العنان للمُخيّلة لتُبحرَ في تاريخ الشجرة، ولكي يُمكن لكم ذلك لا بد أن تكونوا على اطلاعٍ كبير بتاريخ المكان الذي تعيشُ فيه، ليس بظروفه المناخية وطبيعة تربته فقط، بل بتاريخه البشري أيضا، يعني هذا أنكم إذا أردتم أن تدرسوا شجرة السنديان هذه فإن عليكم أن تكونوا مُلِّمين وبشكلٍ جيدٍ بأبرز ما حدث في هذه الأرض على امتداد القرون السبعة عشر الماضية، ولهذا السبب كلَّفتُكم في بداية الفصل الدراسي بإعداد بحث تاريخي عن ولاية أوكلاهوما»

نظر بعضُنا إلى بعضٍ من جديد وأومأنا إيماءةَ من يفهم أخيرا، صفق الأستاذ إحدى يديه بالأخرى وقال بنبرةٍ مُحمِّسة:

«الآن تبدأ تجربتُكم الأولى كعلماء نبات حقيقيين، ستكون أمامكم ساعةٌ كاملة تتواصلون فيها مع شجرتِنا العزيزة المُعمَّرةِ مُستعينين بما عرفتموه من تاريخها عند البحث، ما يعني أن كلَّ واحدٍ منكم سيواجه الآن نتيجة اهتمامه بموضوع البحث أو إهماله والاستخفاف به»

لاحتْ أماراتُ الخيبة على وجوه البعض وبدأت الهمهماتُ في الارتفاع، صفَّق الأستاذ مرةً أخرى لينتبه الجميع ثم قال:

«بعد ساعةٍ سأعود إليكم لأناقش معكم ما توصل إليه كلٌّ منكم، وبحسب دقة ما تخبروننني به عن حالة هذه الشجرة وأسباب الأمراض التي تعاني منها وأسباب صمودها طوال تلك القرون ستكون علاماتكم في مادتي لهذا الفصل»

ارتفعت الهمهمات أكثر هذه المرة، ولَّانا الأستاذ ظهره وقبل أن يبتعد نادتْه إيما، زميلتي السمراء ذات الأصول الأفريقية، وسألتْه مُستعطفةً:

«هل تسمح لي بأن أناديَ أندرو يا أستاذ؟»

ردَّ الأستاذ دون أن يلتفت إليها:

«اهتمي بعملك يا إيما»

عادتْ مُجلَّلةً بالخجل تتلافى التقاء عينيها بأيٍّ منا. لم يكن إعجابها بأندرو خافيًا على أيٍّ من الحاضرين، ولا عدم اهتمام أندرو بها كذلك، بل وعجرفته وتباهيه بأصوله الإنجليزية العريقة وترديده بمناسبة ودون مناسبة أنه ينحدر من أسرة إقطاعيةٍ نبيلة، ما كان خافيًا على إيما هو سخرية أندرو منها مع بقية المجموعة، حتى إنني لا أنسى تعبير وجهه عندما سأله واحد من أفراد

المجموعة إذا كان يبادل إيما الإعجاب، فردَّ عليه بمزيجٍ من التعالي والزهو:

«أقصى ما يمكنها أن تأمله مني فعلَه أجدادي لها بالفعل»

لم يفهم ذلك الزميل فسأله عما يعنيه، هز كتفيه بلا مبالاة ولم يرد، لكنني كنتُ قد فهمتُ ما رمى إليه فقلت باستياء:

«إنه يعني أن أجداده الأوربيين تفضّلوا على إيما عندما جلبوا أجدادها من جنوب أفريقيا ليعملوا بالسخرة في بناء حضارة أمريكا العظيمة»

ما حدث بعد ذلك كان متوقعا، وحال بيننا بعض الأصدقاء قبل أن تتصاعد الأمور وتنتهي بنا إلى الخضوع لمجلس تأديب.

نفضتُ من ذهني تلك الأفكار، ونظرتُ حولي لأجد زملاء المجموعة قد بدؤوا يتفرقون، منهم من يئس وسلَّم بإعادة هذا المقرر لأنه لم يهتم بالبحث التاريخي، ومنهم من اقترب من الشجرة محاولا على حد تعبير الأستاذ أن يتواصل معها، فكرتُ قليلًا قبل أن أهتديَ لما سأفعله لأحظى ببعض الهدوء مع السنديانة المدهشة، وخلال أقل من دقيقة كنتُ جالسًا فوق أحد غصونها على ارتفاع ثلاثة أمتار، متجاهلا نظرات استغراب البعض وسخرياتِ

الآخرين.

أغمضتُ عينيَّ وجعلتُ أُمرِّرُ كفي بحنوٍّ على الغصن المُعمِّر، انفصلتُ تمامًا عن الوجود حولي وشعرتُ كأنَّ الشجرة تمنحني ذاكرتَها، برقَتْ في دماغي أحداث قرونٍ طويلة من العيش بأمان حتى مجيء المحتل الأبيض مُنهكًا ووَسِخًا وباحثًا عن لقمة خبزٍ وشربة ماء بعد أسابيعَ من التيه في عرض المحيط، غمرني سلامٌ داخليٌّ هائل وأنا أرى طيبةَ أجدادي يُقدِّمون المأوى والمحبة للتائهين الغرباء الهاربين من اضطهاد حاكمهم، تحت هذه الشجرة علموهم كيف يزرعون، كيف يجمعون المحصول، كيف يربُّون الحيوانات ويحلبون لبنَها، وعند مجرى الماء القريب ذاك حاولوا أن يُعلِّموهم كيف يُنظِّفون أنفسهم ولكن دون جدوى. ثم تبدل الهدوء الوادع وأجواء الحفاوة إلى الصراخ ونزفِ الدم، ورأيتُ الضيوف التائهين الجائعين العراة يستقدمون جيشًا مسلحًا طلبوه من حاكمهم المستبد ليسيطروا على الأرض البكر ويرسلوا له من خيراتها ويحلوا مشاكلهم الاقتصادية باحتلالها واستنزاف مواردها، سنين طويلة من الغدر والقتل أبادوا فيها مئة مليون من أجدادي ومثلوا بجثثهم، ورصدوا المكافآت لكل رجل أبيض يذهب إليهم بفروة رأس واحد من السكان الأصليين، أولئك الطيبين الذين استقبلوهم بالمحبة الزائدة وعلموهم كيف يعيشون على أرضهم، لينتهى بهم الحال مُبادِين ومُطاردين لأن الرجل الأبيض

الشريد المُنهك، كريه الرائحة الذي حاولوا أن ينقلوا إليه عادةَ الاستحمام الحميدة، اكتشف بعدما استردَّ عافيتَه أن هذه الأرض في حاجةٍ إلى حضارة، وأنه الوحيد القادر على منحها هذه الحضارة مشكورا!

شعرتُ بداخلي يحترق، واتصلتْ في قلبي معاناة أجدادي بمعاناتي، ورأيتُ أولئك الغادرين القتلةَ الأوائل جناةً عليَّ ومتسببين في تشرُّدي، وتذكرتُ كلمةَ أمي ماري لي وهي على فراش الموت: «أرجو أن أكونَ كفَّرتُ بأمومتي لك عن نصيبي مما فعله أجدادي بأجدادك»، ربما لولا عنايتها وحنانها ما كنتُ تمكنتُ من العيش حتى اليوم، على الأقل ليس كطالب جامعيٍّ محترم، وتساءلتُ: ما الذي كان ليحدث لو لم تكن ماري بيري موجودة؟ لكنني قلتُ لنفسي: لو لم يجئ أجدادها إلى أرضنا لكنتُ أمرحُ الآن في هذه الغابات الخضراء السعيدة بين أهلي، ما كانت هناك عنصرية، ما كانت هناك قوانين جائرة ضد السكان الأصليين، ما كنا لنصبح أقليةً في بلدنا، لقد غيَّروا وجه هذه الأرض تماما، محَوا سكانها وأحلُّوا أنفسهم محلَّهم، كأنما لم يكن هناك شعبٌ يتجاوز مئة مليون إنسان على هذه الأرض قبل أن ترسو سفينتهم عليها، لقد مسحونا من الوجود كأننا كنا مجرد كتابةٍ بالقلم الرصاص لم تصمد أمام الممحاة!

طقطقَ الغصن الذي كنت أتكئُ عليه بذراعي، ولولا

أنني تمسَّكتُ في اللحظةِ الأخيرةِ ربما كان الغصن انكسر بي لأسقط من ذلك الارتفاع على الأرض غير المستوية، وشعرتُ على نحوٍ ساحرٍ ومُعجزٍ أن الشجرةً تنهرُني، عُدتُ لأنظر إليها فخطر لي، كأنما بإلهامٍ منها، أن وجودها في حد ذاته يعني أنهم لم ينحجوا في محوِ تاريخ هذه الأرض أو إنهاءِ شعبها، إن عمرها سبعة عشر قرنًا، كانت موجودةً هنا قبل أن يأتوا بقرون، وستظل هنا بعد أن يرحلوا، قالت لي شجرةُ السنديانِ العتيقةُ أن بوسعِ المُحتلِّ أن يفرضَ وجوده على الأرض بالقتل والتهجير، لكن ليس بوسعه مهما فعل أن يمحو ذاكرة الأرض، ومهما حاول أن يكنس جريمتَه تحتَ سجادةِ التاريخ سيظلُّ هناك شهودٌ خلفَه لم يحسب لهم حسابا، قالت لي شجرة السنديان: لقد رأيتُ كلَّ شيء، وراحتْ تقود يدي إلى ندوبها القديمة وتُفصحُ لي عن عِلَّاتِها المُزمنة وأسباب صمودها العظيمة، وقلتُ لنفسي: ضمنتُ نجاحي في المقرر الدراسي وفي امتحان الأمل.

انتشلني رنين هاتفي من حواري الطويل مع الشجرة، استغربتُ عندما رأيتُ اسم السيد إلياس على الشاشة، فتحتُ المكالمةَ سريعًا فأتاني صوته منفعلا يخبرني أن السيدة حبَّهان أوصتْ لي بالبيت، قائلةً أنني أحقُّ ببيتٍ في وطني من أي شخص آخر، لم أُصدق ما سمعتُه، هل حقًّا يرجعُ إليَّ الآن جزءٌ من أرضِ أجدادي المسلوبة؟ هل يعود هذا الطيرُ الشريد أخيرًا إلى عُشٍّ يخصُّه؟ ومَن

الذي يُساعده على العودة؟ طيرٌ آخرُ مُهاجر؟!

-٢٣-

حبهان

كانت صفية إذًا هي من أخذت ورقة التنازل من عبود، يا لهذه البنت وما تحمله في قلبها من أسرار مُتعِبة، هذا بالضبط ما كنتُ أشفق على أبنائي منه واحتملت العيش مع عبود وألم تجميل صورته خوفًا من أن يحدث، وصفية بالذات تأخذ على عاتقها محاربة أعدائي بشجاعة، تقول لي عندما أرجوها ألا تورط نفسها في ثأرٍ لم تعِ جذوره أن الأبناء لا يرثون من آبائهم الملامح والمآثر فقط، وإنما يرثون معها ثأر الآباء والأجداد ويُحاربون من أجله ويُورِّثونه لأبنائهم إذا لم يتمكنوا من حسمه بأنفسهم، ولهذا أُصيبت بخيبة أملٍ عندما لم تمُتْ حَنَّة، جاءتْ إلى البيتِ فوجدتْها قد عاثتْ فيه تغييرا وإفسادا، فهرعتْ إلى المطبخ قبل أن تخرج الأفعى من الغرفة التي جعلتْها غرفتَها، وتناولتْ مقلاةً ثقيلةً من حديد الزَّهر وكمنتْ لها خلف جدار المطبخ المُطلِّ على الردهة، وما إن دخلتْ حنة حتى ضربتْها بالمقلاة على مؤخرة رأسها قبل أن تلتفتَ لتراها، كانت ضربةً شديدة إلى درجة أنني نفسي توقعتُ أن تموت منها تلك الشمطاء، لكنها لم تمُتْ.

كانوا هنا أمس، صفية وأمينة وإلياس، لأول مرة أراهم مجتمعين منذ أكثر من ثلاثة أشهر، لم أفرح هكذا منذ مدة طويلة.

وحدها صفية كانت تراني، حاولت أن أجعل أمينة وإلياس يصدقان وأحسب أنني نجحت حتى إذا كانا لم يتمكنا من رؤيتي حتى الآن، سيحدث هذا يوما ما بلا شك، ولن أحزن الآن لعدم استطاعتهما رؤيتي لأن اقتناعهما بأنني لن أذهب هو حدثٌ سعيدٌ ومن الجحود أن يُنقص أي شيء من فرحتي به، لقد جاءا إلى هنا أخيرا وملأتُ عينيَّ من وجهيهما وأنفي من رائحتيهما، حتى إنني رغبت بشدة في لكمِ إلياس في كتفه عندما أطفأ التلفاز للمرة الثانية، أردتُ أن أقول له: اجلس مكانك يا ولد واترك التلفاز في حاله، إنني أنتظر أن يطل ابني حبيبي يوسف على شاشته من بلدي، من فلسطين!

هاتفتْني صفية قبل قليل وأخبرتني أنها تلقت رسالة من صالح، أخبرها أن يوسف معه الآن في غزة وأن ذلك حدث قبل ساعات فقط، تساءلتُ عن معرفتها بصالح، قالت أنها تتواصل معه كناشطة سياسية مع طبيب فلسطيني يقيم في بلد مُحاصر، ابتسمتُ شاعرةً بالغبطة؛ ثلاثة من أبنائي لم ينسوا إذًا، وواحدٌ منهم فعلها ودخل أرض أجداده، وإذا كان ابن يوسف وحبهان قد عاد إلى البلاد فقد عاد يوسف وحبهان إليها، لقد رأيت بلد أبي وجدي، قرية السِّنديانة من قضاء حيفا، بعيني ابني الذي حملتُه في بطني هذه، ثم ها أنا ذي أعرف أنه سيعيش في غزة كأي فلسطينيٍّ يعيش في وطنه، صحيح أنه

سيفعل ذلك وهو يحمل جوازَ سفرٍ أمريكيًّا لكن فيمَ تهم بطاقة الهوية التي يدمغُها المحتل بختمه إذا كان صاحب الأرض يعرف القصة كاملة وأرضه تعرفُه؟

جاء مارت مع إلياس أمس وجاءت بعدهما المحامية، كان السرور والامتنان يُطلان من وجهه، وبالكاد أفلح في التحكم في انفعاله بينما يُوقِّعُ على وثيقة ملكية البيت، ثم لم يقدر بعد أن هنَّأه إلياس أن يُمسك دموعه، كانت حنَّة تُنقِّلُ بصرها بين ثلاثتهم غيرَ فاهمةٍ ما يحدث، واستمتعتُ وأنا أُخبرُها بتشفٍّ أنني أوصيتُ بالبيت لمارت وأنه أصبح منذ الآن ملكًا له بينما بناتي مُجرد مُستأجِرات، وعبود، زوجها، لا ناقة له ولا جمل، وأنها إن سمحتُ لها بالبقاء هنا فحتى أُمرِّرَ عيشها فقط وأحول حياتها إلى جحيم، لم تحتمل الخبر فاعوجَّ حنكُها وأُصيبَتْ من فورها بالشلل، وكأنه كان ينقصها شلل آخر!

ما زال عبود منزويًا في ركنه إلى جانب الجدار، يظن أنه يختبئ مني خلف الأريكة، رجل جبان، لن أفعل فيه شيئا أفظع مما هو فيه بالفعل، إنه يرتجف هناك مثل كلب أجرب غارق في بوله وغائطه، سأفكر فيما بعد في طريقة ما لتنظيفه لأخلُصَ من هذه الرائحة.

تجيء قطتي زعتر تاركةً عيالها في الحديقة، تقتربُ من وتتمسَّحُ في ذيل جلابيتي، أبتسم فتقفزُ إلى حِجري ثم إلى كتفي اليمنى، ومن هناك تلعق خدي وتُدغدغُني،

أضحك وأنا أتذكرُ قطي الجميل زعتر الذي زار منامي منذ أيام، مُصطحبًا معه قطةً حبلى شديدةَ الشبه به، صعد إلى كتفي اليمنى وداعبَ خدي بلسانه فحرَّرني من الشعور بالذنب الذي لازمني طيلة خمسين عاما، كأنما بمجيئه أخبرني بمسامحته، ثم مضى تاركًا لي صاحبتَه، عندما صحوتُ ذلك الصباح وجدتُ تلك القطة التي أحضرها مستلقيةً جنبَ إحدى شجرات البرتقال في الحديقة تُعاني آلام الولادة، أدخلتُها إلى البيت وأنا أكاد أطير فرحًا، وولدت أربعَ قُطيطاتٍ جميلة.

أمدُّ يدي إليها لأُمسِّدَ فروَها الأبيض الناعم، تقفز من كتفي إلى الأرض، وفي طريقها نحو الحديقةِ تقفز في الهواء كصعلوكةٍ حقيقيّةٍ لتخمش وجه حنَّة، ينزُّ منها الدم وتندُّ منها صرخةٌ مكتومة، وأبتسم وأنا أتأمل غباء أنثى الغراب هذه، التي جاءت إلى هنا كلِصَّةٍ وتقعد الآن بجسدٍ ميتٍ في مُتناوَل انتقامي.

-٢٤-

ضحى

لم أحتمل أن أظل في المغرب بعد أن سمعتُ بزواج أبي من تلك الأفعى، ورغم تأكيد أُختيَّ وإلياس أن مارت ذهب إلى البيت بالفعل وتسبب خبر انتقال ملكيته له في شلل حنة، إلا أنني أصررتُ على السفر، فلم تكن رغبتي في الذهاب إلى البيت حتى أحُلَّ المشكلة، بل حتى أعود فقط، حتى أتراجع عن قرار نسيان ماضيَّ وأتخفف من شعوري الدائم بأنني مُنسلخةٌ من جذوري، حتى أتصالح مع أمي وفكرة غيابها المفاجئ، فلم يجد يحيى بُدًّا من أخذ إجازةٍ واصطحابي والطفلين إلى الولايات المتحدة.

عندما وقفتُ على عتبة البيت لأول مرة منذ خمس سنين شملتْني قُشعريرةٌ هائلة، غزتْ عقلي فجأةً كلُّ ذكرياتي فيه، وملأتْ أنفي روائح أمي المميزة؛ طبخها ونظافتها وغسيلها، ورائحة حِضنها العميقة والمُؤمِّنة، تجمَّدتُ مكاني لحظاتٍ شاردةً إلى أن ربتَ يحيى على كتفي، فدخلتُ بينما تأخر لثوانٍ حتى يصل الطفلان بخطواتهما الصغيرة واللذين لم يزالا في الحديقة.

كانت تلك الأفعى جالسةً على كرسيٍّ متحرِّك في الصالة، وغيرَ بعيدٍ منها كان أبي منكمشًا على نفسه فوق إحدى الأرائك، بدا لي أنه شاخ عشرين عامًا دفعةً

واحدة، شعرُه الأبيض الخفيف مُهوَّشٌ وقامته شديدة الهزال، لكنه كان نظيفًا، لم أتوقع أنني قد أُشفق عليه، بل إنني حتى كنت قد أعددتُ له عريضةً طويلةً من الكلام الموجع ناويةً أن أتخلص تمامًا ودفعةً واحدة من كل ما أردتُ قوله له يومًا ما ولم أقُله، ما الذي حصل لي عندما رأيتُه فانعقد لساني؟ لا أدري، لم يزُلْ غضبي منه، لكنني شعرتُ بشعورٍ مُمضٍّ يمنعني من أن أثور عليه، مزيج من الغضب والاستياء والراحة ولكن دون حقد ودون كراهية ودون رغبةٍ في الانتقام.

هل قلتُ دونَ رغبةٍ في الانتقام؟ نعم، لكن ليس بالنسبة إلى هذه الصهيونية العاهرة! كانت في كُرسيِّها المتحرك بفمها المُعوجِّ وأطرافها المتيبّسة تبدو فزِعةً مثل جرذٍ في مِصيدة، تذكرتُ أخي إبراهيم بجسده المهتزّ متدلِّيًا من العارضة، هل تتذكرُه هذه الشمطاء الأشبه بمومياء التي تجلس هنا على بعد خطواتٍ من حيث كان ينام؟ هل تتذكر كيف دفعته بدمٍ بارد إلى قتل نفسه؟ فارَ الدمُ في عروقي فأقبلتُ عليها، وقبل أن أُطبق على رقبتها جمَّدني صوتٌ آسر يأتي من بعيد كأنه صدى، صوت أعرفه جيِّدًا يغني تهويدةً أعرفها جيدا..

يا ستي ويا سيد الكل

يا فِضَّة ما فيك زْغُلّ

ستي متلَك ما جابوا

يا عطرَك ياسمين وفُل

التفتُّ ورائي فرأيتُ ولديَّ مُستكينَين مبتسمَين في كرسيِّ أمي المفضل، يهتزُّ جذعاهما الصغيران كأنَّ حِجرًا ما يُهدهدهُما، حِجرًا دافئًا لجَدَّة!

يا ستي ويا سيد النَّاسْ

يا دهب ما فيك نحاس

سِتِّي لو حكيوا وقالوا

بِتضلَّك ع العين والراس

مشيتُ نحوَ كرسيِّها كالمجذوبة، هل هذه أمي تحتفي بحفيديها الآن؟ حفيديها اللذين أصبح عمرُهما أربع سنين بعيدًا عنها؟ هل هذه هي تُهدهدُهما بالأغنية نفسها التي كانت تغنيها لنا صغارًا قائلةً أن جدتنا أم سليمة هي التي علَّمتْها إياها، وأنها لو كانت هنا الآن لغَّنتْها لنا كي ننام؟

هيه وهيه وهيه يالله

سمن وعسل بالجَرَّة

يا ربي أصير كبير

وأتعلم كلامَ الله

نزلتُ على رُكبتيّ، وضعتُ رأسي على الكرسيِّ بين

ولديَّ المُتهدهِدَين، اقترب يحيى مني مشفقًا فأشرتُ له بيدي كي يطمئن، وتركتُ نفسي لتلك اللمسة التي أحسستُ بها على رأسي والصوتُ يُهدهدني:

والله ربِّي ما قصَّرْ

وأعطاني شو ما تْيسَّرْ

وأعطاني هالنُّوارة

ريتها يا ربي تكبرْ

انحدرت الدمعتان اللتان كنتُ أُمسكهما، وشعرتُ بكل أحزاني وآلامي القديمة تُغادرني دفعةً واحدة وإلى الأبد، نَشَقْتُ فدخلتْ رئتيَّ بهدوءٍ رائحتُها الجميلة، وفكرتُ: ربما تخطتْ أمي الستين لكنَّ صوتَها ما زال كما هو، بِبُحَّتِه المُميَّزة وعذوبته لم تتمكن منه السنون، أسمعه فكأنني أراها واضعةً رأسها في حِجر جدتي في تلك البلاد، ربما ماتت أمي، لكنَّ صوتها لم يزل هنا يُخبر سامعه بماضيها كلِّه ويحملُه على جناحَيه إلى بلادها الجميلة كحلم ، ربما من أجل ذلك علينا أن نكُفَّ عن كتابة المراثي.

***

تمت